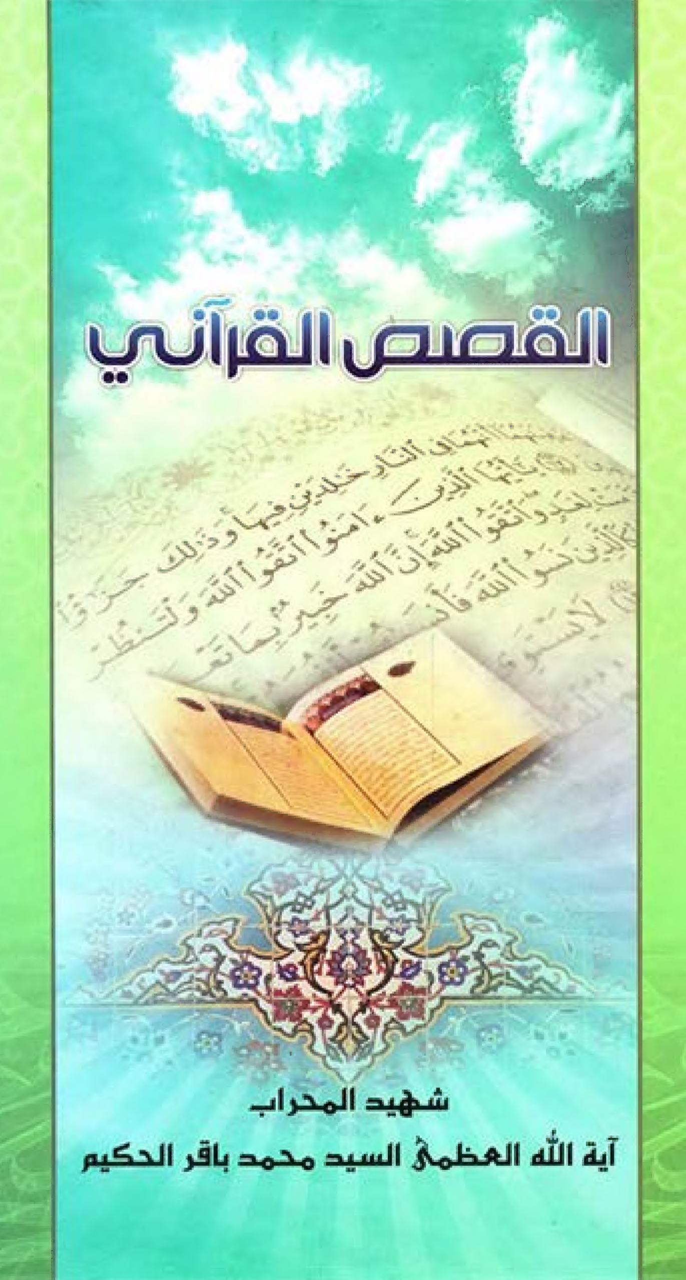
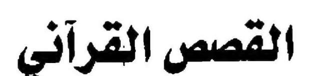


القصص القرآني
شهيد المحراب
آية الله العظمى السيد محمد باقر الحكيم



شهيد المحراب

آية الله العظمى السيد محمد باقر الحكيم قدس سره

مؤسسة تراث الشهيد الحكيم قدس سره

النجف الأشرف

ربيع ٢٠٠٨

طبعة منقحة


بسم الله الرحمن الرحيم

هوية الكتاب

اسم الكتاب: القصص القرآني

الناشر: مؤسسة تراث الشهيد الحكيم قدس سره

المطبعة: العترة الطاهرة

الكمية: ٥٠٠٠ نسخة

النجف الأشرف

ربيع سنة ٢٠٠٨



مقدمة الطبعة الثالثة

الحمد لله كما هو أهله، وصلاته وسلامه على حبيبه البشير الأمين وعلى آله الطاهرين وصحبه المنتجبين...

القصص القرآني ظاهرة مبهرة احتفى بها كتاب الله المجيد، فإذا بـ(القصة) أداة قرآنية غضة الإيحاء والتأثير، بعد أن نالتْ شرف كونها لبنة سامقة في البناء البياني القرآني المُعجز.

وكما فاجأتْ هذه الظاهرة المبهرة قلوب أبناء الجزيرة العربية وعقولهم وأذواقهم الأدبية المميزة، كذلك ظلّت تُفاجئ المفسرين والبلاغيين والمفكرين والباحثين والنقاد والدارسين؛ لكثرة أسرارها، وروعة تأثيرها وآثارها، وجمال خصائصها، ولما تكتنزه من علوم ومعارف وحقائق، ولما تفتحه من آفاق وأبعاد..

فالقصص القرآني لم يكن مادة للمتعة والتسلية المجردة، كما لم يكن سرداً تاريخياً يابس الروح، بل نجد فيه من البؤر المعرفية، والعِبَر التغييرية، والرؤى الفكرية ما يجعله يجمع حُزَماً من الأضواء، وحَشْداً من لآلئ الأنوار، ليجعلها منتظمة كحبات العِقد الثمين، أمام هذا الإنسان الذي أكرمه ربُّه العظيم مبدعُ الجمال، فجعله في أحسن تقويم، وانتقاه ليكون الخليفة على الأرض..


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدّمة المؤلف

لاشك أنّ موضوع القصّة في القرآن من أهمّ الموضوعات القرآنية التي تحتاج إلى اهتمام خاص وعناية متميزة؛ لأنّ القصّة تعبّر عن ثلث القرآن الكريم كما ورد في النصوص، وهي تتناول في الوقت نفسه عامة الأهداف التفصيلية التي استهدفها القرآن الكريم.

وقد كنت تناولت هذا الموضوع بالبحث بصورة مختصرة في المحاضرات التي ألقيتها على طلاب كلية أصول الدين[1] في السنة الرابعة منها، حسب المنهج المعدّ، وكان البحث يتناول من حيث المنهج والمضمون جانباً جديداً في بحث القصّة القرآنية، وحاولت بعد ذلك التوسع في البحث نسبياً؛ ليصبح قابلاً للنشر بصورة

---

(١) كانت كلية أصول الدين في بغداد ضمن المشروع الثقافي والاجتماعي العام لمرجعية الإمام الحكيم ﷺ ومؤسساتها وكان لشهيدنا الغالي جهود في التخطيط والاسناد والمتابعة لها، فأنتدب أستاذا لقسم علوم القرآن الكريم والشريعة والفقه المقارن للاستفادة من ثقافته وعلومه، وقد سجل نجاحا باهراً رغم حداثة سنه، حيث لا يزيد عمره آنذاك على الخمسة وعشرين عاماً.

وبعد مجيء البعثيين اصبحت كلية أصول الدين واحدة من الأهداف التي استهدفها الفكر الطائفي للبعثيين، فتم مصادرتها من قبل نظام حكم حزب البعث عام ١٩٧٥م ـ ١٣٩٥هـ وإغلاقها.

والقـرآن الكـريم الذي لا تنقضي عجائبه، غَرِق في بحره كثير من المفسّرين والباحـثين، فجمعوا بعضاً من يتيمات الدُرَر، وقذفوها إلى ساحل المعرفة البشرية، كمـا غـَرِق فـيه أيضاً بعضٌ من أساطين البيان والأدب، فغمسوا أقلامهم بياقوتِه المُذاب، ليخطّوا أروع حروف الكلمات...

لكنه ـ وهو المعجزة الخالدة ـ لا يزال ينادي: أفلا يتدبّرون القرآن أم على قلوبٍ أقفالها؟

وفي أحلَـك سـنيّ عذاباتـنا، حيـث أمـواج الإلحـاد والاضطهاد، والانتقام والإعـدام، والتبعـيد والتشـريد، والتنكـيل والتضليل... قَلّ عديدُ العلماء الأعلام، والأدبـاء والـنقّاد الأطواد، فهُجر القرآن أو كاد... ونحن أحوَج ما نكون إلى البُناة الحقيقـيين الذين يأخذون من عبَق القرآن ضوءاً فبِهِ يزبرون، وضوءاً فبِهِ يهتدون ويَهـدون.. فإذا بحوزة النجف الاشرف تنطق بلسان أحد علمائها العاملين، وعبيرُ القرآن يفوح من تلك الحروف الشمّاء في(كلية أُصول الدين) ببغداد..

وحـين أراد الطغـاة البُغاة تصفيته جسدياً هاجر مجاهداً بالكلمة والموقف، لـيقارع أحد أعتى طواغيت الأرض، في أصعبِ محن الأمة والوطن. لكن جهاده لم يكـن لـيحول دون مواصـلة عطاءه العلمي والمعرفي، فكان نتاجه عبارة عن عدد كـبير من المحاضرات والكتب والبحوث والدراسات والمؤتمرات والندوات والبرامج التلفزيونية..

وكان للقصص القرآني حيّز يليق به من وقته واهتمامه.

ومع انجلاء غمّة حكم طاغوت العراق، عادتْ حوزة النجف الاشرف لترفد الحـياة العلمية بروائع الآثار، وبدائع الأفكار، لكن أيادي الإرهاب، وأيتام الطغاة، امـتدّتْ لِـتُريق قُـرْب مرقد أمير المؤمنين عليه السلام دم واحد من الأعلام الذين عقدوا العزم على حمل مشعل العلم المحمّدي الأصيل...

بعـد أن عـاد إلى وطنه حاملاً هاجس الارتقاء العلمي لدى شباب المعرفة سـواء في الحـوزة أم الجامعـة وهـو(يقبّل أيادي المراجع العظام) بنص كلماته التي وهّجها بالدمع، ثم بالدم.

إن هـذا الكـتاب الذي بذل فيه مؤلّفه الشهيد الحكيم جهداً كبيراً حاول أن يلفـت الدارسـين من طلاب العلوم الدينية إلى هذا الجانب القرآني الذي لابدّ من العناية به، وتطوير البحث العلمي الرصين فيه، وصقل الذائقة السليمة لدى كاشفي أسراره العظيمة الخالدة كعظمته وخلوده وهو وحْي الله وكلمات جلاله الجليل.

وإنـنا إذ نسـجّل لشـهيد المحـراب ﭬ إحسانه في اختيار القصص القرآني مجـالاً لبحـثه، فـلأنّ في ذلك منطلقاً لأهمّ عمادَيْن معرفيين في حوزاتنا وجامعاتنا على السواء؛ العلم، والأدب...

وفّـق الله العـاملين المخلصـين لمـا يحب ويرضى.. إنه سميع مجيب. والرحمة والرضوان لشهيد الكلمة والمحراب. ولقّاه الزلفى وحُسْن المآب.

مؤسسة تراث الشهيد الحكيم

قسم التأليف والتحقيق


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی


القصص القرآني

كتابٍ مستقلٍ، ولكنّ الهجرة[١] كانت سبباً في أن يصبح هذا الكتاب بعد أن أنجزته بعيداً عن متناول اليد، بعد أن تعرضت جميع ممتلكاتي، ومنها مكتبتي الخاصة، إلى النهب والسلب على يد النظام الحاكم.

وقد كرّرت التجربة في ذلك بعد أن طُلب إليّ تدريس هذا الموضوع في جامعة الإمام الصادق عليه السلام / قسم الدراسات العليا[٢]، فأضفت إلى البحث بعض الموضوعات الأخرى مع توسع في الشرح والتحليل في الإلقاء.

ثم إنّ المركز العالمي للعلوم الإسلامية في قم المقدسة ـ الذي يتولى الشؤون العلمية للطلبة غير الإيرانيين ـ وجد في هذا البحث والمنهج ما يلائم مناهجه العلمية، فطلب إليّ إضافة قصص أنبياء أولي العزم عليهم السلام ما عدا نبينا محمّد صلى الله عليه وآله، فأضفت إليه قصص نوح، وإبراهيم، وعيسى عليهم السلام؛ إذ كان البحث السابق قد تناول قِصّة موسى عليه السلام بالتحليل، وبذلك أصبح البحث يشتمل على قسمين:

القسم الأول: القِصّة في القرآن.

القسم الثاني: قصص أنبياء أولي العزم عليهم السلام.

أمّا القسم الأوّل منه، فيتضمن فصولاً خمسة:

الفصل الأوّل: خصائص القصص القرآني، ونتناول فيه جانبين:

الجانب الأوّل: القِصّة القرآنية والهدف العام من نزول القرآن.

---

(١) بعد أن نفذ النظام المجرم جريمته الكبرى باعدام السيد الشهيد الصدر في أوائل نيسان عام ١٩٨٠م، اتخذ سماحة السيد الحكيم قرار الهجرة من العراق لقيادة عملية الجهاد ضد النظام العفلقي الدموي، حيث أصبح بقاؤه مستحيلاً في ذلك الوقت، فكانت هجرته المباركة في أوائل تموز عام ١٩٨٠م بشكل سري عن طريق احدى الدول العربية المجاورة وصولاً الى سوريا، قبل عدوان النظام الصدامي على الجمهورية الاسلامية الايرانية بحوالي الشهرين والنصف.

(٢) جامعة اسلامية مقرها في طهران.

الجانب الثاني: الخصائص الأساسية للقِصّة في القرآن.

الفصل الثاني: أغراض القِصّة في القرآن الكريم، ونقسمها إلى ثلاثة أنواع:

النوع الأوّل: الأغراض الرسالية.

النوع الثاني: الأغراض التربوية.

النوع الثالث: الأغراض الاجتماعية والتأريخية.

الفصل الثالث: في دراسة مجموعة من الظواهر التي اتّصفت بها القِصّة في القرآن الكريم، مثل: ظاهرة تكرار القِصّة، وظاهرة اختصاص القصص القرآني بأنبياء منطقة الشرق الأوسط، وظاهرة تأكيد القرآن لقصص بعض الأنبياء، كموسى، وإبراهيم عليهما السلام، وظاهرة الأسلوب الخاص في عرض القِصّة.

الفصل الرابع: دراسة منهجية وتطبيقية لمواضع القِصّة في القرآن الكريم من حيث الأبعاد التالية:

١ ـ أسباب تكرار القِصّة.

٢ ـ تشخيص الغرض الذي سيقت له القِصّة في الموضع الخاص.

٣ ـ تفسير تغاير الأسلوب في العرض والمضمون.

٤ ـ العلاقة بين القِصّة وسياقها في القرآن.

٥ ـ تحليل لمضمون المقطع الذي يتحدّث عن القِصّة.

وقد أخذنا قِصّة موسى كنموذج لهذا المنهج في دراسة القِصّة؛ باعتبارها أوسع قِصّة تناولها القرآن الكريم في عدد المواضع، إذ تناولنا تسعة عشر موضعاً وردت فيه.

ولابدّ أن نلاحظ هنا أنّ هذا الفصل يعرض أحد المناهج التي يمكن التزامها في بحث القِصّة في القرآن الكريم. وهو منهج جديد في دراسة القِصّة القرآنية، في حدود اطلاعي.

الفصل الخامس: دراسة منهجية أخرى في دراسة القصّة القرآنية. تناولنا فيه: قصّة آدم (خلافة الإنسان على الأرض) وحاولنا فيه استخلاص النظرية في هذا الاستخلاف، واتبعنا فيه أسلوب العرض للمنهج السائد في الدراسات القرآنية التفسيرية: من ذكر الآراء المتعددة، وشرح المفاهيم المذكورة، ومناقشتها، مضافاً إلى ذلك عرض النظرية. وهو منهج في البحث تلقيناه على يد أستاذنا آية الله الشهيد الصدر ﷺ. وبذلك نقدم منهجاً آخر في دراسة القصّة القرآنية.

وبهذا يُختتم القسم الأوّل من البحث.

وأمّا القسم الثاني من البحث، فيتضمن فصولاً أربعة، يتناول كل فصل منها قصة أحد الأنبياء الأربعة: نوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى ﷺ.

وقد اتبعنا في دراستهم:

أولاً: تعريفاً عاماً بالنبي وموارد ذكره في القرآن الكريم.

ثانياً: الحديث عن قوم النبي من خلال تناول الأبعاد العقائدية والأخلاقية والسياسية والاجتماعية لهم، ولكن بصورة مختصرة.

ثالثاً: الحديث عن شخصية النبي ومواصفاته.

رابعاً: الحديث عن مراحل حياته من خلال تقسيمها إلى مراحل رئيسية.

خامساً: تسجيل الملاحظات حول القصّة بصورة عامة، مضافاً إلى ذلك الملاحظات حول كلّ مرحلة من مراحل حياة النبي.

وفي هذا المنهج اختلفت قصّة موسى ﷺ عن بقية قصص الأنبياء الثلاثة؛ بسبب أنّ قصّة موسى قد ورد تحليل جميع مواضعها التي ذكرت في القرآن الكريم، الأمر الذي أغنانا عن اتّباع هذا المنهج فيها، فجاءت مكمّلة لما ورد في القسم الأوّل منها.

ولاشك أنّ دراسة قصص هؤلاء الأنبياء ـ التي هي أهم القصص الواردة

في القرآن الكريم ـ تؤهّل الطالب لمعرفة ودراسة بقية قصص الأنبياء من خلال المطالعة والمتابعة، لا سيّما أنّنا نجد أمامنا عدداً من مناهج دراسة القصّة في القرآن الكريم[١] تفتح أمام الأستاذ والطالب آفاقاً في البحث دون مؤونة وتكلفة، ويمكن للأستاذ أن يطور الطلاب من خلالها، أو يوجههم إلى البحث والكتابة على نسق واحد.

كما أنّ أغلب الملاحظات التي أوردتها حول مراحل القصص أو القصّة نفسها تصلح لأن تكون موضوعاً للمتابعة من قبل الطلبة عندما يكلفون بكتابة البحوث.

ملاحظات عامة حول البحث

ويحسن هنا ـ في المقدّمة ـ أن أشير إلى مجموعة من الملاحظات العامة التي أرى أنّها نافعة ومهمة في فهم هذا البحث وطبيعة مصادره ووسائل الإثبات فيه، مضافاً إلى ملاحظات أخرى أقدّمها بين يدي الأساتذة للاستفادة منها في توجيه الطلبة أعزّهم الله، وهي:

الملاحظة الأولى: اعتمدت في مراجعة المصادر لتكوين الرؤية: كتاب البحار للشيخ المجلسي، والميزان للعلامة الطباطبائي، وقصص القرآن لابن كثير، وقصص القرآن لعبد الوهاب النجار، وإنّما تمّ اختيار هذه الكتب؛ لأنّها تمثل اتجاهات تفسيرية أساسية: فالأوّل يمثّل أوسع جامع للأخبار التي وردت عن أهل البيت عليهم السلام في بيان وشرح القصّة، والثاني يمثّل آخر مدرسة في تفسير القرآن الكريم، تعتمد تفسير القرآن بالقرآن، وتستفيد من الأخبار والتأمّل العقلي والمعرفة

---

(١) أشرنا سابقاً إلى هذه المناهج. منه قدس سره.

الإنسـانية والـتجارب التأريخية، والثالث يمثّل مدرسة التفسير بالمأثور عند جمهور المسـلمين، والـرابع يمـثّل مدرسـة الـرأي وتقريب الحوادث القرآنية من الحوادث الحسـية والتجربـية، مضـافاً إلى مدرسـة أهـل الحديث والوقوف على النصوص المتوارثة في مدرسة الجمهور بملاحظة نقد اللجنة لهذا الكتاب.

ومع الاهتمام الخاص بهذه الكتب كنت أستفيد ـ بطبيعة الحال ـ أحياناً من كتـب أخـرى: كمجمـع البيان للشيخ الطبرسي، وتفسير المنار للسيد رشيد رضا، وبعض كتب التأريخ واللغة.

الملاحظة الثانية: لقد حاولت الالتزام بمنهج فرز المدلولات القرآنية في القصّة عـن المدلـولات الأخـرى المستفادة من النصوص الدينية: كالتوراة، والإنجيل، أو الـروايات الـواردة عن النبي ﷺ وأهل بيته الكرام ﷺ، ومن الطبيعي أن يكون هناك فرق في اعتماد تكوين الرؤية بين هذه المصادر؛ إذ اعتمدت بالدرجة الأولى على القرآن الكريم، وعلى ما ورد عن النبي وأهل بيته ﷺ، واستفدت من الباقي لتوضيحها وشرحها.

الملاحظـة الثالثة: إنّ أحاديث الصحابة لا يمكن أن تقاس بالحديث المروي عـن الـنبي وأهـل بيـته الكـرام ﷺ حتى لو قلنا بحجية قول الصحابي؛ لأنّ هذه الحجـية عـند القائلين بها إنّما تصح إذا كانت القرائن تشهد بأنّ الصحابي قد أخذ عـن الـنبي ﷺ، وفي مثل قصص القرآن قد ندّعي أنّ القرائن تشهد أنّ الصحابة قد أخذوا عن أهل الكتاب، فلا تثبت الحجية لما يذكروه.

الملاحظـة الـرابعة: إنّ هـناك عـدّة نقاط أودّ أن أضعها بين يدي الأساتذة لعلّها تكون موضع الفائدة في تدريس هذا الكتاب:

١ ـ لقـد حاولت الاختصـار جهد الإمكان، وتوضيح الصورة والأفكار عن طـريق اسـتخدام الفصول والنقاط والتقسيم تسهيلاً للتناول والحفظ، فإنّ ذلك هو

منهج القرآن في تقسيمه إلى سور وآيات... وفضلت التحليل والتعليق على أصل القِصّة تعميماً للفائدة وتيسيراً للعمل.

٢ ـ يمكن للأستاذ ـ اختصاراً للوقت ومن أجل حفظ الموازنة بينه وبين المادة العلمية الملقاة ـ أن يركز في الشرح على الملاحظات والنقاط التحليلية، ويكتفي في عرض القِصّة وصورتها على مراجعة الطالب ومطالعته، مع توجيه وبيان النكات الدقيقة له، أو حتى حذف بعض النقاط التي لا يراها ضرورية.

٣ ـ يحسن بالأستاذ أن يُرجع الطالب إلى بعض المصادر في بعض القضايا، ولاسيّما ذات العلاقة بثقافة أهل البيت عليهم السلام والتي تمّ التأكيد لها أو الإشارة إليها، وكذلك القضايا ذات العلاقة بالعقائد أو التأريخ.

٤ ـ يحسن بالأستاذ تأكيد أهمية هذا البحث وغيره من البحوث القرآنية في الدراسات الحوزوية التي كانت محرومة من هذه الدروس، والتي لها دور كبير في توضيح رؤية الإسلام والقرآن للقضايا الأخلاقية والسياسية والاجتماعية والمعنوية، ولاسيّما أنّ القِصّة لها دور مهم في توضيح ذلك، وبيان المعاناة التي يتحملها الأنبياء والمبلّغون، وأساليب المواجهة والعمل، والأخلاق السياسية والاجتماعية، وهو ممّا لابدّ للطالب أن يعرفه؛ لتشابه مهمة العلماء والمبلغين بمهمة هؤلاء الأنبياء الكرام: ﴿الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلا يَخْشَوْنَ أَحَداً إِلا اللَّهَ﴾[1].

في الختام أسأله تعالى القبول والتوفيق لطاعته، ولما ينفع من العلم والمعرفة، وأن يختم لنا بخير، كما أسأله تعالى أن يوفق العاملين والمتعلمين لما يحبه ويرضاه، وأن يجعل هذا العمل ذخيرة لي يوم ألقاه: ﴿يَوْمَ لا يَنْفَعُ مَالٌ وَلا بَنُونَ * إِلا مَنْ

---

(١) ٣٩.

أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾[1].

وإنّي لأشكره سبحانه على هذا التوفيق، كما أشكر كلّ الأعزاء الذين ساهموا في إعداده وتصحيحه وإخراجه وفي مقدّمتهم ولدي الفاضل السيد صادق الحكيم والموفق الفاضل ماجد الطائي. والحمد للّه رب العالمين.

محمد باقر الحكيم

١٨ شوال ١٤١٨

(١) الشعراء : ٨٨ ـ ٨٩.



القسم الأول

القِصّة في القرآن الكريم

الفصل الأول: خصائص القصص القرآني

الفصل الثاني: أغراض القِصّة في القرآن

الفصل الثالث: ظواهر عامة في القِصّة

الفصل الرابع: منهج تحليلي في دراسة القِصّة القرآنية

الفصل الخامس: قِصّة آدم وخلافة الإنسان


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی



الفصل الأول

خصائص القصص القرآني



القِصّة القرآنية والهدف العام من نزول القرآن

يمتاز القصص القرآني عن غيره من القصص في نقطة مركزية، هي: قضية الهدف والغرض الذي جاء من أجله القصص في القرآن، وتنعكس هذه النقطة ـ كما سوف نتبين ـ على خصائص وميزات أخرى.

فالقرآن لم يتناول القِصّة باعتبار أنّها عمل فني مستقل في موضوعه وطريقة التعبير فيها. كما أنّه لم يأتِ بها من أجل الحديث عن أخبار الماضين وتسجيل حياتهم وشؤونهم، أو من أجل التسلية والمتعة كما يفعل المؤرخون أو القصّاصون، وإنّما كان الغرض من القِصّة في القرآن الكريم هو: المساهمة مع جملة الأساليب العديدة الأخرى التي استخدمها القرآن الكريم؛ لتحقيق أهدافه وأغراضه الدينية التي جاء من أجلها، وكانت القِصّة القرآنية من أهمّ هذه الأساليب.

فالقرآن الكريم ـ كما ذكرنا في بحثنا عن (الهدف من نزول القرآن) ـ يمثّل رسالة دينية تهدف ـ قبل كلّ شيء ـ إلى إيجاد عملية التغيير بأبعادها المختلفة، والتي لخصناها بالأمور التالية:

١ ـ إيجاد التغيير الاجتماعي الجذري.

٢ ـ بيان المنهج الصحيح للحياة الإنسانية الذي يتمّ على أساسه التغيير المذكور، والذي يعبّر عنه القرآن الكريم بـ (الصراط المستقيم).

٣ ـ خلق القاعدة الثورية القادرة على تحمّل المسؤولية[1].

وقد كان هذا الهدف آثار ونتائج متعدّدة انسحبت على أساليب ومناهج القرآن، يمكن أن نلاحظها في القضايا والظواهر القرآنية التالية:

١ ـ طريقة نزول القرآن التدريجي.

٢ ـ طريقة عرض الأفكار والأحكام والقضايا والمفاهيم المختلفة.

٣ ـ ربط نزول القرآن بالأحداث والوقائع والأسئلة المسماة بأسباب النزول.

٤ ـ ظاهرة نزول القرآن باللغة العربية دون غيرها من اللغات.

٥ ـ ظاهرة اختلاف أسلوب القرآن في عرض الموضوعات في الإطناب والتفصيل، أو القصر والإيجاز.

٦ ـ ظاهرة أسلوب القرآن في المزج بين الصور والمشاهد المتعدّدة، وكذلك الموضوعات المختلفة في مقطع واحد.

٧ ـ ظاهرة الاختلاف في الأسلوب والمضمون بين القسم المكي والمدني منه.

٨ ـ وجود ظاهرة النسخ، وظاهرة المحكم والمتشابه، وظاهرة التخصيص والتقييد.

٩ ـ ظاهرة تناول بعض التفاصيل في الأحكام الشرعية.

١٠ ـ ظاهرة طرح بعض القضايا ذات الطابع الشخصي في حياة النبيّ ﷺ.

وقد نتج عن ذلك نشوء كثير من الدراسات القرآنية، مثل: دراسة الناسخ والمنسوخ، والمحكم والمتشابه، والمكّي والمدنيّ، أسباب النزول، أو غير ذلك من الدراسات الفنية ذات العلاقة بأسلوب القرآن.

---

(١) علوم القرآن: ٥٦.

وقد تأثرت القصّة في القرآن ـ أيضاً ـ بهذا الهدف العام من نزول القرآن ـ كما سوف نتبين ـ ولذا لابدّ لنا حين نريد أن ندرس القصّة القرآنية، ونتعرّف على مزاياها وخصائصها الرئيسة أن نضع أمامنا هذا الهدف القرآني العام؛ لنتعرّف من خلاله على الأسلوب الذي اتّبعه القرآن، والمضمون الذي تناوله في عرضه القصّة القرآنية مساهمة منه في تحقيق هذا الهدف.

الخصائص الأساسية للقصّة في القرآن

وانطلاقاً من هذه الفكرة وهذا الأساس يمكن أن نحدّد الفرق بين القصص القرآني وغيره من القصص ببعض النقاط التي تشكل الميزات والخصائص والصفات الرئيسة للقصص القرآني، ويمكن أن نجد هذه الخصائص قد أشير إليها في القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لأُوْلِي الألْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثاً يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدىً وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾[1].

حيث يمكن أن نفهم من الآية الكريمة اتّصاف القصص القرآني بالواقعية، والصدق، والأخلاقية، والحكمة، وسيتم الكلام عن كل واحدة منها:

أ. صفة الواقعية

بمعنى ذكر الأحداث والقضايا والصور في القصص القرآني التي لها علاقة بواقع الحياة الإنسانية، ومتطلباتها المعاشة في مسيرة التأريخ الإنساني، مقابل أن تكون القصّة إثارة وتعبيراً عن الصور، أو الخيالات، أو الاماني، أو الرغبات التي

---

(١) يوسف: ١١١.

يطمح إليها الإنسان، أو يتمناها في حياته؛ ذلك لأنّ القرآن الكريم يريد من ذكر القِصّة وأحداثها إعادة قراءة التأريخ الإنساني، الذي عاشته الأمم والرسالات الإلهية السابقة، ومتابعة الإنسان هذه القراءة في الحاضر المعاش للاستفادة منها والاعتبار بها في حياته وحركته ومواقفه وتطلعاته نحو المستقبل والكمالات الإلهية.

فاذا انفصلت القِصّة عن هذا الواقع فلا يمكن للإنسان أن يستفيد منها للحاضر والمستقبل؛ لأنّها تصبح مجرد صور وفرضيات قد تنسجم مع واقعه الفعلي، وربّما لا تنسجم، ولذا ربّما لا يشعر بها، ولا يُصدّق بها نفسياً وروحياً.

والإنسان في مسيرته التكاملية بحاجة إلى أن ينطلق من الواقع نحو الطموحات والكمالات، وبدون ذلك سينفصل عن واقعه، ويضيع في متاهات الآمال والتمنيات، وقد عبّر القرآن الكريم عن هذه الحالة عندما تحدّث عن اليهود من أهل الكتاب بقوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لاَ يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلاَّ أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَظُنُّونَ﴾[1].

وعندئذ لا يصل الإنسان إلى أهدافه في النهاية؛ لأنّ من لا ينطلق من البداية لا يبلغ النهاية. ومن هنا نجد القرآن الكريم يحاول أن يعالج من خلال القِصّة الواقع الذي كان يعيشه المسلمون في زمن النبي ﷺ، فيذكر ما يتطابق من الأحداث مع هذا الواقع من ناحية، كما يعالج الواقع الذي تعيشه الأجيال والعصور الإنسانية المستقبلية من ناحية أخرى.

وهذا هو الذي يفسّر لنا ما ورد عن أئمة أهل البيت عليهم السلام من قولهم: « إنّ

---

(١) البقرة: ٧٨.

القـرآن يجري مجرى الشمس والقمر » و « إنّه حي لا يموت »[١]، فإنّ انطباق هذا الكلام على القصص والأحداث ذات العلاقة بالأنبياء وأقوالهم أو بالتأريخ الماضي إنّما هو بلحاظ هذا البعد والصفة في القصّة القرآنية.

ولعـل قولـــه تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لأُولِي الأَلْبَابِ﴾ إشارة إلى هذه الصفة في القصص القرآني.

ب. صفة الصدق

الصـدق في ذكـر الأحـداث والوقـائع التأريخـية الـتي تعـرّض لها الأنبياء وأقوامهـم في حـياتهم، وذلـك في مقـابل الأكاذيـب الباطلة والانحرافات في الفهم والسـلوك، أو الخُـرافات الـتي اقترنت بقصص الأنبياء في كتب العهدين المعروفين؛ بسـبب مـا تعرضـت لـه من ضياع وتحريف للحقائق عن قصد أو بدون قصد أو اشتباه أو جهل.

فمـا ورد في القرآن من أخبار وحوادث هي أمور وحقائق ثابتة ليس فيها كـذب أو خطـأ أو اشـتباه، كمـا حصل في كتب العهدين؛ لأنّ القرآن وحيٌ إلهيٌّ، واللّـه لا يعزب عن علمه ذرة في السماء والأرض، ويعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، والحاضر والماضي والمستقبل عنده سواء. ويؤكد هذه الحقيقة قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ حدِيثاً يُفْتَرَى﴾.

والفرق بين هذه الصفة والصفة الأولى لابدّ أن يكون واضحاً؛ لأنّه يراد من الواقعـية ما يكون جارياً في حياة الناس المعاشة، والواقع المناسب لحياة الناس قد يكون صدقاً جرى في حياة الناس، وقد يكون كذباً لم يحدث ولم يحصل، وأمّا هذه

---

(١) بحار الأنوار ٣٥: ٤٠٣، باب ٢٠، ح ٢١.

الصفة فيراد منها: الصدق الذي قد حدث وحصل في الخارج.

وتفتح هاتان الصفتان والميزتان أمامنا باب البحث والمقارنة بين القصص القرآني وقصص العهدين، سواء فيما يتعلق بالحوادث والحقائق أم فيما يتعلق بالصور والمفاهيم والسلوك، ومدى انطباقها على واقع الحياة الإنسانية.

كما تفتح الصفة الثانية باب البحث عن موضوع المقارنة التأريخية بين ما ذكره القرآن الكريم من أحداث وما دلت عليه الأبحاث الآثارية من معلومات تاريخية.

بعض الباحثين في هذا المجال يحاول أن يتبنّى في الأحداث والوقائع التي يذكرها القرآن الكريم رأياً آخر؛ لأنّه يحتمل أنّ القرآن الكريم لم يلتزم ويهتم بالتأكد على صدق الحوادث التأريخية التي يستعرضها ويتحدّث عنها، بل اكتفى بذكر ما هو معروف منها بين الناس والجماعات، وفي الأوساط العامّة التي نزل القرآن فيها؛ لأنّ هدفه من ذكر هذه الحوادث ليس هو التأريخ، بل هدفه استخلاص العبرة منها فقط، وهو أمر يحصل حتى لو لم تكن هذه الحوادث صادقة أو دقيقة[1].

وقد ناقش العلاّمة الطباطبائي هذا الرأي بشيء من التفصيل، فقال ما ملخصه: «إنّ القرآن الكريم ليس كتاباً تاريخياً ولا صحيفة من الصحف القصصيّة التخيلية، وإنّما هو كتاب عزيز لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ـ كما نصّ على ذلك ـ وإنّه لا يقول إلاّ الحقّ، وليس بعد الحقّ إلاّ الضلال.

وليس هذا لأنّ مقتضى الإيمان باللّه ورسوله أن ينفي عن القرآن اشتماله على الباطل والكذب، بل لأنّ القرآن كتاب يدّعي لنفسه أنّه كلام إلهي موضوع لهداية الناس إلى حقيقة سعادتهم وإلى الحقّ، ومن الواجب على من يفسر كتاباً

---

(١) تفسير المنار ١: ٣٩٩، وكذلك الميزان ٧: ١٦٥ ـ ١٦٧ نقلاً عن بعض الباحثين.

هذا شأنه أن يفترضه صادقاً في حديثه مقتصراً على ما هو الحقّ الصريح في خبره»[١].

ج ـ صفة التربية الأخلاقية

ونقصد بهذه الصفة هو: التربية على الأخلاق الإنسانية العالية، في مقابل التركيز على الأحاسيس والانفعالات في شخصية الإنسان، والتربية على الاهتمام بالغرائز.

وإنّما اتّصفت التربية في القرآن بالأخلاقية؛ لأنّ المسيرة والحركة التكاملية للإنسان ـ سواء على مستوى الفرد أم الجماعة ـ إنّما تقوم على أساس الأخلاق بعد العقيدة بالله تعالى والرسالات واليوم الآخر، بل إنّ الاتصاف بالأخلاق العالية هو الذي يمثل عنصر التكامل الحقيقي في حركة الإنسان الفردية والجماعية، ولذا كانت قاعدة المجتمع الإنساني في نظر الإسلام قاعدة أخلاقية، والسلوك الراقي للإنسان هو السلوك الأخلاقي. وقد ورد عن رسول اللّه ﷺ قوله: «إنّما بعثت لأُتمم مكارم الأخلاق »[٢].

لذا جاءت القصّة في القرآن الكريم ذات طابع أخلاقي، وللتربية على الإيمان باللّه والأخلاق، مثل: الإيمان بالغيب، أو على التسليم والخضوع للّه تعالى والحكمة الإلهية، أو على الأخلاق الإنسانية العالية، كالصبر والإخلاص والحبّ للّه تعالى والتضحية في سبيله والشجاعة والاستقامة في العمل والقدوة الحسنة.

ولعل هذا هو معنى: الهدى والرحمة في الآية السابقة من سورة يوسف عليه السلام[٣].

---

(١) الميزان: ١٦٧ ـ ١٦٨.

(٢) مستدرك الوسائل ١١٠:١٨٧،باب استحباب التخلق بمكارم الأخلاق، ح ١.

(٣) يوسف: ١١١.

د. صفة الحكمة

ويُراد منها: كشف الحقائق الكونية والسنن التأريخية، والقوانين والاسباب التي تتحكم أو تؤثر في مسيرة الإنسان وعلاقاته الاجتماعية، والحياة الكونية المحيطة به؛ لأنّ هذه الحقائق الكونية لها علاقة بمسيرة الإنسان التكاملية ما دام اللّه سبحانه وتعالى أراد للإنسان أن يكون مختاراً في حياته ومستخدماً للعلم والحكمة في مسيرته.

ولذا كان من أهداف النبوة تعليم الكتاب والحكمة حتى ينتفع بها الإنسان في مسيرته. وسوف نشير إلى بعض هذه السنن والقوانين والحقائق في بحث أغراض القصّة.

ولكن هنا لابدّ أن نشير إلى أنّ القرآن الكريم ـ باعتبار هذه الخصوصية ـ يقتصر في ذكر الحوادث التأريخية على ما يكون له علاقة بهذه الصفة وهذا الهدف.

ولعله لهذه الصفة أشارت الآية السابقة من سورة يوسف بقوله تعالى: ﴿وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ إلى قاعدة (ينفتح من كل باب ألف باب)، وعلى وزن قوله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَاناً لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدىً وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾[1] ما ورد في روايات أهل البيت عليهم السلام أنّه جاء في القرآن كلّ شيء.

وهذا بخلاف ما لو كانت القصّة في القرآن الكريم لمجرد التسلية أو لتدوين الحوادث والوقائع التأريخية، كما هو شأن كتب التأريخ، فإنّ ذلك قد يتطلب التوسع بذكر الحوادث والتفاصيل خصوصاً المثيرة والمسلّية.

وقد حاول الشيخ محمد عبدة أن يضيف سبباً آخر يفسر فيه عدم تعرض القرآن الكريم لذكر التفاصيل في القصص القرآني: وهو: «أنّ تسجيل الحوادث

---

(١) النحل: ٨٩.

التأريخية بتفاصيلها يؤدّي في النهاية إلى الوقوع في الأخطاء الكثيرة، وهذا ما تجنبه القرآن، ولذا اقتصر على ذكر الكليات والعموميات »[١] ولكن هذه المحاولة غير صحيحة لسببين:

الأوّل: إنّ القرآن الكريم هو وحيٌ إلهيٌ، ولا يمكن أن نتصوّر فيه الخطأ والاشتباه، سواء تناول الجزئيات أم الكليات.

الثاني: أنّ القرآن الكريم تناول ـ أحياناً ـ بعض التفاصيل الصغيرة في قصص الأنبياء لأغراض معينة، مثل: تأكيد عدم صلب المسيح، وكيفية ولادته، أو تفاصيل الحياة الشخصية لموسى في ولادته وتربيته، وخروجه من مصر وهجرته ورجوعه.

يقول العلاّمة الطباطبائي في تأكيد هذا الجانب من النظرية والفهم: « والقرآن الكريم كتاب دعوة وهداية لا يتخطى عن صراطه ولو خطوة، وليس كتاب تاريخ ولا قِصّة، وليست مهمته مهمة الدراسة التأريخية، ولا مسلك الفن القصصي، وليس فيه هوى ذكر الأنساب، ولا مقدرات الزمان والمكان، ولا مشخصات أخر لا غنى للدرس التأريخي والقِصّة التخيلية عن إحصائها وتمثيلها»[٢].

هذا كلّه في ميزات القِصّة من حيث مضمونها.

وأمّا الحديث عن الأسلوب فسوف نتناوله في دراسة ظواهر عامّة في القِصّة القرآنية.

---

(١) المنار ٢: ٤٧٠.

(٢) الميزان ٧: ١٦٧.


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی



الفصل الثاني

أغراض القصة في القرآن الكريم



لقد جاءت القصّة في القرآن الكريم لتساهم في عملية التغيير الإنساني بجوانبها المتعدّدة، وبهذا الصدد نجد القصّة القرآنية تكاد تستوعب في مضمونها وهدفها جميع الأغراض الرئيسة التي جاء من أجلها القرآن الكريم، ونظراً لكثرة هذه الأغراض وتشعبها نجد من المستحسن أن نقتصر في عرضنا لأغراض القصّة في القرآن على الأغراض القرآنية المهمة؛ لنتعرّف من ذلك على أهمية ذكر القصّة في القرآن الكريم والفوائد التي تترتب عليها. وتنقسم هذه الأغراض إلى أقسام ثلاثة[1]:

القسم الأوّل: الأغراض الرسالية

أ ـ إثبات الوحي والرسالة، وأنّ ما جاء به القرآن الكريم لم يكن من عند محمد ﷺ وإنّما هو وحيٌ أوحاه اللّه سبحانه وتعالى إليه وأنزله هدايةً للبشرية.

وقد أشرنا إلى هذا الهدف القرآني من القصّة عند بحثنا عن إعجاز القرآن الكريم، حيث عرفنا: أنّ حديث النبي محمّد ﷺ عن أخبار الأمم السالفة وأنبيائهم ورسلهم بهذه الدقة والتفصيل والثقة والطمأنينة ـ مع ملاحظة ظروفه الثقافية والاجتماعية ـ يكشف عن حقيقة ثابتة، وهي: تلقّيه هذه الأنباء والأخبار

---

(١) راجع في بحث أغراض القصّة ما كتبه سيد قطب في كتابه التصوير الفني في القرآن: ١٢٠ ـ ١٤١، وما سجّله السيد رشيد رضا في مواضع مختلفة في كتابه: تفسير المنار.

من مصدر غيبي مطّلع على الأسرار، وما خفي من بواطن الأمور، وهذا المصدر هو: اللّه سبحانه وتعالى.

وقد نصّ القرآن الكريم على أنّ من أهداف القصّة هو هذا الغرض السامي، وذلك في مقدّمة بعض القصص القرآنية أو ذيلها.

فقد جاء في سورة يوسف: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنْ الْغَافِلِينَ﴾[١].

كما أشار إلى ذلك في نهاية القصّة من نفس السورة: ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾[٢].

وجاء في سورة القصص بعد عرضه لقصة موسى: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنْ الشَّاهِدِينَ * وَلَكِنَّا أَنشَأْنَا قُرُوناً فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمْ الْعُمُرُ وَمَا كُنتَ ثَاوِياً فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ * وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِنْ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْماً مَا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾[٣].

وجاء في سورة آل عمران في مبدأ قصّة مريم: ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلاَمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾[٤].

---

(١) يوسف: ٣.

(٢) يوسف: ١٠٢.

(٣) القصص: ٤٤ ـ ٤٦.

(٤) آل عمران: ٤٤.

وجاء في سورة (ص) قبل عرضه لقصّة آدم: ﴿قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ * أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ * مَا كَانَ لِي مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلأِ الأَعْلَى إِذْ يَخْتَصِمُونَ * إِنْ يُوحَى إِلَيَّ إِلاَّ أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾[1].

وجاء في سورة هود بعد قصّة نوح: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلاَ قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾[2].

فكلّ هذه الآيات الكريمة وغيرها تشير إلى أنّ القصّة إنّما جاءت في القرآن تأكيداً لفكرة الوحي التي هي الفكرة الأساسية في الشريعة الإسلامية.

ب ـ وحدة الدين والعقيدة لجميع الأنبياء، وأنّ الدين كلّه من الله سبحانه، وأنّ الأساس للدين الذي جاء به الأنبياء المتعددون، هو أساس واحد لا يختلف بين نبي وآخر، فالدين واحد، ومصدره واحد أيضاً، وجميع الأنبياء أمّة واحدة تعبد هذا الإله الواحد وتدعو إليه، وقد أشار القرآن الكريم إلى هذه الحقيقة في عدّة مواضع، منها: قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنْ اُعْبُدُوا اللهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلاَلَةُ فَسِيرُوا فِي الأَرض فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾[3].

وقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيداً عَلَى هَؤُلاَءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَاناً لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدىً وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾[4].

---

(١) ص: ٦٧ ـ ٧٠.

(٢) هود: ٤٩.

(٣) النحل: ٣٦.

(٤) النحل: ٨٩.

وقولـــه تعالى: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدىً وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ﴾[١].

وقولـه تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلاَةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ﴾[٢].

وهذا الغرض يهدف فيما يهدف إلى:

١ ـ إبراز الصلة الوثيقة بين الإسلام الحنيف وسائر الأديان الإلهية الأخرى التي دعا إليها الرسل والأنبياء الآخرون، وأنّ الإسلام يمثل امتداداً لها، ولكنّه يحتل منها مركز الخاتمة التي يجب على الإنسانية أن تنتهي إليها، وبذلك يسدّ الطريق على الزيغ الذي يدعو إلى التمسك بالأديان السابقة؛ على أساس أنّها حقيقة موحاة من قبل اللّه تعالى؛ لأنّ الإسلام يصدقها بذلك، ولكنّه جاء في الوقت نفسه مهيمناً عليها: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنْ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِناً عَلَيْهِ﴾[٣].

٢ ـ مضافاً إلى ذلك تظهر الدعوة على أ نّها ليست بدعاً في تأريخ الرسالات، وإنّما هي وطيدة الصلة بها في أهدافها وأفكارها ومفاهيمها: ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدعاً مِنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلاَ بِكُمْ﴾[٤]، بل إنّها تمثل امتداداً لهذه الرسالات الإلهية، وتلك الرسالات تمثل الجذر التأريخي للرسالة الإسلامية، فهي رسالة أخلاقية وتغييريّة، لها هذا الامتداد في التأريخ الإنساني، ولها هذا القدر

---

(١) المائدة: ٤٤.

(٢) البيّنة: ٥.

(٣) المائدة: ٤٨.

(٤) الأحقاف: ٩.

من الأنصار والمضحّين والمؤمنين.

وعلى أساس هذا الغرض تكرر ورود عدد من قصص الأنبياء في سورة واحدة، ومعروضة بطريقة خاصة؛ لتؤكد هذا الارتباط الوثيق بينهم في الوحي والدعوة التي تأتي عن طريق هذا الوحي. ولنضرب لذلك مثلاً ما جاء في سورة الأنبياء: قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْراً لِلْمُتَّقِينَ * الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ وَهُمْ مِنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ * وَهَذَا ذِكْرٌ مُبَارَكٌ أَنزَلْنَاهُ أَفَأَنْتُمْ لَهُ مُنكِرُونَ﴾ [1].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إبراهيم رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ * إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ * قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ * قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ * قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ * قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَى ذَلِكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ * وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ * فَجَعَلَهُمْ جُذَاذاً إِلَّا كَبِيراً لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ * قَالُوا مَن فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ * قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ * قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ * قَالُوا أَأَنتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ * قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ * فَرَجَعُوا إِلَى أَنفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنتُمُ الظَّالِمُونَ * ثُمَّ نُكِسُوا عَلَى رُؤُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاء يَنطِقُونَ * قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْئاً وَلَا يَضُرُّكُمْ * أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ

---

(١) الانبياء: ٤٨ـ ٥٠.

من دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ * قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ * قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ * وَأَرَادُوا بِهِ كَيْداً فَجَعَلْنَاهُمُ الأَخْسَرِينَ * وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطاً إِلَى الأَرضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ * وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلاً جَعَلْنَا صَالِحِينَ * وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلاَةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ﴾[1].

وقال تعالى: ﴿ وَلُوطاً آتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً وَنَجَّيْنَاهُ مِنْ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ الْخَبَائِثَ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَاسِقِينَ * وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُ مِنْ الصَّالِحِينَ﴾[2].

وقال تعالى: ﴿وَنُوحاً إِذْ نَادَى مِنْ قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنْ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ * وَنَصَرْنَاهُ مِنْ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ﴾[3].

وقال تعالى: ﴿ وَدَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ * فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلاً آتَيْنَا حُكْماً وَعِلْماً وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ * وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِتُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ ﴾[4].

وقال تعالى: ﴿ وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الأَرضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ * وَمِنْ الشَّيَاطِينِ مَنْ يَغُوصُونَ لَهُ وَيَعْمَلُونَ

---

(١) الانبياء: ٥١ ـ ٧٣.

(٢) الانبياء: ٧٤ ـ ٧٥.

(٣) الانبياء: ٧٦ ـ ٧٧.

(٤) الانبياء: ٧٨ ـ ٨٠.

عَمَلاً دُونَ ذَلِكَ وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ ﴾[١].

وقـال تعالى: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ * فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ﴾[٢].

وقـال تعـالى: ﴿وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِنَ الصَّابِرِينَ * وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾[٣].

وقال تعالى: ﴿وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِباً فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ * فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾[٤].

وقال تعالى: ﴿وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لاَ تَذَرْنِي فَرْداً وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ * فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَباً وَرَهَباً وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾[٥].

وقال تعالى: ﴿وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ﴾[٦].

---

(١) الانبياء: ٨١ ـ ٨٢.

(٢) الانبياء: ٨٣ ـ ٨٤.

(٣) الانبياء: ٨٥ ـ ٨٦.

(٤) الانبياء: ٨٧ ـ ٨٨.

(٥) الانبياء: ٨٩ ـ ٩٠.

(٦) الانبياء: ٩١.

وقال تعالى: ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِي﴾[١].

ويبدو أنّ القرآن الكريم يريد أن يشير إلى الغرض من هذا الاستعراض لقصص الأنبياء بالآية الخاتمة المعبّرة عن هذه الوحدة العميقة الجذور في القدم للأمّة المؤمنة بالإله الواحد، وتأتي بقية الأغراض الأخرى في ثنايا هذا الاستعراض أيضاً، ولا يبعد أن يكون من أهم هذه الأغراض في هذا الاستعراض هو: بيان الاشتراك بين الأنبياء في النعم الإلهية، كما هو واضح من السياق والمضمون.

ومثال آخر يوضح وحدة العقيدة الأساسية التي تدعو إلى الإيمان بالله سبحانه إلهاً واحداً لا شريك له في ملكه، والتي استهدفها الأنبياء في تأريخهم الطويل ونضالهم المتواصل ما جاء في سورة الأعراف:

قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾[٢].

وقال تعالى: ﴿وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُوداً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾[٣].

وقال تعالى: ﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْباً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾[٤].

فإنّ الابتداء بقصّة كلّ نبي بهذه الطريقة يؤكد وحدة العقيدة والدين لجميع

---

(١) الأنبياء: ٩٢.

(٢) الاعراف: ٥٩.

(٣) الاعراف: ٦٥.

(٤) الأعراف: ٨٥.

هؤلاء الأنبياء، فالإله واحد، والعقيدة واحدة، والأنبياء أمّة واحدة، والدين واحد، وكلّه لواحد، هو اللّه سبحانه، وإن كان هناك أغراض أخرى قد تترتب على هذا الاستعراض كما سوف نلاحظ.

ج ـ بيان أنّ وسائل الأنبياء وأساليبهم في الدعوة واحدة، وطريقة مجابهة قومهم لهم واستقبالهم متشابهة، وأنّ العوامل والأسباب والظواهر التي تواجهها الدعوة واحدة، وقد أكّد القرآن الكريم في عدة مواضع هذه الحقيقة، وأشار إلى اشتراك الأنبياء في قضايا كثيرة، من ذلك قوله تعالى: ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ﴾[1].

وقوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّاً شَيَاطِينَ الإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُوراً وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾[2].

وقوله تعالى: ﴿وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِنْ نَبِيٍّ فِي الأَوَّلِينَ * وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ نَبِيٍّ إِلاَّ كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾[3].

ويتحدّث القرآن الكريم ـ أحياناً ـ عن الرسل حديثاً عاماً؛ ليؤكد هذه الوحدة بينهم في الوسائل والأساليب... كما جاء في سورة إبراهيم: ﴿جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ﴾[4].

والسبب وراء تأكيد القرآن هذه الحقيقة هو: بيان صحة هذه المواقف

---

(١) آل عمران: ١٤٦.

(٢) الأنعام: ١١٢.

(٣) الزخرف: ٦ ـ ٧.

(٤) إبراهيم: ٩.

الرسالية وأساليبها من ناحية، ونتائجها وآثارها من ناحية أخرى، والتثبيت عليها من ناحية ثالثة.

وتبعاً لهذه الأهداف ترد قصص كثيرة من الأنبياء مجتمعة مكررة فيها طريقة الدعوة على نحو ما جاء في سورة هود: قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ * أَنْ لاَ تَعْبُدُوا إِلاَّ اللهَ إِنِّيَ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٌ * فَقَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلاَّ بَشَراً مِثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلاَّ الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ﴾. إلى أن يقول: ﴿وَيَا قَوْمِ لاَ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالاً إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللهِ﴾ إلى أن يقول له: ﴿يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾[1].

وقال تعالى: ﴿وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُوداً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلاَّ مُفْتَرُونَ * يَا قَوْمِ لاَ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلاَ تَعْقِلُونَ﴾ إلى قوله: ﴿قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ * إِنْ نَقُولُ إِلاَّ اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ * مِنْ دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعاً ثُمَّ لاَ تُنْظِرُونِي﴾[2].

وقال تعالى: ﴿وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحاً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ

---

(١) هود: ٢٥ ـ ٢٧ و ٢٩ و ٣٢.

(٢) هود: ٥٠ ـ ٥١ و ٥٣ ـ ٥٥.

رَبِّـي قَرِيبٌ مُجِيبٌ * قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُواً قَبْلَ هَذَا أَتَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾[1].

ومثل هذه المواقف نجدها في سورة الشعراء أيضاً.

د ـ تصـديق التبشير والتحذير. فقد بشر اللّه سبحانه وتعالى عباده بالرحمة والمغفـرة لمـن أطاعـه مـنهم، وحذّرهـم من العذاب الاليمّ لمن عصاه منهم، ومن أجـل إبـراز هـذه البشـارة والـتحذير بصـورة حقيقية متمثلة في الخارج عرض القـرآن الكـريم بعـض الوقـائع الخارجية، التي تتمثل فيها البشارة والتحذير، فقد جـاء في سـورة الحجـر التبشير والتحذير أولاً، ثمّ عرض النماذج الخارجية لذلك ثانـياً، قـال تعـالى: ﴿نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ * وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الاليمّ﴾[2].

وتصديقاً لهذه أو تلك، جاءت القصص على النحو التالي:

قـال تعالى: ﴿وَنَبِّئْهُمْ عَنْ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ * إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلاَماً قَالَ إِنَّـا مِـنْكُمْ وَجِلُـونَ * قَـالُوا لاَ تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلاَمٍ عَلِيمٍ﴾[3]. وفي هذه القصّة تبدو الرحمة والبشارة.

ثمّ: ﴿فَلَمَّـا جَـاءَ آلَ لُـوطٍ الْمُرْسَلُونَ * قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ * قَالُوا بَلْ جِئْـنَاكَ بِمَـا كَـانُوا فِـيهِ يَمْتَرُونَ * وَآتَيْنَاكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ * فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْـعٍ مِـنَ اللَّـيْلِ وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ وَلاَ يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ *

---

(١) هود: ٦١ ـ ٦٢.

(٢) الحجر: ٤٩ ـ ٥٠.

(٣) الحجر: ٥١ ـ ٥٣.

وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الأمر أنّ دَابِرَ هَؤُلاَءِ مَقْطُوعٌ مُصْبِحِينَ﴾[١]، وفي هذه القصّة تبدو الرحمة في جانب لوط، ويبدو العذاب الاليمٌ في جانب قومه المهلكين.

ثمّ: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ * وَآتَيْنَاهُمْ آيَاتِنَا فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ * وكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنْ الْجِبَالِ بُيُوتاً آمِنِينَ * فَأَخَذَتْهُمْ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ * فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾[٢]، وفي هذه القصّة يبدو العذاب الاليمٌ للمكذبين، وهكذا يصدق الإنباء، ويبدو صدقه في هذه القصص الواقع بهذا الترتيب.

هـ ـ بيان نعمة اللّه على أنبيائه، ورحمته بهم وتفضله عليهم؛ وذلك توكيداً لارتباطهم وصلتهم به؛ لأنّ القرآن أكّد هذا المفهوم في عدّة مواضع، منها: قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُطِعْ اللهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنْ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقاً﴾[٣].

وقد جاءت بعض قصص الأنبياء لتأكيد هذا المفهوم، كبعض قصص سليمان، وداوود، وإبراهيم، ومريم، وعيسى، وزكريا، ويونس، وموسى ﷺ.

ذلك أنّ الأنبياء يتعرضون ـ عادة ـ إلى مختلف ألوان الآلام والمحن والعذاب، وقد يتوهم السذج والبسطاء من الناس أنّ ذلك إعراض من اللّه سبحانه وتعالى عنهم، فيأتي الحديث عن هذه النعم والألطاف الإلهية بهم تأكيداً لعلاقة اللّه سبحانه وتعالى بهم، ولذلك نشاهد أنّ بعض الحلقات من قصص هؤلاء الأنبياء تبرز فيها النعمة في مواقف شتى، ويكون إبرازها هو الغرض الأوّل منها، وما سواه يأتي عرضاً.

---

(١) الحجر: ٦١ ـ ٦٦.

(٢) الحجر: ٨٠ ـ ٨٤.

(٣) النساء: ٦٩.

ومن مصاديق ذلك: ما أشرنا إليه سابقاً ممّا ورد في سورة الأنبياء.

ومثال آخر على ذلك: ما ورد في القرآن الكريم من استعراض قصص الأنبياء وفي سورة مريم، حيث يختم الاستعراض بقوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّداً وَبُكِيّاً﴾[1].

و ـ بيان غواية الشيطان للإنسان وعداوته الأبدية له، وتربصه به الدوائر والفرص، وتنبيه بني آدم لهذا الموقف المعين منه، ولاشك أنّ إبراز هذه المعاني والعلاقات بواسطة القِصّة يكون أوضح وأدعى للحذر والالتفات؛ لذا نجد قِصّة آدم تتكرر بأساليب مختلفة تأكيداً لهذا الغرض، بل يكاد أن يكون هذا الغرض هو الهدف الرئيس لقِصّة آدم كلها.

ز ـ بيان الغايات والأهداف من إرسال الرسل والأنبياء، وأنّ ذلك إنّما هو من أجل إبلاغ رسالات اللّه وهداية الناس، وإرشادهم وتزكيتهم وحل الاختلافات، والحكم بالعدل بينهم، ومحاربة الفساد في الأرض، وفوق ذلك كلّه هو إقامة الحجة عليهم؛ ولذا جاء استعراض قصص الأنبياء بشكل واسع لبيان هذه الحقائق.

وقد أشار القرآن الكريم إلى هذا الهدف من القِصّة في عدة مواضع:

قال تعالى: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فيه...﴾[2].

وقال تعالى: ﴿رُسُلاً مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللهِ حُجَّةٌ

---

(١) مريم: ٥٨.

(٢) البقرة: ٢١٣.

بَعْدَ الرُّسُلِ وكَانَ اللهُ عَزِيزاً حَكِيماً﴾[١].

وقال تعالى: ﴿وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إلاَّ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[٢].

فإنها وردت في سياق قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ﴾[٣].

وقال تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلاَّ أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلاً * وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلاَّ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أُنذِرُوا هُزُواً﴾[٤].

وكذلك ما ورد في تعقيب قصص الأنبياء من سورة الشعراء من قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾[٥].

القسم الثاني: الأغراض التربوية

فقد استهدف القرآن بشكل رئيس:

أ ـ تربية الإنسان على الإيمان بالغيب، حيث وصف المتقين ـ الذين استهدف القرآن الكريم هدايتهم ـ بقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ * وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ

---

(١) النساء: ١٦٥.

(٢) الأنعام: ٤٨.

(٣) الأنعام: ٤٢.

(٤) الكهف: ٥٥ ـ ٥٦.

(٥) الشعراء: ٨ ـ ٩.

وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ * أُولَئِكَ عَلَى هُدىً مِنْ رَبِّهِمْ وَ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[1]، وقد جـاءت قصـص الملائكـة والجـن والمعاجـز الإلهـية لتؤكّد هذا الجانب في التربية الروحية.

ب ـ تربية الإنسان على الإيمان بالقدرة الإلهية المطلقة، كالقصص التي تذكر الخـوارق، مـثل: قِصّـة آدم، ومولد عيسى، وقِصّة البقرة، وقِصّة إبراهيم مع الطير الذي آب إليه بعد أن جعل على كلّ جبل جزءاً منه، وقِصّة: ﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا..﴾[2] وإحياء اللّه له بعد موته مائة عام.

فإنّـنا نلاحـظ أنّ القـرآن الكـريم أكّد في مواضع عديدة شمول هذه القدرة للأشـياء كـلها، ومنها القدرة على إعادة خلق الإنسان مرة أخرى في يوم النشور للحساب والثواب والعقاب.

ج ـ تربـية الإنســان على الأخلاق الفاضلة وفعل الخير والأعمال الصالحة وتجنـبه الشر والفساد، وذلك ببيان العواقب المترتبة على هذه الأعمال، كقِصّة ابني آدم، وقِصّـة صـاحب الجنـتين، وقصـص بـني إسرائيل بعد عصيانهم، قوصّة سد مأرب، وقِصّة أصحاب الجنة، وكذلك التربية على الصبر والصمود كقِصّة أصحاب الأخدود.

د ـ التربـية على الاستسلام للمشيئة الإلهية، والخضوع للحكمة التي أرادها اللّـه سـبحانه وسـبحانه من وراء العلاقات الكونية والاجتماعية في الحياة الدنيا، والحكمـة الإنسـانية القريـبة العاجلـة، كمـا جـاء في قِصّة الإيحاء إلى أم موسى أن تلقـيه في الـيَمّ، وكذلـك في قِصّة موسى التي جرت مع عبد: ﴿فَوَجَدَا عَبْداً مِنْ

(١) البقرة: ٣ ـ ٥.

(٢) البقرة: ٢٥٩.

عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْماً﴾[1] التي وردت في سورة الكهف، إلى آخر ذلك من الأغراض الوعظية والتربوية الأخرى التي سوف نطلع على بعضها في دراستنا التفصيلية لقصة موسى ﷺ.

القسم الثالث: الأغراض الاجتماعية والتأريخية

والمراد منها: بيان السنن التأريخية في حركة الإنسان والمجتمع الإنساني، فالمجتمع الإنساني يخضع في حركته وتطوره إلى قوانين وسنن، وقد تحدّث القرآن الكريم عن بعضها، وأكّد أهميتها، وجاءت القِصّة في القرآن الكريم من أجل تجسيد هذه السنن في الوقائع والأحداث.

ونشير هنا إلى بعض هذه السنن التي تحدّث عنها القرآن الكريم مع ذكر القصص والحوادث ذات العلاقة بها:

الأولى: سُنّة ارتباط تغيير الأوضاع الاجتماعية والحياتية للناس بتغيير المحتوى النفسي والروحي لهم، وقد تحدّث القرآن الكريم عن هذه السنة في عدّة مواضع، منها: قوله تعالى في سورة الأنفال: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّراً نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾[2].

وقوله تعالى: ﴿كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَكُلٌّ كَانُوا ظَالِمِينَ﴾[3].

وقوله تعالى في سورة الرعد: ﴿إِنَّ اللَّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا

---

(١) الكهف: ٦٥.

(٢) الأنفال: ٥٣.

(٣) الأنفال: ٥٤.

بِأَنفُسِهِمْ﴾[1].

وقوله تعالى من سورة الأعراف: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنْ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾[2].

وقوله تعالى في سياق القصص القرآني: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ * قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ﴾[3].

ولعلّ من الأمثلة الواضحة على هذا الغرض للقصّة ما جاء في سورة الأعراف؛ لأنّنا نلاحظ أنّ استعراض قصص نوح، وهود، وصالح، ولوط، وشعيب وما جرى لهم مع أقوامهم يختتم بهذه القاعدة الكلية: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَبِيٍّ إِلاَّ أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ * ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّى عَفَوا وَقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ * وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنْ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾[4].

وكذلك ما ورد في قصّة فرعون وموسى وفق ما أشار إليه القرآن الكريم في سورة الأنفال من قوله تعالى: ﴿كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ ولكن يذكره بشكل أكثر وضوحاً في قصّة موسى في سورة الأعراف التي نزلت قبل الأنفال، ويمكن أن نعرف ذلك من وجوه:

---

(١) الرعد: ١١.

(٢) الأعراف: ٩٦.

(٣) الروم: ٤١ ـ ٤٢.

(٤) الأعراف: ٩٤ ـ ٩٦.

١ ـ إنّ هـذه القصّـة جاءت في سياق الآيات السابقة التي تحدّثت عن هذه السُنّة.

٢ ـ إنّ مضـمون القصّة يؤكّد ذلك من خلال ما ورد فيها من الأمر بالصبر والاسـتعانة باللّـه، ثمّ إصـرار الفرعونيين على التكذيب والطغيان، وكيف أنّ اللّه سـبحانه وتعالى أخذ آل فرعون بالسنين، ثمّ وراثة الأرض لبني إسرائيل. وسوف يأتي مزيد من التوضيح لذلك عند دراسة قصّة موسى عليه السلام.

الثانية: سُنّة انتصار الحقّ على الباطل، حيث أكّد القرآن الكريم هذه الحقيقة في عـدّة مواضع، منها: قولـه تعالى: ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقاً﴾[1].

وبهـذا الصـدد نجد القرآن الكريم يؤكّد ـ أيضاً ـ نصرة اللّه سبحانه وتعالى للأنبـياء، وأنّ نهايـة المعـركة بيـنهم وبين أقوامهم تكون لصالحهم مهما لاقوا من العنـت والجـور والتكذيـب، حيـث دلـت بعض الآيات القرآنية على ذلك بشكل مباشـر كقولـــه تعـالى: ﴿وَلَقَـدْ كَتَبْـنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾[2].

وقولـــه تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْـهَادُ﴾[3] كـل ذلـك تثبيتاً لرسوله محمد صلى الله عليه وآله وأصحابه وتأثيراً في نفوس من يدعوهم إلى الإيمان.

وقد نصّ القرآن الكريم على هذا الهدف الخاص للقصّة ـ أيضاً ـ بمثل قوله

---

(١) الإسراء: ٨١.

(٢) الأنبياء: ١٠٥.

(٣) غافر: ١٥.

تعالى: ﴿وكُلاًّ نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾[١].

وتبعاً لهذا الغرض وردت بعض قصص الأنبياء مؤكّدة هذا الجانب، بل جاءت بعضها مجتمعة ومختومة بمصارع من كذّبوهم، وقد يتكرّر عرض القصّة نتيجة لذلك، كما جاء في سورة هود، والشعراء، والعنكبوت، ولنضرب مثلا من سورة العنكبوت:

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلاَّ خَمْسِينَ عَاماً فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ * فَأَنجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ * وَإِبراهيم إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللهَ وَاتَّقُوهُ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[٢] إلى أن يقول: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَن قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَاهُ اللهُ مِنَ النَّارِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾[٣].

وقال تعالى: ﴿وَلُوطاً إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ﴾[٤] إلى أن يقول: ﴿إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَى أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزاً مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ * وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ * وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْباً فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الآخِرَ وَلاَ تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ * فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ * وَعَاداً وَثَمُودَ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَاكِنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ

---

(١) هود: ١٢٠.

(٢) العنكبوت: ١٤ ـ ١٦.

(٣) العنكبوت: ٢٤.

(٤) العنكبوت: ٢٨.

وكَـانُوا مُسْتَبْصِـرِينَ * وَقَـارُونَ وَفِـرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِـي الأرض وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ * فَكُلاً أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَـيْهِ حَاصِـباً وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الأرض وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾[١].

فهـذه هـي الـنهاية الحتمـية التي يريد أن يصورها القرآن الكريم لمعارضي الأنبياء والمكذبين بدعوتهم.

الثالـثة: سُـنة الابـتلاء وعمـوم الامـتحان، حيـث ان من السنن الإلهية في حـركة الإنسـان ووجوده هي: سُنّة الابتلاء والامتحان، وهي سُنّة عامة وشاملة. قال تعالى: ﴿الَّذي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالحَيَاةَ لِيَبْلُوكُم أيّكُمْ أحْسَنَ عَمَلاً﴾[٢].

وقـال تعـالى: ﴿إنّـا خَلَقْـنَا الإنسان مِنْ نُطْفَةٍ أمْشَاجٍ نَبْتَليهِ فَجَعَلْنَاهُ سَميعاً بَصِيراً﴾[٣].

كما أنّ للامتحان أهداف، منها:

١ . التمحيص والتمييز

ان الامتحان يسير مع الإنسان في حركته التكاملية، وعندما يصبح الإنسان مؤمناً أو مجاهداً يُبتلى ويمتحن من أجل التمحيص والتمييز.

قال تعالى: ﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلى مَا أنْتُمْ عَلَيْهِ حَتّى يَميزَ الخَبيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾[٤].

---

(١) العنكبوت: ٣٤ ـ ٤٠.

(٢) الملك: ٢.

(٣) الإنسان: ٢.

(٤) آل عمران: ١٧٩.

وقال تعالى: ﴿وَلِيَعْلَمَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللهُ لاَ يُحِبّ الظَّالِمِينَ * وَلِيُمَحِّصَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ * أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنّةَ وَلَمّا يَعْلَمْ اللهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصّابِرِينَ﴾[1].

وقال تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنّكُمْ حَتّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصّابِرِينَ وَنَبْلُوَا أَخْبَارَكُمْ﴾[2].

٢. الكمال والتربية

« إنّ اللّه إذا أحبّ عبداً غته بالبلاء غتاً وشجّه بالبلاء شجّا»[3]، «واذا أحبّ الله قوماً أو أحبّ عبداً صبّ عليه البلاء صباً، فلا يخرج من غمّ إلاّ وقع في غمّ »[4].

٣. العقوبة والتذكير

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَونَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلّهُمْ يَذّكّرُونَ﴾[5].

وقال تعالى: ﴿وَلَنُذِيقَنّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الادْنَى دُونَ الْعَذَابِ الاكْبَرِ لَعَلّهُمْ يَرجِعُونَ﴾[6].

ولعل من أوضح الأمثلة في قصص القرآن التي سيقت لموضوع البلاء بجوانبه

(١) آل عمران: ١٤٠ ـ ١٤٢.

(٢) محمّد: ٣١.

(٣) الكافي ٢: ٢٥٣.

(٤) مستدرك الوسائل ٢: ٤٢٠.

(٥) الأعراف: ١٣٠.

(٦) السجدة: ٢١.

المتعدّدة وهذه السُّنّة الشاملة ما ورد في سورة المؤمنون:

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلاَ تَتَّقُونَ * فَقَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللهُ لأَنزَلَ مَلاَئِكَةً مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الأَوَّلِينَ * إِنْ هُوَ إِلاَّ رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّى حِينٍ * قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ * فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنْ اصْنَعْ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ فَاسْلُكْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلاَّ مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلاَ تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ * فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلْكِ فَقُلْ الْحَمْدُ للهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنْ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ * وَقُلْ رَبِّ أَنزِلْنِي مُنْزَلاً مُبَارَكاً وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ * إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ وَإِنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ﴾[1].

حيث يلاحظ أنّ هذه الآيات جاءت في سياق بيان خلق الإنسان والنعم الإلهية، وختمت بعد ذلك بقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ وَإِنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ﴾.

ثمّ تتحدّث السورة عن الرسل الآخرين والقرون الأخرى، وكيف كان الابتلاء بالرسالة والأخذ بالعذاب بعد التكذيب، ثمّ الإشارة إلى موسى وعيسى عليهما السلام) وتخاطب الرسل بالأكل من الطيبات والعمل الصالح، وتؤكّد: ﴿وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ﴾[2].

ثمّ تشير إلى الاختلاف بين الناس والإملاء والإمداد بالأموال والأولاد الذي هو نوع من الابتلاء والامتحان، والنتائج المترتبة على ذلك.

---

(١) المؤمنون: ٢٣ ـ ٣٠.

(٢) المؤمنون: ٥٢.

٤ . ضريبة النصر الإلهي

إنّ النصـر الإلهي لا يتحقق إلاّ بعد التعرض للبأساء والضراء والصبر على البلاء.

قـال تعالى: ﴿أمْ حَسِبْتُمْ أنْ تَدْخُلُوا الْجَنّةَ ولَـمّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَـبْلِكُمْ مَسّـتْهُمُ الْبَأْسَـاءُ والضّـرّاءُ وزُلْزِلُوا حَتّى يقُولَ الرّسُولُ والّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللهِ ألاَ إنّ نَصْرَ اللهِ قَرِيبٌ﴾[1].

وقـال تعـالى: ﴿حَـتّى إذَا اسْـتَيْأسَ الرّسُـلُ وَظَنّوا أ نّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجّيَ مَنْ نَشَاءُ ولاَ يُرَدّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾[2].

وقـال تعـالى: ﴿يَـا أ يّهَـا الّذِينَ آمَنُوا هَلْ أدُلّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ ألِيمٍ * تُؤْمِنُونَ بِاللهِ ورَسُولِهِ وتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ بِأمْوالِكُمْ وأنفُسِكُمْ ذلِكُـمْ خَيْرٌ لَكُمْ إنْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ويُدْخِلْكُمْ جَنّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْـتِهَا الأنْهَـارُ ومَسَـاكِنَ طَيّـبَةً فِـي جَـنّاتِ عَدْنٍ ذلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ * وأُخْرَى تُحِبّونَهَا نَصْرٌ مِنَ اللهِ وفَتْحٌ قَرِيبٌ وبَشّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾[3].

ويمكن أن نلاحظ عدّة قصص في القرآن الكريم تؤكّد هذه الحقيقة والسُنّة:

مـنها: قصّـة الحواريـين وقتالهم في سياق الآيات السابقة من سورة الصف: ﴿يَـا أيّهَـا الّذِينَ آمَنُوا كُونوا أنصَارَ اللهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوارِيّينَ مَنْ أنصَـارِي إلَى اللهِ قَالَ الْحَوارِيّونَ نَحْنُ أنصَارُ اللهِ فَآمَنَتْ طَائِفَةٌ مِنْ بَنِي إسْرَائِيلَ

---

(١) البقرة: ٢١٤.

(٢) يوسف: ١١٠.

(٣) الصف: ١٠ ـ ١٣.

وكَفَرَتْ طَائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ﴾[١].

ومنها: قصّة الملأ من بني إسرائيل: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلأ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَهُمْ ابْعَثْ لَنَا مَلِكاً نُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ الله قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمْ الْقِتَالُ أَلاَّ تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلاَّ نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ الله وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمْ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلاَّ قَلِيلاً مِنْهُمْ وَالله عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ * وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ الله قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكاً قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنْ الْمَالِ قَالَ إِنَّ الله اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَالله يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ وَالله وَاسِعٌ عَلِيمٌ * وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمْ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَى وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلائِكَةُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ * فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ الله مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلاَّ مَنْ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلاَّ قَلِيلاً مِنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلاَقُو الله كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ الله وَالله مَعَ الصَّابِرِينَ * وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْراً وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ * فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ الله وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَآتَاهُ الله الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْلاَ دَفْعُ الله النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتْ الأرض وَلَكِنَّ الله ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾[٢].

---

(١) الصف: ١٤.

(٢) البقرة: ٢٤٦ ـ ٢٥١.

ومنها: قِصّة نوح عليه السلام في سورة هود، إذ جاءت في سياق قوله تعالى: ﴿مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالأَعْمَى وَالأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ﴾[1].

وكذلك ما عرفناه في سُنّة نصرة الله لأنبيائه، وما سوف نعرفه في دراستنا لقِصّة موسى عليه السلام في القسم الرابع عندما نتناول الموضوع الرابع عشر من سورة القصص.

---

(١) هود: ٢٤.


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی



الفصل الثالث

ظواهر عامة في القصة القرآنية


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

علـى ضـوء الأهـداف السابقة للقصّة يحسن بنا أن ندرس ظواهر أساسية برزت في عرض القصّة القرآنية:

تكرار القصّة في القرآن الكريم

مـن ظواهـر القصّة في القرآن الكريم تكرار الحديث عن القصّة الواحدة في مواضـع مخـتلفة. وقـد أثيرت بعض الشبهات حول هذه الظاهرة، فقيل: إنّ القصّة بعـد أن تذكر في القرآن مرّة واحدة تستنفد أغراضها الدينية والتربوية والتأريخية، فلماذا يتحدّث عنها القرآن الكريم مرّة أخرى ؟!

وقـد أثـيرت هـذه المشـكلة في زمـن متقدّم من البحث العلمي في القرآن الكـريم؛ لـذا نجـد الإشـارة إلى ذلـك في مفردات الراغب الأصفهاني، وفي مقدّمة تفسـير التبـيان للشـيخ الطوسـي، قـال: « والوجه في تكرار القصّة بعد القصّة في القرآن: أنّ رسول اللّه ﷺ كان يبعث إلى القبائل المتفرّقة بالسور المختلفة، فلو لم تكن الأنباء والقصص متكررة لوقعت قصّة موسى إلى قوم وقصّة عيسى إلى قوم وقصّة نوح إلى آخرين، فأراد اللّه بلطفه ورحمته أن يشهر هذه القصص في أطراف الأرض، ويلقيها في كلّ سمع، ويثبّتها في كلّ قلب، ويزيد الحاضرين في الإفهام»[1].

---

(١) التبيان ١: ١٤.

فالشيخ الطوسي يفسِّر التكرار بعاملين:

الأول: معالجة التفرّق في القطع القرآنية؛ ليكون تكرار القصّة موجباً لوصولها إلى الجميع.

الثاني: زيادة إفهام الحاضرين الذين يصلهم القرآن الكريم بكامله.

وعبارة الشيخ الطوسي ربما لا تعالج المسألة بشكل أساسي، غير أنّها تدلّ على أنّ الموضوع طُرِحَ في الدراسات القرآنية عند القدماء أيضاً.

ونحن هنا نذكر بعض الوجوه التي يمكن أن تكون تفسيراً لتكرار القصّة الواحدة في القرآن الكريم:

الأول: إنّ التكرار إنّما يكون بسبب تعدّد الغرض الدينيّ الذي يترتب على القصّة الواحدة، وقد عرفنا في بحثنا السابق لأغراض القصّة أنّ أهداف القصّة متعدِّدة، فقد تأتي القصّة في موضع لأداء غرض معين، وتأتي في موضع آخر لأداء غرض آخر، وهكذا...

الثاني: إنّ القرآن الكريم اتّخذ من القصّة أسلوباً لتأكيد بعض المفاهيم الإسلامية لدى الأمّة المسلمة عن طريق ملاحظة الوقائع الخارجية التي كانت تعيشها الأمّة، وربطها بواقع القصّة من حيث وحدة الهدف والمضمون.

وهذا الربط بين المفهوم الإسلامي في القصّة والواقعة الخارجية المعاشة للمسلمين قد يؤدِّي إلى فهم خاطئ للمفهوم المراد إعطاؤه للأمة، فيفهم انحصاره في نطاق الواقعة التي عاشتها القصّة وظروفها الخاصّة، فتأتي القصّة الواحدة في القرآن الكريم مكررة من أجل تفادي هذا الحصر والتضييق في المفهوم، وتأكيد شموله واتّساعه لكلِّ الوقائع والأحداث المشابهة؛ ليتّخذ صفة القانون الأخلاقي أو التأريخي الذي ينطبق على كلِّ الوقائع والأحداث.

الثالث: إنّ التكرار يكون سبباً في فاعلية القصّة كمنبّه للأمّة على علاقة

القضية الخارجية التي تواجهها ـ في عصر النزول أو بعده ـ بالمفهوم الإسلامي؛ لتستمدّ منه روحه ومنهجه، فيكون تكرار القصّة بياناً للمنبّه عند الحاجة إليه.

ولعلّ هذا السبب والسبب الذي قبله هو ما يمكن أن نلاحظه في تكرار قصّة موسى، والفرق بين روحها العامة في القصص المكّي وروحها في القصص المدنيّ، فإنّها تؤكّد في القصص المكّي على العلاقة العامة بين موسى من جانب وفرعون وملئه من جانب آخر، دون أن تذكر أوضاع بني إسرائيل تجاه موسى نفسه، إلاّ في موردين يذكر فيهما انحراف بني إسرائيل عن العقيدة الإلهية بشكل عام، وهذا بخلاف الروح العامة لقصّة موسى في السور المدنية؛ فإنّها تتحدّث عن علاقة موسى مع بني إسرائيل، وتتحدّث عن هذه العلاقة وارتباطها بالمشاكل الاجتماعية والسياسية.

وهذا قد يدلّنا على أنّ هذا التكرار للقصّة في السور المكية إنّما كان لمعالجة روحية تتعلق بحوادث مختلفة واجهت النبي ﷺ والمسلمين، ومن أهداف هذه المعالجة توسعة نطاق المفهوم العام الذي تعطيه قصّة موسى في العلاقة بين النبي والجبارين من قومه، أو القوانين التي تحكم هذه العلاقة، وأنّ هذه العلاقة مع نهايتها لا تختلف فيها حادثة عن حادثة أو موقف عن موقف.

ولعلّ إلى هذا التفسير تشير الآيات الكريمة التي جاءت في سورة الفرقان:

قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلاَ نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً * وَلاَ يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلاَّ جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيراً * الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَى وُجُوهِهِمْ إِلَى جَهَنَّمَ أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَاناً وَأَضَلُّ سَبِيلاً * وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيراً﴾[1].

---

(١) الفرقان: ٣٢ ـ ٣٥.

الملاحظ في هذه الآيات أنّ القرآن يذكر أنّ سبب التدرج والترتيب في القرآن الكريم هو: التثبيت للنبيّ من ناحية، والاتيان بالحقّ والتفسير الأفضل للوقائع والأحداث والأمثال من ناحية أخرى، ثُمّ يأتي بهذا التفسير الأحسن من قصّة موسى عليه السلام.

الرابع: إنّ الدعوة الإسلامية مرّت بمراحل متعدّدة في سيرها الطولي، وقد كان القرآن الكريم يواكب هذه المراحل ويماشيها في عطائه وطبيعة أسلوبه، وهذا كان يفرض أن تُعرَضُ القِصّة الواحدة بأساليب متفاوتة في الطول والقصر نظراً لطبيعة الدعوة، وطريقة بيان المفاهيم والعِبر فيها، كما نجد ذلك في قصص الأنبياء حين تُعرض في السورة القصيرة المكية، ثُمّ يتطوّر العرض بعد ذلك إلى شكل أكثر تفصيلاً في السور المكية المتأخّرة أو السورة المدنية.

الخامس: إنّ تكرار القِصّة لم يأتِ في القرآن الكريم بشكل يتطابق فيه نصّ القِصّة مع نَصّ آخر لها، بل كان فيها شيءٌ من الزيادة والنقيصة، وإنّما تختلف الموارد في بعض التفاصيل وطريقة العرض؛ لأنّ طريقة عرض القِصّة القرآنية قد تستبطن مفهوماً دينياً يختلف عن المفهوم الدينيّ الآخر الذي تستبطنه طريقة عرض أخرى. هذا الأمر الذي نسميه بالسياق القرآنيّ يقتضي التكرار أيضاً؛ لتحقيق هذا الغرض السياقيّ الذي يختلف عن الغرض السياقيّ الآخر لنفس القِصّة، وسوف تتضح معالم هذه النقاط بشكل أكثر عند دراستنا التطبيقية لقِصّة موسى عليه السلام في القرآن الكريم.

وقد ذكر السيوطيّ في الإتقان عدّة أسباب أخرى ينسبها إلى (البدر بن جماعة) في كتابه (المقتنص في فوائد تكرار القصص):

ومنها: ما ذكره الشيخ الطوسيّ آنفاً.

ومنها: إنّ ذلك كان من وسائل التحدي بالقرآن؛ لاختلاف القِصّة بالنظم،

ومع ذلك عجز العرب عن الإتيان بمثله.

وذكر أسباباً أخرى فيها تكرار هذه الأسباب[1].

اختصاص القصّة بأنبياء الشرق الأوسط

وثمّة ظاهرة أخرى، هي: إنّ القرآن الكريم تحدّث عن مجموعة من الأنبياء كانوا يعيشون جميعاً في منطقة الشرق الأوسط، أي: المنطقة التي كان يتفاعل معها العرب الذين نزل القرآن في محيطهم ومجتمعهم، وقد تُفسّر هذه الظاهرة بأنّ النبوّات كانت بالأصل في هذه المنطقة، ومن خلالها انتشر الهدى في جميع أنحاء العالم، ويؤيد ذلك: الاستعراض التأريخيّ للنبوّات، وتاريخ الإنسان في التوراة، وبعض الأبحاث الأثرية، والروايات الدينية خصوصاً الواردة عن أهل البيت عليهم السلام، وحينئذ يصبح تفسير هذه الظاهرة واضحاً، وهو: إنّ الواقع التأريخيّ للحياة الإنسانية فرض هذه الظاهرة.

ولكن توجد شواهد في القرآن الكريم تنفي هذا التفسير لهذه الظاهرة، فالقرآن يشير في بعض آياته إلى أنّ هناك مجموعة أخرى من الأنبياء لم يتحدّث عنهم القرآن الكريم، مع أنّ حياتهم لابدّ أنّها كانت زاخرة بالأحداث، شأنهم في ذلك شأن الأنبياء الآخرين:

قال تعالى: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبراهيم وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُوراً * وَرُسُلاً قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ

---

(١) الإتقان في علوم القرآن ٢: ١٨٤.

قَبْلُ وَرُسُلاً لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللهُ مُوسَى تَكْلِيماً﴾[١].

كما أنّ هذا المضمون جاء ـ أيضاً ـ في (آية ٧٨ من سورة غافر)[٢]، علماً بأنّ سورة النساء من السور المدنية المتأخرة. ومن هنا فلا مجال لاحتمال أنّ هذه الآية نزلت في فترة زمنية لم يكن القرآن قد تعرّض فيها إلى جميع قصص الأنبياء التي وردت فيه.

وهناك مجموعة من الآيات تدلّ على أنّ الأنبياء والرسل كانوا يُبعثون إلى كل قرية ومدينة؛ لإقامة الحجّة من الله على الناس، كما نفهم من (الآية ١٦٥ من سورة النساء) التي جاءت في سياق الآيتين السابقتين: ﴿رُسُلاً مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللهُ عَزِيزاً حَكِيماً﴾[٣].

وبالاضافة إلى موارد أخرى لها هذه الدلالة:

كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنْ اُعْبُدُوا اللهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلاَلَةُ فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾[٤].

وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللهُ لِيُضِلَّ قَوْماً بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ﴾[٥].

---

(١) النساء: ١٦٣ ـ ١٦٤.

(٢) قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ فَإِذَا جَاء أَمْرُ اللَّهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ﴾ غافر: ٧٨.

(٣) النساء: ١٦٥.

(٤) النحل: ٣٦.

(٥) التوبة: ١١٥.

وقولــه تعــالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ﴾[1].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيراً وَنَذِيراً وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلاَّ خَلاَ فِيهَا نَذِيرٌ﴾[2].

وجاء التعبير في بعض الآيات عن ذلك بوجود الشهيد في كلّ أمة[3].

ومـن هـنا فلابـدّ من تفسير هذه الظاهرة بتفسير آخر كأن يكون الغرض الأساس مـن القصّـة ـ كمـا ذكـرنا ـ انـتزاع العـبرة واستنباط القوانين والسنن التأريخية منها، ولم يكن الغرض منها السرد التأريخي لحياة الأنبياء أو كتابة تأريخ الرسـالات، ولذلك يتحدّث القرآن عن الأمور العامّة المشتركة بين هؤلاء الأنبياء، عدا بعض الموارد التي يكون هناك غرض خاص في طرح بعض القضايا فيها.

ولـمّـا كـان تأثير القصّة في تحقيق هذه الأغراض يرتبط بمدى إيمان الجماعة بواقعيـتها وإدراكهـم لحقائقها، ومدى انطباق ظروفها على ظروف الجماعة نفسها؛ لـذا تكـون القصّـة المنـتزعة من تاريخ الأمّة نفسها ومن واقعها وظروفها وحياتها أكثر تأكـيداً وانطباقاً على السنّة التأريخية، وأكثر تأثيراً في الواقع الروحي والنفسي للجماعة، وقد أكدنا ـ سابقاً ـ أنّ صفة الواقعيّة من الصفات التي تتميّز بها القصّة القرآنية.

---

(١) يونس: ٤٧.

(٢) فاطر: ٢٤.

(٣) قـال تعـالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلاءِ شَهِيداً﴾ النساء: ٤١. وقال تعـالى: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً ثُمَّ لاَ يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ وَلاَ هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ النحل: ٨٤. وقـال تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ القصص: ٧٥.

وبهذا تكون هذه القصص أكثر انسجاماً مع هذا الهدف القرآني، بلحاظ أنّ القاعدة التي يريد أنّ يحقق القرآن الكريم التغيير فيها في المرحلة الأولى هي: الشعوب التي تسكن هذه المنطقة، وتتفاعل مع هذا التأريخ، وهذا لا يعني أنّ القرآن الكريم تختصّ هدايته بهذه الشعوب، بل أحد أغراض القرآن هو إيجاد التغيير في هذه الشعوب كقاعدة ينطلق منها التغيير، ويستند إليها في مسيرته إلى بقيّة الشعوب كما حصل ذلك فعلاً، وقد أشرنا إليه في بحث الهدف من نزول القرآن.

صحيح قد تكون القِصّة المنتزعة من تاريخ النبوّات التي كانت في الهند أو الصين ـ على فرض وجودها في تلك المناطق، وهو فرض منطقي ومقبول جداً ـ مؤثرة في الشعب الهنديّ أو الصينيّ، إلا أنّ القرآن الكريم كان مهتماً بشكل خاص في مرحلة نزوله بتغيير القاعدة التي تتمثل بالشعب العربيّ والشعوب المتفاعلة معه فعلاً في ذلك الوقت. فضرب الأمثال، وسرد القصص عن الأمم التي لم تكن موجودة في المحيط الذي نزل فيه القرآن يُبعد القِصّة بأكملها عن (الواقعية) التي حرص القرآن الكريم على تأكيدها في قصصه، ولكن تبقى النتائج العامّة المشتركة بين الأنبياء ذات تأثير عام بالنسبة إلى مختلف الشعوب.

فقِصّة النبيّ الواحد لها تأثير خاص يرتبط بالوسط الذي تواجد فيه ذلك النبيّ، باعتبارها حالة التجسيد المعاش في ذلك الوسط، وذات التأثير الشعوريّ والوجدانيّ فيه، وفي الوقت نفسه يكون للقِصّة تأثير عام ضمن المفاهيم العامة والسنن التأريخية التي توحي بها القِصّة، والعبر التي يمكن أنّ تستخلص منها، وهذا ما يمكن أنّ تستفيد منه كلّ الشعوب الأخرى، وبذلك يتحقّق للقرآن الكريم بعده العام الشامل، ويبقى حياً ومؤثراً في هذا الوسط وغيره من الأوساط الإنسانية.

نعم، من الصحيح أن نضيف ـ أيضاً ـ القول: إنّ الأنبياء مثل: نوح،

وإبراهيم، وموسى، وعيسى ﷺ يمثلون الأصول العامة للنبوّات في كلّ العالم، وكان خاتمهم النبيّ محمّد ﷺ يمثل امتداداً لتلك النبوّات، ولكنْ نجد أنّ القرآن لم يتحدّث عن هذه الأصول وتفرعاتها فحسب، بل تحدّث عن أنبياء مثل: صالح، وشعيب، وهود، ويونس، وإدريس ﷺ، وغيرهم ممّن يمثلون نبوّات ليست بهذا القدر من الأهمية على الظاهر. واللّه هو العالم بحقائق الأمور.

تأكيد قِصّة إبراهيم وموسى ﷺ

من الملاحظ أنّ القرآن الكريم أكّد في قصصه على بعض الأنبياء، وذكر تفاصيل حياتهم وظروفهم أكثر من بعضهم الآخر، ونجد ذلك في خصوص النبيّ إبراهيم وموسى ﷺ مع أنّه قد يقال: إنّ الخصائص العامّة لحركة الأنبياء والدعوة الإلهية التي يراد منها بالأصل استنباط العبرة والموعظة أو استخلاص القانون والسنّة التأريخية، أو تحقيق الأغراض الأخرى متشابهة، ويؤكّد ذلك ما نجده في القرآن الكريم في بعض الموارد من الإشارة إلى قصص مجموعة من الأنبياء في سياق واحد.

فهل هذا التأكيد يعني أهمية شخصية هذا النبي وفضله بالمقارنة مع بقية الأنبياء فقط؟ أو يمكن أنّ يكون وراء ذلك ـ مضافاً إلى هذه الأهمية ـ مقاصد وأهداف أخرى اقتضت هذا اللون من التأكيد؟

والجواب عن هذا السؤال: إنّ بعض هؤلاء الأنبياء قد يكون أفضل من بعض، ويظهر من القرآن الكريم أنّ هذا الأفضل، هو: نوح، وإ براهم، وموسى، وعيسى ﷺ باعتبارهم أنبياء أولو العزم، ولكنْ لا يعني ذلك ارتباط تأكيد القرآن لهؤلاء الأنبياء بأفضليتهم؛ لأنّ القرآن بالأصل ليس بصدد تقويم عمل هؤلاء الأنبياء والحديث عن التفاضل بينهم، وإنّما الأهداف الأصلية للقِصّة التي أشرنا

إلـيها وذكرها القرآن، هي: العبرة، والموعظة، وتصديق النبوّات، والتثبيت، وإقامة الحجّـة والـبرهان عـلى صدق نبوّة محمّد ﷺ ومضمون رسالته، كما تشير إليه الآيـات القرآنـية، كقولـه تعالى: ﴿وَكُلاًّ نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾[1].

وقولـه تعـالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لأُولِي الأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثاً يُفْتَرَى وَلَكِـنْ تَصْـدِيقَ الَّـذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدىً وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾[2].

وقولـه تعالى: ﴿رُسُلاً مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللهُ عَزِيزاً حَكِيماً﴾[3].

ولذلـك يمكـن أنّ نقـول: إنّ وراء تأكيد القرآن لشخصية هؤلاء الأنبياء في حديثه عـنهم أسـباباً أخـرى يأتي في مقدماتها: أنّ لهؤلاء الأنبياء أتباعاً وأقواماً يرتـبطون بهـم ـ روحـياً وعقائدياً ـ في المجتمع الذي كان يتفاعل القرآن معه عند نزوله من العرب والأقوام الأخرى المحيطة بهم، وهذا الأمر كان يفرض ـ من أجل إيجـاد القـاعدة الرسـالية ـ أنّ يتحدّث عنهم القرآن بإسهاب. مضافاً إلى أسباب أخـرى ذات علاقـة بـالهدف العـام للقرآن الكريم الذي أشرنا إليه سابقاً، ولكن بالنسبة للـنبي إبراهـيم عليه السلام فـيمكن أن نجـد الأسـباب التالية لتوسع القرآن في الحديث عنه:

---

(١) هود: ١٢٠.

(٢) يوسف: ١١١.

(٣) النسـاء: ١٦٥.

١ ـ كـان إبراهـيم عليه السلام يعتبر لدى كل القاعدة التي نزل فيها القرآن الكريم ـ المشركون واليهود والنصارى ـ أباً لجميع الأنبياء، ويحظى باحترام الجميع له.

٢ ـ إن تأكيد القرآن ارتباط الإسلام وشعائره بإبراهيم لـه أهمية خاصة في إعطاء الرسالة الإسلامية جذراً تاريخياً ممتداً إلى ما هو أبعد من الديانتين اليهودية والنصـرانية، ويحقّـق لهـا استقلالاً عنهما من ناحية، والوحدة مع هذه الديانات في المصدر التشريعي لها ـ وهو اللّه سبحانه وتعالى ـ من ناحية أخرى.

٣ ـ إعطـاء فكـرة (التوحـيد) الـتي طـرحها القرآن على المشركين أصلاً وانتماءً يرتبط به هؤلاء المشركون في تأريخهم، بحيث يكون الشرك والوثنية انحرافاً عـن هـذا الأصـل الصحيح، وبذلك يعالج القرآن الكريم الحاجز النفسي الذي كان يعيشه المشركون في موضوع العدول عن دين الآباء والأجداد.

قـال تعالى: ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّيـنِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أبِيكُمْ إبراهيم هُوَ سَمَّاكُمْ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُـولُ شَـهِيداً عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأقِيمُوا الصَّلاَةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللهِ هُوَ مَوْلاَكُمْ فَنِعْمَ المَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾[1].

٤ ـ ويتجـلى هذا الربط التأريخي بشكل أوضح عندما يصبح إبراهيم عليه السلام هـو المبشر بالنبي العربي الأمي، حيث يكون هذا الرسول هو الأمل المنقذ، وتكون بعثته صلى الله عليه وآله اسـتجابة لدعاء إبراهيم عليه السلام وذلك في مثل قولـه تعالى: ﴿وَإذْ يَـرْفَعُ إبْرَاهِـيمُ الْقَوَاعِـدَ مِـنْ الْبَيْتِ وَإسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إنَّكَ أنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ * رَبَّـنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا

---

(١) الحج: ٧٨.

إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ * رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾[1].

٥ ـ إعطاء الرسالة الإسلامية شيئاً من الاستقلال عن اليهودية والنصرانية يحرِّر القاعدة التي يتفاعل معها القرآن من الشعور بالتبعية روحياً ومعنوياً ودينياً لعلماء اليهود والنصارى؛ لأنّها كانت تنظر إلى علماء اليهود والنصارى بأنهم أهل الذكر والكتاب والمعرفة بالأديان والرسالات السماوية، أو ترى أنّ الأصل في الديانات هو اليهودية والنصرانية:

قال تعالى: ﴿مَا كَانَ إبراهيم يَهُودِيّاً وَلاَ نَصْرَانِيّاً وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفاً مُسْلِماً وَمَا كَانَ مِنْ الْمُشْرِكِينَ * إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإبراهيم لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللهُ وَلِيّ الْمُؤْمِنِينَ﴾[2].

وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا كُونُوا هُوداً أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إبراهيم حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنْ الْمُشْرِكِينَ﴾[3].

ومن هنا نفهم أهمية تأكيد القرآن قِصّة بناء إبراهيم للكعبة، وندائه بالحج؛ لأنّ هذه الشعائر الدينية ليس لها وجود عند الملتزمين بالديانة اليهودية والمسيحية من ناحية، وللموقع الخاص الذي كانت تحتله الكعبة بين العرب عامّة من ناحية أخرى، وللقرار الذي كان القرآن قد اتّخذه بجعل الكعبة قبلة للمسلمين؛ تأكيداً لاستقلالية الرسالة في كلّ معالمها من ناحية ثالثة، وصرف الأنظار عن الأرض المقدسة وبيت المقدس الذي يحظى بالقدسية الخاصة بسبب نشوء الديانات المختلفة فيه.

---

(١) البقرة: ١٢٧ ـ ١٢٩.

(٢) آل عمران: ٦٧ ـ ٦٨.

(٣) البقرة: ١٣٥.

ووجـود إبراهـيم وأنبياء بني إسرائيل كلّهم في هذه الأرض، يحتاج في إعطاء هذه الأهمية للبيت والكعبة المشرفة إلى هذا الانتساب الأصيل إلى إبراهيم عليه السلام.

وأمّـا النبيّ موسى عليه السلام فإنّنا يمكن أنّ نجد الأمور التالية ـ أيضاً ـ في تأكيد قِصّته:

١ ـ موقعـه مـن الديانـة اليهودية والشعب الإسرائيلي، والإنجاز السياسي والاجـتماعي الـذي حقّقـه لهـم، وكذلـك مـا تحقّق من خلال التوراة من تشريع وحكمة وقانون.

٢ ـ إنّ المعانـاة الطويلـة التي مرّ بها موسى عليه السلام كانت تشبه معاناة رسول اللّـه صلى الله عليه وآله سـواء تجـاه الطغاة الفراعنة أم المنافقين من الإسرائيليين، أم في توطيد دعائم الحكم الإلهي في الأرض.

٣ ـ إنّ موقـع موسـى عليه السلام مـن الديانـتين اليهودية والنصرانية كان موقعاً متمـيزاً؛ لأنّ النصـرانية ـ أيضاً ـ كانت ترى أنّ الأصل في الدين هو: موسى عليه السلام ومـا جـاء بـه مـن نور أو تشريعات وقوانين، وأنّ النصرانية هي عملية تصحيح للانحرافات اليهودية، وأيضاً كانت تعترف بالتوراة القائمة العهد القديم.

٤ ـ إنّـنا نجـد ملامح الظروف الموضوعية القائمة التي كانت تحيط بالرسالة الإسـلامية والقـرآن الكـريم في موطـن نزوله، وبالمجتمع الذي يعمل على تغييره، موجـودة في كـلّ هـذه الأمـور المرتـبطة بهذين النبيين العظيمين؛ لأنّ القرآن كان يعـايش ويتفاعل باستمرار مع أهل الكتاب وعلمائهم وأقوامهم، وكان بحاجة إلى هـذا التفصـيل، والحديث ـ أحياناً ـ حتى عن الحياة الشخصية لموسى عليه السلام؛ لما في ذلك من التأثير في أوساطهم.

٥ ـ إنّ العـرب المشـركين كانوا ينظرون إلى علماء اليهود ـ الذين يتصلون بهم أحيانا ـ أ نّهم أهل الذكر والكتاب والوحي الإلهي والمعرفة بالرسالات الإلهية،

كما أشار القرآن الكريم إلى ذلك: قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ﴾[1].

وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلاَءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلاً﴾[2].

ولاشك أنّ القرآن يكون أكثر تأثيراً في هذه الأوساط ـ أيضاً ـ عندما يتحدّث عن النبي موسى عليه السلام حديث العارف بكلّ الخصوصيات والأمور بحيث يفوق كتب العهدين بذلك.

٦ ـ سعى القرآن جاداً لإعطاء فكرة أنّ هذه الرسالات إنّما تمثل امتداداً واحداً في الوحي الإلهي وانتساباً واحداً إلى السماء، في الوقت نفسه أكّد استقلالية الرسالة الإسلامية، بمعنى: أنّها ليست تابعة ومتشعبة عن التحرك الرسالي أو السياسي للرسالات الأخرى، كما أنّها ليست عملاً إصلاحياً في إطار تلك الرسالات، بل هي من جانب مصدقة لها؛ لأنّها تمثل امتداداً للرسالات الإلهية في التأريخ البشري، ولكنّها من جانب آخر ـ وفي الوقت نفسه ـ مهيمنة عليها أو مستقلة عنها.

قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِناً عَلَيْهِ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنزَلَ اللهُ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾[3].

---

(١) النحل: ٤٣.

(٢) النساء: ٥١.

(٣) المائدة: ٤٨.

ويتضح ذلك بشكل أفضل بملاحظة سياق الآيات السابقة عليها، والتي يشير فيها القرآن الكريم إلى نزول التوراة والإنجيل والنسبة بينهما، والتي تختلف عن نسبة القرآن إليهما.

وحديث القرآن عن عيسى عليه السلام يأتي لإزالة ما علق في أذهان الجماعة التي نزل فيها القرآن من أفكار وتصورات منحرفة عن الأنبياء تتنافى مع عصمتهم أو علاقتهم باللّه أو طبيعة شخصيتهم، من هنا تحدّث القرآن الكريم عن شخصيته وظروفها أكثر ممّا تحدّث عن أعماله ونشاطاته، وهذا يمثل غرضاً وهدفاً آخر بالاضافة إلى الأغراض السابقة التي أشرنا إليها في الفصل السابق.

قال تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ * الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلاَ تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ * فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ * إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلاَّ اللهُ وَإِنَّ اللهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾[1].

وكذلك ما جاء من الحديث في القرآن عن حياة مريم وولادة عيسى في سورتي آل عمران ومريم، أو الاهتمام بمناقشة فكرة ألوهيته التي جاءت في عدّة موارد، منها ما جاء في سورة المائدة: ﴿وَإِذْ قَالَ اللهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلاَ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ﴾[2].

---

(١) آل عمران: ٥٩ ـ ٦٢.

(٢) المائدة: ١١٦.

أسلوب القصّة

لاشك أنّ أسلوب القِصّة في القرآن الكريم جاء متميزاً عن الأسلوب المعروف للقِصّة في التراث الادبي والإنساني، حيث يكتفي القرآن الكريم بذكر الاحداث بشكل إجمالي أحياناً وبدون ترتيبها الزماني أحيانا أخرى، أو الانتقال فيها من حدث إلى آخر باقتطاع جانب من الاحداث ثالثة، مضافاً إلى الاستطراد في التعرض إلى المفاهيم والحقائق والموضوعات العقائدية أو الأخلاقية أو الكونية أو الشرعية، وغير ذلك من الامتيازات والخصوصيات التي قد تثير ملاحظة كبيرة حول أسلوب القِصّة في القرآن الكريم، بحيث تخرج عن كونها عملاً فنياً مستقلاً له أهدافه الخاصة، وتفقد بذلك القِصّة في القرآن الكريم هويتها الخاصة. والحديث حول هذا الموضوع له جانبان:

أحدهما: الجانب الفني لأسلوب القِصّة الذي يمكن من خلاله أن يتبين أنّ القِصّة القرآنية تشتمل على جميع العناصر الأساسية في هذا العمل الأدبي الفني.

ثانيهما: تفسير وجود هذا الخلاف وهذه الظاهرة في أسلوب القِصّة في القرآن الكريم.

أما الحديث عن الجانب الأوّل فهو حديث واسع ذو طبيعة أدبية وفنية، وقد تناولته بعض الدراسات القرآنية الأدبية الخاصة، أو أشارت إليه بعض الدراسات القرآنية العامة قديماً أو حديثاً[1] وهو خارج عن حدود هذا البحث القرآني وأهدافه المحدودة.

وأ مّا الحديث عن الجانب الثاني فانّ الملاحظة الرئيسة التي يمكن أن نذكرها

---

(١) انظر كتاب التصوير الفني في القرآن الكريم لسيد قطب، وكتاب الإسلام والفن للدكتور محمود البستاني.

ونؤكّدها هنا هي: أنّ أسلوب القصّة في القرآن الكريم جاء منسجماً ـ بطبيعة الحال ـ مع الأسلوب العام للقرآن الكريم الذي يمكن التعرف على ميزاته من خلال الدراسات التي تناولت هذا الجانب في إعجاز القرآن، وهي أكثر الدراسات القديمة في الإعجاز، ويأتي في مقدّمة هذه المميزات والخصائص:

١ ـ أسلوب مزج الموضوعات والمفاهيم المتعددة بعضها ببعض في مقطع واحد، وذلك من أجل الخروج بصورة متكاملة لهذه المضامين مرة واحدة؛ لما ذكرنا من أنّ القرآن ليس كتاباً علمياً، بل هو كتاب تغيير وهداية ورحمة، فهو يمزج الحقائق الكونية بالمعارف العقائدية، وبالأحكام الشرعية السلوكية، وبالموعظة والإرشاد والتبشير والتحذير، والعواطف والمشاعر والأحاسيس بالعقل والإدراك من أجل أنّ يزكّي ويعلّم؛ ليعمل الإنسان ويلتزم طريق الحقّ، قال تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ﴾[1].

٢ ـ تكرار الموضوعات والمفاهيم بصيغ متعددة وفي سياقات مختلفة؛ لتأكيدها أو لتحقيق مزيد من الأغراض والأهداف المتعددة، كما لاحظنا ذلك في بحث أغراض القصّة، وفي تفسير ظاهرة تكرارها. وسوف نتبين مزيداً من ذلك عند دراسة قصّة موسى عليه السلام بحسب مواضعها في القرآن الكريم.

٣ ـ اختلاف أسلوب القرآن في عرض الموضوعات بحسب الإيجاز والقصر والإطناب والتفصيل، وكذلك بحسب الإيقاع الصوتي والتركيب اللفظي للآيات الكريمة؛ وذلك مراعاة للمراحل التي مرّت بها الرسالة الإسلامية، أو في محاولة للتأثير النفسي والروحي في المخاطبين، ممّا جعل أسلوب القرآن الكريم أسلوباً يختلف فيه عن كلّ من النثر والشعر العربي.

---

(١) الملك: ٢.

٤ ـ إنّ أسلوب القرآن الكريم تأثر بالهدف العام لنزول القرآن الكريم، فإنّ هذا الهدف كما كان لـه تأثير على المضمون القرآني ـ كما أشرنا إليه سابقاً ـ كان لـه تـأثير عـلى أسلوب القرآن الكريم أيضاً، وجاء الأسلوب أداة موظفة لتحقيق هذا الهدف العام.

٥ ـ نلاحـظ ـ دائماً ـ أنّ ذكر القِصّة في القرآن الكريم يأتي مرتبطاً بسياقها والآيـات السـابقة أو اللاحقـة لها أو كليهما، وهذا يعني: أنّ القِصّة ترتبط بشكل مباشـر وتفصـيلي بالقرآن الكريم أسلوباً ومضموناً. فالارتباط هنا والتفاعل ليس عـلى المسـتوى العـام لـلهدف فحسب، بل هو ارتباط على مستوى التفاصيل في تطبيقات هذا الهدف أيضاً.



الفصل الرابع

منهج تحليلي في دراسة القصة القرآنية


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

تمهيد

بعد دراسة الظواهر الأربعة السابقة للقصّة في القرآن الكريم، يحسن بنا أن نتناول قصص الأنبياء واحدة بعد أخرى كموضوع من موضوعات التفسير الموضوعي، ومن هذا المنطلق نجد أمامنا أبعاداً كثيرة لدراسة القصّة في القرآن الكريم من أهمها: البُعد الأدبي والتصويري، وكذلك البُعد الذي يرتبط ببيان أغراض القصّة في هذا الموضع أو ذاك، إضافة إلى الجانب التأريخي، أو السنن التي يمكن استنتاجها من القصّة، أو المفاهيم الاجتماعية والفكرية والأخلاقية التي يمكن استنباطها منها، وبهذا الصدد نجد أمامنا عدداً من المناهج يمكن دراسة القصّة من خلالها، مثل:

المنهج التقليدي الذي سار عليه المفسرون باستعراض آيات القصّة في القرآن الكريم وتفسيرها، وذكر الحوادث المرتبطة بها مع بيان الآراء المتعددة فيها.

والمنهج التحليلي للمواضع التي وردت فيها القصّة من ناحية الهدف العام والخاص، وأسباب التكرار والأسلوب.

والمنهج النظري الذي يحاول أن يستخلص النظرية العامة في القصّة من خلال تحليل مفرداتها والجمع بينها في تصوير نظري متكامل.

والمنهج الاجتماعي الذي يحاول من خلال دراسة القصّة تصوّر الحركة التغييرية السياسية والاجتماعية التي يقوم بها.

والمنهج التأريخي الذي يحاول عرض الأحداث التي ذكرتها القِصّة مترتبة حسب تسلسلها الزمني وكوقائع تاريخية.

وسوف نحاول في الفصول الآتية وفي القسم الثاني من الكتاب أن نطبق هذه المناهج، ولكن ضمن نماذج مختارة من القِصّة.

وفي هذا الفصل سنتناول قِصّة موسى عليه السلام كنموذج ومثال تطبيقي للمنهج التحليلي في دراسة القِصّة، وإنّما وقع الاختيار عليها؛ لأنّها أكثر قصص الأنبياء وروداً وتفصيلاً في القرآن الكريم[1]، حيث يمكن تطبيق هذا المنهج في دراسة تفصيلية على جميع قصص الأنبياء في القرآن الكريم. وسوف ندرس المواضع والموارد التي تحدّث القرآن الكريم فيها عن علاقة موسى مع فرعون، أو علاقته مع قومه، كحالة اجتماعية قارنت عصره، وهي: تسعة عشر موضعاً في القرآن الكريم.

كما سنأخذ في هذه الدراسة الأبعاد التالية:

١ ـ التنبيه إلى أسرار تكرار القِصّة في ذلك الموضع.

٢ ـ التنبيه إلى الغرض العامّ أو الخاصّ التي سيقت له القصّة في ذلك الموضع.

٣ ـ بيان تغاير الأسلوب في العرض والمضمون.

٤ ـ بيان العلاقة بين القِصّة في موضعها الخاص وسياقها القرآني.

٥ ـ تحليل لمضمون المقطع الذي يتحدّث عن القِصّة.

---

(١) سوف ندرس هذه القِصّة ـ أيضاً ـ على أساس المنهج التأريخي و الاجتماعي من القسم الثاني من هذا الكتاب. كما سوف ندرس قِصّة آدم في الفصل الخامس من هذا القسم على أساس المنهج النظري، وقصص نوح، وإبراهيم، وعيسى في القسم الثاني على أساس المنهج الاجتماعي. منه قدس سره.

ونكتفي في هذه الدراسة بالحديث الاجمالي، ونترك معالجة التفاصيل والأبعاد الأخرى إلى الدراسات المستوعبة.

الموضع الأول: الآيات التي جاءت في سورة البقرة، والتي تبدأ بقوله تعالى: ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ * وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ * وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ﴾[1] إلى أن يختم بقوله تعالى: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾[2].

والملاحظ في هذا المقطع:

أولاً: جاء في سياق قوله تعالى: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ﴾[3].

ثانياً: تناول أحداثاً معينة أنعم الله بها على بني إسرائيل مرة بعد الأخرى، مع الإشارة إلى ما كان يعقب هذه النعم من انحراف في الإيمان بالله تعالى، أو في الموقف العبادي الذي تفرضه طبيعة هذا الإيمان.

ثالثاً: إنّ القرآن الكريم بعد أن يختم هذا المقطع يأتي ليعالج المواقف الفعلية العدائية لبني إسرائيل من الدعوة، ويربط هذه المواقف بالمواقف السابقة لهم بقوله

---

(١) البقرة: ٤٩ ـ ٥١.

(٢) البقرة: ٧٤.

(٣) البقرة: ٤٠.

تعالى: ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ... وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾[1].

وعلى أساس هذه الملاحظة يمكن أن نقول: إنّ هذا المقطع جاء يستهدف غرضاً مزدوجاً، وهو: تذكير بني إسرائيل بنعم الله المتعدّدة عليهم، وذلك موعظة وعبرة لهم تجاه موقفهم الفعلي من ناحية، ومن ناحية أخرى كشف الخصائص الاجتماعية والنفسية العامّة التي يتصف بها الشعب الإسرائيلي للمسلمين؛ لئلاّ يقع المسلمون في حالة الشك والريب في هذه المواقف، فيتصور بعضهم أنّها تنجم من رؤية موضوعية تجاه الرسالة، الأمر الذي جعل اليهود يتوقفون عن الإيمان بها، خصوصاً وأنّ اليهود هم أهل الكتاب في نظر عامة المسلمين، فأراد القرآن هنا أن يبين أنّ هذا الموقف إنّما هو موقف نفسي وذاتي ومتأثر بهذه الخصائص الروحية والاجتماعية.

وهذا الغرض فرض أسلوباً معيناً على استعراض الأحداث؛ إذ اقتصر المقطع على ذكر الوقائع التي تلتقي مع هذا الغرض وتتناسب مع هذا الهدف، دون أن يعرض التفصيلات الأخرى للأحداث التي وقعت لموسى عليه السلام مع فرعون أو الإسرائيليين.

الموضع الثاني: الآيات التي جاءت في سورة النساء، والتي تبدأ بقوله تعالى: ﴿يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَاباً مِنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ فَعَفَوْنَا عَنْ ذَلِكَ وَآتَيْنَا مُوسَى سُلْطَاناً مُبِيناً﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ

---

(١) البقرة: ٧٥ ـ ١٢٢.

مِنْهُمْ عَذَاباً أَلِيماً﴾[1].

والملاحظ في هذا المقطع:

أولاً: إنّـه جـاء ضـمن سـياق عـرض عام لمواقف فئات ثلاثة من أعداء الدعـوة الإسلامية تجاهها، وهو: موقف المنافقين، وموقف اليهود من أهل الكتاب، وموقـف النصـارى مـن أهـل الكتاب، وعرض الموقف الأوّل يبدأ بقولـه تعالى: ﴿بَشِّـرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَاباً أَلِيماً﴾[2] وعرض الموقف الثاني يبدأ بقولـه تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِيـنَ يَكْفُـرُونَ بِـاللهِ وَرُسُـلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً﴾[3].

وعـرض الموقـف الثالـث يبدأ بقولـه تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لاَ تَغْلُوا فِي دِيـنِكُمْ وَلاَ تَقُولُـوا عَلَـى اللهِ إِلاَّ الْحَـقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَآمِنُوا بِاللهِ وَرُسُلِهِ وَلاَ تَقُولُوا ثَلاَثَةٌ﴾[4].

ثانـياً: أنّ المقطع يتناول بعض الأحداث ذات الدلالة على نبوّة موسى عليه السلام، والمواثيق الغليظة المأخوذة على اليهود بصدد الامتثال والطاعة، وموقف اليهود من ذلـك والمخالفـات الـتي ارتكبوها، سواء فيما يتعلق بالجـانب العقيدي من الفكرة أو بالجانب العملي التطبيقي منها.

وعـلى أساس هاتين الملاحظتين يمكن أن نستنتج: أنّ هذا المقطع من القصّة جـاء ليوضح أنّ موقف اليهود من الدعوة بطلبهم المزيد من الآيات والبينات ليس

---

(١) النساء: ١٥٣ ـ ١٦١.

(٢) النساء: ١٣٨.

(٣) النساء: ١٥٠.

(٤) النساء: ١٧١.

نابعاً من الشك بالرسالة، وإنّما هو موقف شكلي ذرائعي يستبطن الجحود والطغيان؛ ولذا نجد المقطع يكتفي بعرض هذا الطلب العجيب الذي تقدّم به اليهود الى موسى عليه السلام، ويضيف إلى ذلك المواثيق التي أخذت منهم في الطاعة ونكولهم عنها بمخالفاتهم العديدة، الأمر الذي يكشف عن إصرارهم على الجحود والطغيان وأنّهم يتذرعون بمثل هذه المطالب.

وقد فرض السياق العام للسورة الكريمة تكرار القصّة على أساس إيضاح ومعالجة موقف اليهود من الدعوة إلى جانب إيضاح ومعالجة موقف المنافقين والنصارى من أهل الكتاب؛ لأنّ هذه المواقف هي المواقف الرئيسية التي كانت تواجهها الدعوة الإسلامية حينذاك.

الموضع الثالث: الآيات التي جاءت في سورة المائدة، وهي قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكاً وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَداً مِنْ الْعَالَمِينَ * يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الأَرض الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللهُ لَكُمْ وَلاَ تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الأَرض فَلاَ تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾[1].

ويلاحظ في هذا المقطع:

أولاً: إنّه جاء في سياق دعوة عامّة لأهل الكتاب إلى الإيمان بالرسول الجديد، مع إيضاح حقيقة رسالته، ومناقشة ما يقوله اليهود والنصارى، وإقامة الحجّة عليهم بذلك؛ إذ يختم هذا السياق بقوله تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ

---

(١) المائدة: ٢٠ ـ ٢٦.

رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ مِنْ الرُّسُلِ أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلاَ نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[1].

ثانياً: يكتفي المقطع بأن يذكر دعوة موسى لقومه إلى دخول الأرض المقدسة؛ لأنّ دخولها كان منتهى آمالهم، ولكنّهم يأبون ذلك، فيكون مصيرهم التيه أربعين سنة.

وعلى أساس هاتين الملاحظتين يمكن أن نستنتج: أنّ القرآن الكريم يبدو وكأنّه يريد أن يذكر أهل الكتاب ويفتح الطريق أمامهم؛ ليحقّقوا أهدافهم الصحيحة من وراء الدين والشريعة باستجابتهم لدعوة الإسلام، ولا يكون موقفهم كموقف قوم موسى حين دعاهم إلى دخول الأرض المقدسة، مع أنّها أمنيتهم وهدفهم، فتفوتهم الفرصة السانحة، ويصيبهم التيه الفكري والعقائدي والاجتماعي في عصر نزول الرسالة، كما أصابهم التيه السياسي والاجتماعي من قبل.

ومن هنا نعرف السرّ الذي كان وراء اكتفاء القرآن الكريم بذكر هذا الموقف الخاص لبني إسرائيل دون غيره؛ لأنّه هو الذي يحقّق هذا الغرض، خصوصاً إذا عرفنا أنّ هذه القصّة ممّا يؤمن بها اليهود والنصارى، كما أنّ هذا الجانب من القصّة لم يُذكر في القرآن الكريم إلاّ في هذا الموضع.

الموضع الرابع: الآيات التي جاءت في سورة الأعراف، والتي تبدأ بقوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَظَلَمُوا بِهَا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ والتي تختم بقوله تعالى: ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[2].

---

(١) المائدة: ١٩.

(٢) الأعراف: ١٠٣ و ١٧١.

ونلاحظ في هذا الموضع من القِصّة عدّة أمور:

الأوّل: جاءت القِصّة في عرض قصصي مشترك مع قِصّة نوح، وهود، ولوط، وشعيب عليهم السلام، وتكاد تتحدّد فيه صيغة الدعوة والتكذيب والعقاب الذي ينزل بالمكذبين.

الثاني: إنّ هذا العرض القصصي العام يأتي في سياق بيان القرآن الكريم لحقيقة حشر المخلوقات وصورته، وأنّهم يحشرون أمماً بكاملهم من الجن والأنس، وعلى صعيد واحد يتلاعنون بينهم أو يتحابون.

قال تعالى: ﴿قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّى إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعاً قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لأُولاَهُمْ رَبَّنَا هَؤُلاَءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَاباً ضِعْفاً مِنَ النَّارِ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَكِن لاَ تَعْلَمُونَ﴾[1].

وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لاَ نُكَلِّفُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ * وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ وَقَالُوا الْحَمْدُ للهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلاَ أَنْ هَدَانَا اللهُ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ وَنُودُوا أَنْ تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[2].

ثمّ يعرض القرآن الكريم مشاهد متعدّدة من هذا الحشر، وبعض العلاقات التي تسود الناس فيه، وأنّه تصديق لدعوة الرسل وما بشروا به وأنذروا منه.

---

(١) الأعراف: ٣٨.

(٢) الأعراف: ٤٢ ـ ٤٣.

الثالث: إنّ القِصّة على ما جاء فيها من التفصيل واستعراض للحوادث تبدأ في سرد الوقائع من حين بدء البعثة والدعوة، كما أنّها تذكر الوقائع في حدود المجابهة ـ التي كان يواجهها الرسول ـ الخارجية مع فرعون وملئه، والداخلية مع بني إسرائيل، وفي إطار بيان ما ينزل بالمكذبين والمنحرفين من عذاب وعقاب وأضرار.

الرابع: إنّ القِصّة تتناول في معرض حديثها عن الحوادث جوانب من المفاهيم الإسلامية العامّة والسنن التأريخية، كتأكيد أهمية الصبر، ووراثة المتقين للأرض، وأنّ الرحمة لا تنال إلاّ الذين اتقوا، وآتوا الزكاة، وآمنوا بآيات الله، واتّبعوا الرسول الأمّي الذي يجدونه مكتوباً عندهم.

وعلى أساس هذه الملاحظة يمكن أن نستنتج: أنّ القِصّة جاءت منسجمة مع السياق العام للعرض القصصي، ومحقّقة لأغراضه على ما أشرنا إليه في حديثنا عن أغراض القِصّة، ومع ذلك فإنّها لا تغفل الفرصة المناسبة لتأكيد المفاهيم الإسلامية العامّة منسجمة مع الهدف القرآني العام في التربية.

كما أنّها تؤكّد بصورة خاصة نبوّة محمّد ﷺ، وكأنّها سيقت بتفاصيلها لتحقيق ربط هذه الدعوات والرسالات بهذه النهاية الخاتمة لها، وأنّ هذه المفاهيم والسنن والأهداف التي عاشتها هذه الرسالات سوف تتحقّق في نهاية المطاف في اتّباع رسالة الإسلام: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنْ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمْ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمْ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾[1].

---

(١) الأعراف: ١٥٧.

على أنّ هناك شيئاً تجدر الإشارة إليه، وهو: أنّ القرآن الكريم يهتم عادة بتفصيل قصص الرسل الذين هم من أولي العزم: كنوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى ﷺ؛ ذلك لأغراض متعدّدة[١] يمكن أن يكون من جملتها:

أ ـ إنّ هؤلاء الأنبياء يمثلون مراحل مختلفة لرسالة السماء، وأنّهم مع صلة القربى والوحدة في دعوتهم نجدهم يشكّلون مواضع فاصلة في تطوّر الدعوة الدينية النازلة من السماء.

ب ـ إنّ لبعض هؤلاء الأنبياء أتباعاً وأمماً عاشت حتى نزول رسالة الإسلام ممّا يفرض الاهتمام بمعالجة أوضاعهم وعلاقتهم بدعوة الإسلام الجديدة.

ج ـ إنّ أحداثاً مفصلة ومختلفة عاشها هؤلاء مع أممهم وأقوامهم تمثل جوانب عديدة ممّا تعيشه كلّ دعوة دينية عامّة واسعة النطاق تستهدف تغييراً جذرياً لواقع ذلك المجتمع.

الموضع الخامس: الآيات التي جاءت في سورة يونس، والتي تبدأ بقوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى وَهَارُونَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ بِآيَاتِنَا فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْماً مُجْرِمِينَ﴾[٢] والتي تختم بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّى جَاءَهُمُ الْعِلْمُ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾[٣].

ونلاحظ في هذا المقطع القرآني من القصّة الأمور التالية:

أولاً: إنّ المقطع جاء بعد مقارنة عرضها القرآن الكريم بين مصير أتباع

---

(١) تحدّثنا عن هذا الموضوع بشيء من التفصيل في بداية هذا الفصل.

(٢) يونس: ٧٥.

(٣) يونس: ٩٣.

الحقّ والمؤمنين بالله وبالرسل والمصدقين بهم، ومصير اتباع الباطل والمفترين على الله والمكذبين بالرسل: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ * لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ لاَ تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ... قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ لاَ يُفْلِحُونَ * مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾[1].

ثانياً: إنّ هذا المقطع من القِصّة جاء بعد إشارة قصيرة إلى نبأ نوح وقومه، تتبعها لمحة عامّة عن الرسل من بعد نوح وموقف قومهم منهم.

ثالثاً: إنّ المقطع لا يتناول من التفاصيل إلاّ القدر الذي يرتبط بموقف فرعون وملئه من موسى والمصير الذي لاقاه هؤلاء؛ نتيجة لإعراضهم عن الدعوة وتكذيبهم بها، كما أنّه يشير إلى نهاية بني إسرائيل الطيبة بعد معاناتهم الطويلة في المجتمع الفرعوني.

وبعد هذه الملاحظة يمكن أن نستنتج: أنّ القِصّة إنّما جاءت هنا من أجل تصديق (الحقيقة) التي ذكرها القرآن الكريم في مقارنته بين الذين آمنوا والذين يفترون على الله الكذب.

كما أنّ السياق العام هو الذي فرض مجيء القِصّة بشيء من التفصيل؛ لأنّ قِصّة موسى تمثل بتفاصيلها الانقسام بين جماعتين: إحداهما مؤمنة به، والأخرى كافرة بدعوته، حيث يقع الصراع بينهما، وينتهي بغلبة المؤمنين على الكافرين، بخلاف قصص الأنبياء الآخرين، فإنّها تُعرَض في القرآن الكريم على أساس أنّ النبي لم يؤمن به إلاّ النزر اليسير من الناس، ولذلك ينزل العذاب بقومه بشكل

---

(١) يونس: ٦٣ ـ ٧٠.

عام، فهذه القصص تمثل جانباً واحداً من المقارنة، وهو: جانب المصير الذي يواجهه المكذبون والمنحرفون، بخلاف قصّة موسى فإنّها تمثل الجانبين معاً: جانب المؤمنين وجانب المكذبين، ومن هنا يمكن أن نفسر مجيء قصّة نوح في هذا الموضع مختصرة مع الإشارة العامّة لموقف بقية الأنبياء.

إضافة إلى أنّ نوحاً عليه السلام يمثل بداية الأنبياء الذي لاقى قومهم العذاب في قصص القرآن، وموسى عليه السلام يمثل نهايتهم وختامهم.

ويؤكّد هذا التفسير لسياق القصّة ما أشرنا إليه في الملاحظة الثالثة: من أنّ التفاصيل التي تناولها المقطع انحصرت في بيان التزام بني إسرائيل الحق، دون أن تتعرض الى الجوانب الأخرى لموقفهم، والتي تمثل الانحراف والعصيان لأوامر موسى عليه السلام، وهذا الالتزام يكاد يشعرنا أنّ القصّة سيقت لإبراز صدق هذه المقارنة في التأريخ الإنساني، والتي كانت تتحكم في المواجهة التي يلاقيها الأنبياء.

ومن الممكن أن نلاحظ في تكرار القصّة بهذا المقطع ملامح السبب الرابع من أسباب التكرار التي ذكرناها سابقاً؛ لأنّ طريقة عرض القصّة في هذا المقطع حققت غرضاً معيناً ما كان يحصل لو عرضت القصّة بجميع تفاصيلها كما أشرنا.

الموضع السادس: الآيات التي جاءت في سورة هود، وهي قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ * إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ * يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ * وَأُتْبِعُوا فِي هَذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ﴾[1].

ويلاحظ في هذا المقطع القرآني من القصّة ما يلي:

---

(١) هود: ٩٦ ـ ٩٩.

أولاً: إنّه جاء في عرض قصصي عام يبدأ بنوح عليه السلام ويختم بهذه اللمحة عن قصّة موسى عليه السلام.

ثانياً: إنّ هذا العرض العام جاء في سياق الحديث عن مكذّبي الرسول صلى الله عليه وآله، وما يجب أن يكون الموقف العام منهم، والمصير الذي ينتظرهم في الآخرة، كما أنّه يختم العرض بما يشبه بيان الغاية منه، وهو قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ * وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ * وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾[1].

ثالثاً: إنّ المقطع جاء لمحة عابرة عن القصّة ونهايتها على خلاف قصص الأنبياء الآخرين التي جاءت في شيء من التفصيل.

ومن هنا يمكن أن نستنتج: أنّ الإتيان بهذا المقطع من القصّة كان من أجل إكمال الصورة التي بدأها بنوح عليه السلام، وأراد القرآن الكريم أن يختمها بموسى عليه السلام؛ ليظهر بذلك الارتباط الوثيق بين أسلوب الأنبياء في الدعوة إلى الله وجهودهم في سبيل هذه الغاية والمواجهة التي كانوا يلاقونها من أممهم وأقوامهم، والنتيجة الحاسمة التي كان ينتهي إليها مصير هذه الأمم من العذاب الشديد والعقاب القاسي.

الموضع السابع: الآيات التي جاءت في سورة إبراهيم، وهي قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ * وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا

---

(١) هود: ١٠٠ ـ ١٠٢.

نِعْمَـةَ اللهِ عَلَـيْكُمْ إِذْ أَنجَـاكُمْ مِـنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْـنَاءَكُمْ وَيَسْـتَحْيُونَ نِسَـاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلاَءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ * وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَـئِنْ شَـكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ * وَقَالَ مُوسَى إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الأَرضِ جَمِيعاً فَإِنَّ اللهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾[1].

ويلاحظ في هذا المقطع القرآني من القِصّة ما يلي:

أولاً: إنّ القرآن الكريم قد مهّد لهذه الإشارة بقوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ بِلِسَـانِ قَوْمِـهِ لِيُبَـيِّنَ لَهُـمْ فَيُضِـلُّ اللهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾[2].

ثانـياً: إنّ القرآن يتحدّث بعد هذا المقطع من القِصّة عن المفاهيم العامّة التي كان يطرحها الرسل، والأساليب التي كانوا يسلكونها لتحقيق أغراضهم الرسالية.

ثالثاً: إنّ الحديث عن القِصّة في المقطع جاء بشكل مختصر، وقد أكّد المشكلة العامّة التي كان يعانيها الإسرائيليون، والنعمة العامّة التي تفضّل بها عليهم، والدعوة لشكر النعمة، وأنّ الله لا يضرّه كفرانها.

ومـن هـنا يمكن أن نـستنتج: أنّ المقطع قُصد به التمثيل على صدق الحقيقة الـتي أشـار إلـيها القرآن الكريم من مجيء كلّ رسول بلسان قومه، حيث قد يراد بلسـان القـوم اللغـة الـتي يتكـلم بها القوم، ولعلّه هو الظاهر، ولكن قد يراد من اللسـان ـ كمـا يشير إليه السياق ـ هو الجوانب والمشاكل الاجتماعية والسياسية والإنسانية المثيرة التي تستقطب اهتمام الأمة ونظرتها ومشاعرها، فيكون تأكيدها

---

(١) إبراهيم: ٥ ـ ٨.

(٢) إبراهيم: ٤.

أسـلوباً ولسـاناً لإلفات نظر الأمة إلى الدعوة وقيمتها الروحية والاجتماعية؛ ولذا جاءت قصّة موسى مثالاً لهذه الحقيقة؛ لأنّه دعا لإنقاذ قومه من مشكلة اجتماعية عامّة كانوا يعانونها، ولعل ما يؤكّد هذا القصد هو: أنّ العرض جاء بلسان الخطاب إلى القـوم لا بلسان الحديث عن القضايا والأحداث، ولما كانت الغاية الحقيقية من إرسـال الرسل هي: هداية الناس وإرشادهم؛ لذلك نجد القرآن الكريم ـ بعد هذه الإشارة إلى قصّة موسى وتصديق الحقيقة ـ يعود فيتحدّث عن المفاهيم العامّة التي كان يطرحها الرسل على أساس أنّها الشيء المطلوب من الناس التصديق به، دون أن يكون للإسلوب المعين المتبع في تحقيق هذا الهدف أهمية ذاتية خاصة.

الموضـع الـثامن: الآيات التي جاءت في سورة الإسراء، وهي قولـه تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَاسْأَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لأَظُنُّكَ يَا مُوسَى مَسْحُوراً * قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَؤُلاَءِ إِلاَّ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ بَصَائِرَ وَإِنِّي لأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُوراً * فَأَرَادَ أَنْ يَسْتَفِزَّهُمْ مِنْ الأَرْضِ فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ جَمِيعاً * وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُوا الأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفاً﴾[1].

ويلاحظ في هذا المقطع القرآني من القصّة ما يلي:

أولاً: لقـد جـاء في سياق المطالـب التعجيزية المتعدّدة التي كان يقترحها المشركون والكفار على الرسول ﷺ وعدم اكتفائهم بالقرآن الكريم دليلاً ومعجزة على النبوة: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلاَّ كُفُوراً * وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنْ الأَرْضِ يَنْبُوعاً * أَوْ تَكُونَ لَكَ

---

(١) الإسراء: ١٠١ ـ ١٠٤.

جَنَّةٌ مِنْ نَخِيل وَعِنَب فَتُفَجِّرَ الأنهَارَ خِلاَلَهَا تَفْجِيراً * أوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفاً أوْ تَأتِيَ بِالله وَالْمَلاَئِكَةِ قَبِيلاً﴾[1].

ثانياً: يعقّب القرآن الكريم على القصّة بالحديث عن القرآن بقوله: ﴿وَبِالْحَقِّ أنزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ وَمَا أرْسَلْنَاكَ إلاَّ مُبَشِّراً وَنَذِيراً﴾[2].

ثالثاً: لم يشر القرآن في هذا المقطع من القصّة إلاّ إلى الآيات التسع التي جاء بها موسى، ورفض فرعون دعوته، وقد لاقى مصيره بسبب هذا الرفض.

ويمكن أن نستنتج من هذه الملاحظة: أنّ القصّة إنّما جاءت هنا شاهداً على أنّ هذه المطالب المتعدّدة التي صدرت من الكفار لم تكن بسبب حاجة نفسية يحسها هؤلاء تجاه هذه المطاليب، وإنّما هو أسلوب عام يتذرع به الكفار للتمادي في الضلال والإصرار عليه، والشاهد على ذلك قصّة موسى عليه السلام: إذ جاء موسى بتسع آيات ومع ذلك كان موقف فرعون منها موقف المكذبين، بالرغم من أنّ هذه الآيات التسع جاءت في أزمنة متعدّدة، فالسياق هو الذي فرض الإتيان بالقصّة على أساس الاستشهاد بها، وهذا شيء تفرضه طبيعة الواقع التأريخي لرسالة موسى الذي أرسله الله سبحانه وتعالى بالآيات التسع.

كما أنّ التكرار كان بسبب تأكيد مفهومين:

الأول: إنّ طلبات الكفار وتمنياتهم ليست نتيجة لواقع نفسي يدعوهم إلى الشك بالرسالة، ويفرض عليهم التأكد من صحتها، ولا يكون عدم إتيان الرسول بمطاليبهم حينئذ بسبب فقدان صلته بالسماء، وإنّما بسبب كفاية القرآن الكريم لإقامة الحجّة عليهم، كما دلت الآية الكريمة بعد القصّة على ذلك.

---

(١) الإسراء: ٨٩ ـ ٩٢.

(٢) الإسراء: ١٠٥.

الـثاني: إنّ مصـير هؤلاء المكذبين كمصير فرعون من الهلاك والهزيمة، وأنّ أتباع النبي يصيرون إلى ما صار عليه بنو إسرائيل من وراثة الأرض.

الموضـع التاسـع: الآيـات الـتي جاءت في سورة الكهف، والتي تبدأ بقولـه تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ لاَ أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُباً * فَلَمَّـا بَلَغَـا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَباً﴾[1] والتي تختم بقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلاَمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَـانَ أَبُوهُمَـا صَالِحاً فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْراً﴾[2].

ويـبدو هـذا المقطع منفصلاً عن قِصّة موسى المذكورة في مواضع مختلفة من القرآن الكريم؛ لأنّه يتحدّث عن جانب معين من شخصية هذا الإنسان يختلف عن الجوانـب الأخـرى الـتي تصـوّرها القِصّـة، والتي تظهر فيها شخصية موسى النبي صـاحب الرسـالة والدعـوة، الـذي يجاهد من أجل التوحيد وإقامة العدل الإلهي والدفـاع عـن المستضـعفين، أو تتحدّد فيها معالم هذه الشخصية من خلال سيرته ونشأته الذاتية.

أمّـا هنا فيبدو موسى الإنسان الذي يسير في طريق التعلم والحريص على تفسير الظواهر غير العادية.

وحـين نلاحـظ أنّ القـرآن الكـريم يأتي بهذا المقطع في سياق قولـه تعالى: ﴿وَرَبُّـكَ الْغَفُـورُ ذُو الـرَّحْمَةِ لَـوْ يُؤَاخِذُهُـمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ بَلْ لَهُمْ مَوْعِـدٌ لَـنْ يَجِـدُوا مِـنْ دُونِهِ مَوْئِلاً * وَتِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا

---

(١) الكهف: ٦٠ ـ ٦١.

(٢) الكهف: ٨٢.

لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِداً﴾[1] قد نستنتج: أنّ الإتيان به كان من أجل التدليل على مدى مطابقة الحكمة الإلهية للمصلحة، وانسجامها مع واقع الأشياء مهما بدت غير واضحة المقصد والهدف.

فإنّ هاتين الآيتين اللتين جاء المقطع في سياقهما تشيران إلى وجود حكمة إلهية وراء تأخير العذاب، وعدم التعجيل به مع استحقاق الظالمين له، مع أنّه قد يبدو في النظرة السطحية الإنسانية أنّ التعجيل بالعذاب أوفق بالمصلحة، حيث يكون رادعاً للآخرين عن الظلم، فجاء المقطع تأكيداً لحقيقة الحكمة الإلهية ونظرتها البعيدة، وأنّ هذه الحكمة قد تخفى حتى على الأنبياء أنفسهم؛ إذ نلاحظ في هذا المقطع ثلاثة أعمال وتصرفات يقوم بها العبد الصالح كلّها تبدو في ظاهرها بعيدة عن العدل والمصلحة، الأمر الذي يثير استغراب موسى إلى حدّ يجعله يتخلى عن التزامه السابق بعدم السؤال، ثمّ يشرح العبد الصالح هذه الأعمال، ويبين مدى انسجامها مع العدل والمصلحة العامّة.

فالسياق العام للسورة هو الذي فرض الإتيان بالقصّة في هذا المورد، ولا حاجة إلى تكراره في مواضع أخرى مستقلاً أو في سرد الحوادث؛ لأنّه لا يحقّق الغرض الذي جيء به في هذا المورد.

الموضع العاشر: الآيات التي جاءت في سورة مريم، وهي قوله تعالى: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَى إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصاً وَكَانَ رَسُولاً نَبِيّاً * وَنَادَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيّاً * وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيّاً﴾[2].

---

(١) الكهف: ٥٨ ـ ٥٩.

(٢) مريم: ٥١ ـ ٥٣.

وقد جاءت هذه اللمحة من القصّة في عرض قصصي مشترك عن الأنبياء، وذلك بصدد تعداد مَنْ أنعم الله عليهم من عباده وأنبيائه، ومقارنتهم بمَنْ خلف بعدهم ممّن أضاع الصلاة واتّبع الشهوات: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّداً وَبُكِيّاً * فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلاَةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيّاً﴾[1].

فالسياق العام هو الذي فرض مجيء هذه القصّة بهذا الشكل من العرض والاختصار؛ وذلك لتعداد العباد الصالحين ونعمة الله عليهم.

الموضع الحادي عشر: الآيات التي جاءت في سورة طه، والتي تبدأ بقوله تعالى: ﴿وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى * إِذْ رَأَى نَاراً فَقَالَ لأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَاراً لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدىً﴾[2]. والتي تختم بقوله تعالى: ﴿قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لاَ مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِداً لَنْ تُخْلَفَهُ وَانظُرْ إِلَى إِلَهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفاً لَنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفاً * إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللهُ الَّذِي لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً﴾[3].

ونلاحظ في هذا المقطع القرآني من القصّة الأمور التالية:

الأوّل: جاءت القصّة في سياق بيان أنّ القرآن الكريم لم ينزل من أجل أن يشقى النبي ويتألم، لمجرد أنّ قومه لم يؤمنوا به، أو يظن في نفسه التخلف والتقصير، أو القصور عن أداء الرسالة، وإنّما نزل تذكرة لمن يخشى من الناس: ﴿طه * مَا

---

(١) مريم: ٥٨ ـ ٥٩.

(٢) طه: ٩ ـ ١٠.

(٣) طه: ٩٧ ـ ٩٨.

أنزلنا عَلَيْكَ القُرْآنَ لِتَشْقَى * إلاّ تَذْكِرَةً لِمَنْ يَخْشَى﴾[1].

الثاني: إنّ هذا المقطع القرآني ينتهي بقوله: ﴿كَذلِكَ نَقُصّ عَلَيْكَ مِنْ أنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مَنْ لَدنّا ذِكْراً﴾[2].

الثالث: يؤكد المقطع بشكل خاص ملامح معاناة النبي موسى عليه السلام في سبيل الدعوة، سواء المعاناة النابعة من الذات: من الانفعالات والمخاوف النفسية، أو الحرص الشديد على نجاح الدعوة وسلامتها والتزام أبنائها بها، أم التي تكون نتيجة العقبات والمشاكل والصعوبات التي تثار عند المواجهة والتطبيق، سواء من قبل الكافرين بالدعوة أصلاً أو المؤمنين بها، أم نعم الله وألطافه به من خلال ذلك.

فهناك عدّة انعكاسات لمواقف الرسالة والدعوة في ذات موسى:

الأوّل: مفاجأته بالرسالة، وكذلك فزعه من المعجزة وتحول العصا إلى حيّة.

الثاني: تردّده في الإقدام على الدعوة بمفرده، وطلبه انضمام أخيه هارون إليه.

الثالث: خوفه مع أخيه من التحدث إلى فرعون ومواجهته بالدعوة، مع أنّهما أُمرا أن يقولا قولاً ليّنا.

الرابع: إحساسه بالخوف من سحرهم، وتوجسه من نتائج المباراة.

الخامس: موقفه مع ربّه في المواعدة، ومخاطبة الله له بأنّه قد أعجل عن قومه.

السادس: غضب موسى وأسفه، وموقفه الصارم من قومه وأخيه والسامري.

وقد صاغ القرآن الكريم هذه الانفعالات من خلال طريقة العرض على الشكل الذي يؤكد معاناة النبي، ويبرز ملامح شخصيته؛ إذ كان يؤكد في طريقة العرض ضمير المخاطبة سواء بين الله وموسى أم بين موسى والآخرين.

---

(١) طه: ١ ـ ٣.

(٢) طه: ٩٩.

مضافاً إلى ذلك نجد أمام موسى عليه السلام مجموعة من العقبات والمشاكل الحقيقية المهمة، مثل: محاولة السحرة تضليل الناس، أو استخدام فرعون لأسلوب القمع والتهديد به، أو مطاردة فرعون وجيشه لموسى وبني إسرائيل في محاولتهم للعبور، أو فتنة السامري للإسرائيليين وتمردهم على هارون.

وعلى هذا الأساس يمكن أن نستنتج:

أولاً: سيقت القصّة لإبراز معاناة الأنبياء في دعواتهم بصفتها نتيجة طبيعية لعظم المسؤولية التي يتحملونها والمشاكل التي تواجههم، وبشكل خاص تشير إلى المعاناة الذاتية، ويشهد لذلك أنّ القصّة تؤكد المواقف التي تظهر فيها انفعالات الرسول، كما تؤكد ما ينعم به الله على الرسول خلال المجابهة، وحين ينتهي عرض دور الانفعال نجد القصّة تنتقل إلى عرض الدور الآخر دون أن تقف عند المشاهد الأخرى، فهي مثلاً تنتقل من العبور إلى المواعدة رأساً.

كما أننا حين نقارن بين هذا المورد الطويل من القصّة والمورد السابق الطويل منها الذي جاء في سورة الأعراف، أو المورد الثالث الطويل منها الذي يأتي في سورة القصص نجد هذا المورد هو الوحيد بينها يؤكد بهذا التفصيل هذه الملامح لشخصية الرسول.

ثانياً: إنّ السبب الذي فرض على القصّة هذا الأسلوب الخاص من العرض والتصوير واقتضى في الوقت نفسه بعض التكرار هو: مخاطبة الرسول وتخفيف الألم والعذاب النفسي اللذين كان يعانيهما تجاه الدعوة، ويدلنا على ذلك ما لاحظناه في الأمر الأول والثاني؛ إذ استهدف القرآن الكريم إبراز الصلة الوثيقة بين ما يعانيه رسول الله صلى الله عليه وآله في دعوته وبين ما كان الأنبياء السابقون يعانونه كقوله تعالى: ﴿مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى * إِلاَّ تَذْكِرَةً لِمَنْ يَخْشَى﴾.

وقولــه تعــالى: ﴿كَذلِـكَ نَقُصّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مَنْ لَدُنّا ذِكْراً﴾[١].

الموضع الثاني عشر: الآيات التي جاءت في سورة الشعراء، والتي تبدأ القصّة فـيه بقولـه تعالى: ﴿وَإِذْ نَادَى رَبّكَ مُوسَى أَنْ ائْتِ الْقَوْمَ الظّالِمِينَ * قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلاَ يَـتّقُون﴾[٢] والتي تختم بقوله تعالى: ﴿إِنّ فِي ذلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ * وَإِنّ رَبّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرّحِيمُ﴾[٣].

ويلاحظ في هذا المقطع القرآني من القِصّة الأمور التالية:

الأوّل: جاء المقطع من القِصّة بعد عتاب من الله سبحانه لرسوله محمّد ﷺ في إجهـاده لنفســه وإرهاقهـا حتى يكاد يقتلها بسبب أنّ قومه لم يكونوا مؤمنين: ﴿لَعَلّـكَ بَـاخِعٌ نَفْسَـكَ أَلاّ يَكُونُـوا مُؤْمِـنِينَ﴾[٤] بعدها يذكر القرآن الكريم قانوناً اجتماعـياً يـتحكم في التأريخ، وهو: أنّ كل ذكر جديد من الله سبحانه تعالى يُحدث ردة فعل كهذه لدى الكفار؛ إذ يقاومونه ويعرضون عنه، ولم يكن ذلك بسبب عجز الله سبحانه وعدم قدرته على إخضاعهم لرسالته وإرغامهم عليها: ﴿إِنْ نَشَأْ نُنَزّلْ عَلَـيْهِمْ مِـنْ السّـمَاءِ آيَـةً فَظَلّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ * وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ الرّحْمَــنِ مُحْـدَث إِلاّ كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ﴾[٥].

الـثاني: ينـبه القـرآن الكريم ـ بعد هذا التفسير العام للتأريخ ـ إلى أنّ هذا

---

(١) طـه: ٢ ـ ٣ و ٩٩.

(٢) الشعراء: ١٠ ـ ١١.

(٣) الشعراء: ٦٧ ـ ٦٨.

(٤) الشعراء: ٣.

(٥) الشعراء: ٤ ـ ٥.

الموقـف العـام للكافـرين تجاه الذكر لم يكن بسبب عدم توفر الدليل الصالح على صحة الرسالة: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الأَرضِ كَمْ أَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ * إِنَّ فِي ذلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَـهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾[1].

الثالـث: جـاء المقطع في عرض قصصي مشترك للأنبياء يتميّز بطابع خاص إلى جانب هذا التفسير التأريخي للموقف العام، وهو: أنّ كلّ نبي نجده يبذل جهده في اسـتعمال الأسـاليب المخـتلفة من الكلام اللين الهادئ أو التذكير بالنعم الإلهية الظاهرة التي يتمتّع بها أقوامهم، وقد يعضد أقواله هذه أحياناً بآية ومعجزة سماوية تشـهد لــه على صحة دعوته، ومع كلّ ذلك تكون النتيجة واحدة، ويختتم بقولـه تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾.

الرابع: بعد أن يأتي القرآن الكريم على نهاية العرض القصصي المشترك هذا يـرجع فيتحدّث عن (آيات الكتاب المبين) بوصفها شيئاً مرتبطاً بالسـماء ومتصفاً بجميع الصـفات التي تبرز هذا الاتصال، ممّا يسمح لذوي البصيرة والقلوب النيرة أن يطلعوا على واقعه ويهتدوا به.

وعـلى أسـاس هـذه الملاحظة يمكن أن نستنتج: أنّ القِصّة جاءت لتحقيق هدفين ضمن عرض قصصي مشترك:

أحدهـا: إيضـاح القانون الطبيعي الذي يتحكم في مواجهة الأفكار الإلهية الجديـدة، وإنّ تلكؤ الكافرين في الإيمان بالدعوة الإسلامية ورسالتها ليس بسبب تخلـف الرسـول ﷺ عـن المستوى الأمثل للعمل والنضال، أو نتيجة لعدم توفر الأدلـة الكافـية عـلى صـحة الرسـالة، وإنّمـا هو قانون عام لـه أسبابه النفسية

---

(١) الشعراء: ٧ ـ ٩.

والاجتماعية الأخرى، وخضعت له الرسالات الإلهية كلّها.

والآخر: أنّ النهاية سوف تكون لعباد الله الصالحين، وإنّهم هم الذين يرثون الأرض، ومن أجل أن تلفت النظر إلى هذا الهدف ـ الذي قد يضيع ضمن العرض العام للقصص ـ وتأكيده جاءت قصّة موسى بشيء من التفصيل الذي يؤكّد هذا الجانب، ويمكن ـ أيضاً ـ أن نفسّر التكرار للقصة بأحد السببين التاليين أو كليهما:

الأوّل: تأكيد هدف وغرض سبق أن استهدفه القرآن الكريم من قصّة موسى نفسها في سورة طه، وهو: التخفيف من الألم الذي يعانيه الرسول ﷺ، وهذا هو السبب الثاني من الأسباب الموجبة للتكرار.

الثاني: إنّ القصّة استهدفت غرضاً دينياً جديداً وهو: تصوير المفهوم الإسلامي العام عن طبيعة موقف المشركين تجاه الرسالة، وإنّه هو الموقف العام لهم تجاه كل الرسالات، وهذا هو السبب الأوّل من الأسباب الموجبة للتكرار.

وقد جاءت القصّة في أسلوبها وطريقة عرض الأحداث فيها منسجمة مع أهدافها وأغراضها؛ إذ تناولت جوانب معينة من حياة موسى، وعرضت بشكل خاص تنتهي عند هذه الأهداف، فنجد الحديث في القصّة مثلاً ينتهي عند العبور، كما أنّها أكّدت شكل الأسلوب الذي سار عليه موسى وهارون في مخاطبة فرعون.

الموضع الثالث عشر: الآيات التي جاءت في سورة النمل، والتي تبدأ بقوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ مُوسَى لأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ نَاراً سَآتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ آتِيكُمْ بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾[1] والتي تختم بقوله تعالى: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا

---

(١) النمل: ٧.

وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْماً وَعُلُوّاً فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾[١].

ويلاحظ في هذا المقطع القصير الذي يتحدّث عن القِصّة بشكل عام الأمور التالية:

الأوّل: جاءت القِصّة في سياق التحدث عن الكافرين بالآخرة وما سوف يلاقون من عذاب، وعن واقع نزول القرآن وتلقيه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ * أُولَئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ الْعَذَابِ وَهُمْ فِي الآخِرَةِ هُمُ الأَخْسَرُونَ * وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾[٢].

الثاني: إنّ هذا المقطع يختم بقوله تعالى: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْماً وَعُلُوّاً فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾.

الثالث: إنّ المقطع على اختصاره يكاد يختص بذكر الحوادث والآيات الغيبية، فهو يذكر المناداة ومعجزة العصا واليد، ويشير إلى الآيات التسع.

وهذه الملاحظة تدعونا لأن نستنتج: أنّ القِصّة سيقت لإظهار حقيقة من الحقائق التي ترتبط بالجانب النفسي للمجتمع الذي يواجه دعوة جديدة، وهذه الحقيقة هي: أنّ نكران الآخرة وعدم الإيمان بها إنّما يقوم على أساس نفسي وعاطفي، لا على أساس موضوعي ودراسة علمية، هذا الشيء الذي عبر عنه القرآن الكريم بالجحود؛ وذلك لأنّ الدراسة الموضوعية كانت تقتضي أن تنتهي الحالة بالناس إلى الإيمان بالآخرة بعد أن أكّدت الآيات والمعاجز ارتباط النبي بعالم الغيب، وأنها ـ الآيات والمعاجز ـ توفر عناصر اليقين عند الإنسان العادي الذي يعيش وضعية عاطفية مستوية ومستقيمة، ونتيجة لعدم الإيمان بالرغم من

---

(١) النمل: ١٤.

(٢) النمل: ٤ ـ ٦.

توفّر الأدلة والحجج ينزل العذاب بالكافرين بعد أن لم يستجيبوا للحقائق والأدلة.

ولا يفوتنا أن ننبه هنا إلى نكتة دقيقة ولطيفة وشاهد يؤكّد أنّ القصّة سيقت لهذا الغرض، وهو: أنّ القرآن يصوّر لنا خوف موسى من العصا بالشكل الذي يدعوه إلى الهروب، وفي هذا تأكيد أنّ هذا التحول في حالة العصا كان نتيجة تدخل غيبي؛ ولذا ترك أثره على موسى نفسه، لا أنّه نتيجة عمل بشري قام به موسى، ولعلّ السر في تكرار القصّة هنا هو السببان التاليان:

الأوّل: إنّ المقطع جاء في عرض قصصي مُشترك لتأكيد تفسير إسلامي لموقف المنكرين للقرآن، والدعوة على أساس عدم كفاية الآيات والمعجزات لإثباتها، وقد عرفنا في هذا التأكيد السبب الثاني للتكرار كما سبق.

الثاني: إنّ القصّة جاءت مختصرة في تصوير الموقف، وهذا يدعونا إلى أن نرى أنّها وردت في مرحلة متقدّمة من مراحل الدعوة حين كان يعالج القرآن مشاكلها بشكل مختصر، وهذا ما ذكرناه سبباً ثالثاً للتكرار.

الموضع الرابع عشر: الآيات التي جاءت في سورة القصص، والتي تبدأ بقوله تعالى: ﴿نَتْلُو عَلَيْكَ مِنْ نَبَأِ مُوسى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾[١] والتي تختتم بقوله تعالى: ﴿وَأَتْبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ﴾[٢].

ويلاحظ في هذا المقطع من القصّة الأمور التالية:

الأوّل: إنّ السورة تكاد تبدأ بالقصة دون أن يسبقها شيء عدا آيتين: هما قوله تعالى: ﴿طسم * تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾[٣].

---

(١) القصص: ٣.

(٢) القصص: ٤٢.

(٣) القصص: ١ ـ ٢.

الثاني: إنّ القرآن الكريم يأتي في سياق القصّة بعدها بقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الأمر وَمَا كُنتَ مِنْ الشَاهِدِينَ *... وَمَا كُنتَ ثَاوِياً فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ * وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِنْ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْماً مَا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾[١].

الثالث: تذكر القِصّة تفاصيل وحوادث ذات طابع شخصي من حياة موسى عليه السلام تكاد تكون جانبية، كحادثة إلقائه في اليمّ، واستنقاذ آل فرعون له، ورفضه للرضاعة من غير أمه، وقتله الرجل ثم محاولته قتل الآخر وهروبه، ثم قضية زواجه مع تفاصيلها.

الرابع: تبدأ القِصّة بذكر أحكام عامّة عن الوضع الاجتماعي حينذاك، والغاية المتوخاة من تغييره: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلاَ فِي الأرض وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعاً يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنْ الْمُفْسِدِينَ * وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأرض وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمْ الْوَارِثِينَ * وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الأرض وَنُرِي فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾[٢].

وعلى ضوء هذه الملاحظة يمكن أن نستنتج أنّ القِصّة استهدفت أمرين:

الأوّل: إنّ القرآن الكريم كتاب منزل من الله سبحانه وتعالى، وأنّه ليس من صنع محمد صلى الله عليه وآله، وهذا هو الهدف الرئيسي من سرد القِصّة في هذا المورد ـ كما

---

(١) القصص: ٤٤ ـ ٤٦.

(٢) القصص: ٤ ـ ٦.

يشير إلى ذلك الأمر الأوّل والثاني ـ وهو في الوقت نفسه من الأهداف المهمة التي يؤكدها القرآن الكريم في مناسبات كثيرة لما له من تأثير في سير الدعوة.

وبهذا يمكن أن نفسر ما أشرنا إليه في الأمر الثالث، لأنّ في الحديث عن تفاصيل جانبية من حياة الرسول دلالة قوية على ارتباط القرآن بعالم الغيب؛ إذ من المفروض أن لا يطّلع على هذه التفاصيل جميع الناس؛ لأنّها تعيش حياة الرسول حين كان فرداً عادياً في المجتمع، على خلاف تفاصيل حياته بعد النبوة، فإنّها ـ بطبيعة الحال ـ تكون معروفة للناس لتسليط الأضواء على شخصيته من قبلهم.

الثاني: إيضاح أنّ عملية التغيير الاجتماعي قد تتم حتى في أبعد الظروف ملاءمةً واحتمالاً، وفي ظل أشد ظروف الظلم والاضطهاد والطغيان، بحيث تبدأ عملية التغيير من نقطة هي في منتهى البُعد والضعف نسبة لهذه العملية، وذلك نتيجة للإيمان الواعي بالله، وما يستلزمه ذلك من الإصرار والصبر على تبني العقيدة والنضال من أجلها.

ولذلك نجد القصّة في هذا الموضع تؤكّد ملامح الاضطهاد الذي كان يعانيه المجتمع بشكل عام والإسرائيليون بشكل خاص، كما تؤكّد الوضع القاسي الذي كان يعيشه شخص الرسول في كونه منذ البداية في معرض خطر الموت والهلاك، ثم مطارداً من المجتمع بتهمة القتل العدواني، ثم مهاجراً وبعيداً عن المواقع الطبيعية لحركة التغيير. وفي هذين الهدفين ما يبرر التكرار الذي يمكن أن يكون بالسبب الأوّل أو الثاني من أسباب التكرار.

الموضع الخامس عشر: الآيات التي جاءت في سورة غافر، والتي تبدأ بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ * إِلَى فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ﴾[1] والتي تختم بقوله تعالى: ﴿فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ

---

(١) غافر: ٢٣ ـ ٢٤.

وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللهِ إِنَّ اللهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ * فَوَقَاهُ اللهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ﴾[١].

ويلاحظ في هذا المقطع من القصّة ما يلي:

الأول: إنّ السورة ـ التي جاء فيها هذا المقطع ـ تتحدّث في مطلعها عن مصير من يجادل في آيات الله: ﴿مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللهِ إِلاَّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَلاَ يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلاَدِ﴾[٢].

الثاني: تأتي القصّة في سياق أنّ هذا المصير للمجادلين نتيجة طبيعية لعنادهم بعد أن تأتيهم البينات فيكفرون بها: ﴿أَوَ لَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرض فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَاراً فِي الأَرض فَأَخَذَهُمُ اللهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنَ اللهِ مِنْ وَاقٍ﴾[٣].

الثالث: تؤكّد القصّة بشكل واضح موقف مؤمن آل فرعون والأساليب التي استعملها في دعوته لهم، ومحاولته ذات الجانب العاطفي في هدايتهم مع تذكيرهم بمصير من سبقهم من الأمم، وما ينتظرهم نتيجة لعنادهم وكفرهم. وفي قبال هذا الموقف يظهر لنا موقف فرعون وقد تمادى في غيّه حتى حاول أن يطّلع على إله موسى عليه السلام.

وعلى هذا الأساس يمكن أن نستنتج: أنّ القصّة سيقت لتوضيح مصير من يجادل في آيات الله، مع إيضاح الفرق بين الأسلوب الذي يستعمله الداعية والأسلوب الذي يستعمله المجادل والكافر، وأن العذاب لا ينزل بهؤلاء إلاّ بعد أن

---

(١) غافر: ٤٤ ـ ٤٥.

(٢) غافر: ٤.

(٣) غافر: ٢١.

تـتم الحجّة عليهم، وأنّ الهداية والحجّة من الوضوح بحيث يمكن أن يقتنع بها حتى أولـئك الأشـخاص الذيـن يعيشـون في الوسـط المتـنفذ والمترف ـ كما هو الحال بالنسـبة إلى مؤمـن آل فـرعون ـ كمـا أنّهـا تؤكّـد الدور الذي يجب أن يقوم به الإنسان تجاه هداية الآخرين، وأنّها مسؤولية شرعية وإنسانية يتحمّلها كل الناس حتى لو كان من الوسط الضال، كما فعل مؤمن آل فرعون.

وفي هذا العرض القرآني للقصة يظهر لنا ـ أيضاً ـ هذا الامتزاج بين الرحمة والغفـران، وبـين الـنقمة وشدة العذاب: ﴿غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّـوْلِ لاَ إِلَـهَ إِلاَّ هُـوَ إِلَـيْهِ الْمَصِـيرُ﴾[1] فإنّ الله سبحانه يجعل تحت متناول عقـول عـباده وأنظـارهم آياتـه وأدلته وبراهينه، ويتوسل إلى هدايتهم بالوسائل المخـتلفة الـتي لا تشـل عنصـر الاختيار فيهم، كلّ ذلك رحمة منه وفسحة لقبول التوبة والاستغفار، ولكنّه مع ذلك لا يعجزه شيء عن عقابهم أو القدرة على إنزال العذاب فيهم.

الموضـع السـادس عشر: الآيات التي جاءت في سورة الزخرف، والتي تبدأ بقولـه تعـالى: ﴿وَلَقَـدْ أَرْسَـلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِه فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَـالَمِينَ﴾[2] والـتي تختم بقولـه تعالى: ﴿فَلَمَّا آسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ * فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفاً وَمَثَلاً لِلاخِرِينَ﴾[3].

ويلاحظ في هذا الموضع من القِصّة ما يلي:

---

(١) غافر: ٣.

(٢) الزخرف: ٤٦.

(٣) الزخرف: ٥٥ ـ ٥٦.

إنّ هـذا المقطـع القرآني من القصّة جاء في سياق الحديث عن شبهة أثارها الكفـار في وجـه الدعـوة: ﴿وَقَالُوا لَوْلاَ نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُـلٍ مِنْ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾[1].

وقد ناقش القرآن الكريم هذه الشبهة من ناحيتين:

الأولى: إنّ الـرزق والمـال ليس عطاءً بشرياً أو نتيجة للجهد الشخصي والذكاء والعـبقرية والفضـل فحسب، بل هو عطاءٌ إلهي لـه غاية اجتماعية تنظيمية: ﴿أَهُمْ يَقْسِـمُونَ رَحْمَـةَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً سُخْرِيّاً وَرَحْمَةُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾[2].

الثانية: إنّ هذا العطاء الإلهي المادي ليس مرتبطاً بالفضل والامتياز عند الله والقـربى لديـه، كمـا هو شأن العطاء البشري ومقاييسه، بل قد يكون العكس هو الصحيح: ﴿وَلَوْلاَ أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِـمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمنِ لِبُيُوتِهِمْ سُـقُفاً مِـنْ فَضَّـةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ﴾[3] فإنّ ظاهر الآية الكريمة هو: أنّه لولا مخافـة أن يكـون الـناس أمـة واحدة على الكفر لجعلنا لمن يكفر بالرحمن... وقد يكـون ذلـك تعويضاً لهم عمّـا يلحق بهم من الخسران والعذاب في الدار الآخرة، فإنّ: « الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر »[4].

ومـن هـذه الملاحظـة يمكن أن نستنتج: أنّ المقطع جاء ليضرب مثلاً واقعياً تجاه هذه الحقيقة والفكرة التي عاشتها الإنسانية، وهذا المثل هو: موقف فرعون من

---

(١) الزخرف: ٣١.

(٢) الزخرف: ٣٢.

(٣) الزخرف: ٣٣.

(٤) من لا يحضره الفقيه ٤: ٣٦٣.

دعـوة موسـى؛ إذ نزلـت الرسـالة على شخص فقير مطارد، ويتعرّض قومه إلى الاضطهاد، مع أنّ فرعون هو صاحب الثروة والغنى.

والـذي يؤكـد هـذا الاسـتنتاج أنّ المقطـع يتبنى إظهار جانب ما يتمتع به فـرعون مـن ثـروة وملـك وغنى في مقابل موسى الذي هو مهين على حد تعبير فرعون، وليس في المواضع الأخرى من القرآن ما يشبه هذا الموقف من فرعون.

فالتكرار فرضه السياق القرآني إلى جانب تحقيق الغرض الديني.

الموضـع السـابع عشر: الآيات التي جاءت في سورة الذاريات، وهي قولـه تعـالى: ﴿وَفِي مُوسَى إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَى فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ * فَتَوَلَّى بِرُكْنِهِ وَقَالَ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ * فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ﴾[1].

وهـذه الـلمحة العابرة التي تأتي في عرض قصصي مشترك عن الأنبياء من أجـل تعداد آيات الله سبحانه، وإثبات صدق الدعوة والنبوة، نجد أسلوب السورة المكـية الـذي كـان يفرض طبيعة الموقف فيه ذكر القصص القرآنية بشكل مختصر وعابر.

الموضـع الثامن عشر: الآية التي جاءت في سورة الصف: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِـهِ يَا قَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللهُ قُلُوبَهُمْ وَاللهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾[2].

وفي هـذه إشـارة إلى موقـف معـين لبني إسرائيل تجاه موسى، إذ آذوه مع عـلمهم بنـبوته، وقـد كـان الغرض من الإشارة إليه هو: مقارنة موقف أصحاب الـنبي ﷺ تجاهـه وموقـف هؤلاء تجاه موسى، وكذلك موقف بني إسرائيل تجاه

---

(١) الذاريات: ٣٨ ـ ٤٠.

(٢) الصـف: ٥.

عيسى ﷺ من تكذيبه ومخالفته بعد أن جاءهم بالبينات، وفي هذا تذكير لأصحاب النبي وتحذير لهم من الوقوع في مثل هذه المواقف والمخالفات، وإلاّ لساروا في طريق النفاق، وكانوا ممّن يقولون ما لا يفعلون، كما يدل السياق على ذلك.

الموضع التاسع عشر: الآيات التي جاءت في سورة النازعات، وهي قوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى * إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِي الْمُقَدَّسِ طُوىً * اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى * فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّى * وَأَهْدِيَكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى * فَأَرَاهُ الآيَةَ الْكُبْرَى * فَكَذَّبَ وَعَصَى * ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَى * فَحَشَرَ فَنَادَى * فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمْ الأَعْلَى * فَأَخَذَهُ اللهُ نَكَالَ الآخرة وَالأولَى﴾[1].

وهذا المقطع القرآني من القِصّة ينسجم مع السياق العام للسورة التي تتحدّث عن الحشر، وتصوّر قدرة الله سبحانه على تحقيقه بزجرة واحدة؛ لأنّ الموقف فيها ينتقل من دعوة موسى لفرعون مع ما له من القدرة الدنيوية وتكبره وتجبره وعظمته، إلى أخذ الله سبحانه وتعالى له نكال الآخرة والأولى، فإنّ هذا الانتقال يصوّر لنا هذه السرعة والقدرة في الحشر والنشر؛ ولذا نجد القرآن يرجع ـ بعد إعطاء هذه الصورة الواقعية عن القدرة ـ إلى الاستدلال على هذه الحقيقة بأدلة وجدانية: ﴿أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقاً أَمْ السَّمَاءُ بَنَاهَا * رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا * وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا * وَالأرض بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا * أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا * وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا﴾[2].

---

(١) النازعات: ١٥ ـ ٢٥.

(٢) النازعات: ٢٧ ـ ٣٢.





الفصل الخامس

قصة آدم عليه السلام


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

استخلاف آدم (الإنسان)

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ * وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْماءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلاَئِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاَءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * قَالُوا سُبْحَانَكَ لاَ عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ * قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ * وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنْ الْكَافِرِينَ * وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلاَ مِنْهَا رَغَداً حَيْثُ شِئْتُمَا وَلاَ تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنْ الظَّالِمِينَ * فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ * فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ * قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعاً فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدىً فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ * وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾[1].

---

(١) البقرة: ٣٠ ـ ٣٩.

هـذه الآيـات العشر تتحدّث عن قضية استخلاف الله سبحانه وتعالى لآدم على الأرض، وقضية الاستخلاف تشتمل على فصلين:

يتـناول الفصـل الأوّل معنى الاستخلاف والحكمة والعلة فيه، وهذا الجانب مـن قِصّـة آدم يكـاد ينحصـر ذكـره والحديث عنه في القرآن الكريم بهذا المقطع القرآني فقط[١]، وإن كان من الممكن أن تكون جميع آيات الاستخلاف مؤكّدة هذا المقطع وإن لم تكن بهذا الوضوح.

ويتـناول الفصـل الـثاني العملـية الـتي تمّ بها انجاز هذا الاستخلاف، وهذا الجانب تحدّث عنه القرآن في مواضع متعددة لابدّ من دراستها بشكل عام.

الحكمة في استخلاف آدم

ومـا يعنيـنا من دراسته في هذا الفصل من هذا المقطع القرآني الشريف هو: الآيات الأربع الأولى، والبحث فيها، وما تضمّنته من معلومات ومفاهيم له جانبان:

الجانـب الأوّل: تحديد الموقف العام تجاه دراسة هذا المقطع القرآني، وتصوير ما يعنيه القرآن الكريم منه.

الجانـب الـثاني: تحديـد الموقف القرآني والإسلامي تجاه بعض المفاهيم التي جـاءت في المقطـع بالشـكل الذي ينسجم مع المسلّمات القرآنية، والظهور اللفظي لهذا المقطع بالخصوص.

---

(١) بالاضافة إلى بعض الإشارات الأخرى مثل قوله تعالى: ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً ﴾ الأحزاب: ٧٢، وأيضاً قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلاَئِفَ الأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ الأنعام: ١٦٥، وكذلك فاطر: ٣٩، وأيضاً الزخرف: ٦٠، وغيرها. منه ﷺ.

وفـيما يتعلق بالجانب الأوّل نجد الشيخ محمّد عبدة ـ تبعاً لبعض الدارسين المـتقدمين ـ يذكـر رأيين مختلفين بحسب الشكل وإن كانا يتفقان في النهاية حسب ما يقول:

الـرأي الأوّل: هو الذي سار عليه السلف، واختاره الشيخ محمّد عبدة نفسه أيضـاً، حيـث يقـول: « وأمّـا ذلك الحوار في الآيات فهو: شأن من شؤون الله مع ملائكـته، صـوّره لـنا في هذه الفصول بالقول والمراجعة والسؤال والجواب، ونحن لا نعـرف حقيقة ذلك القول، ولكنّنا نعلم أنّه ليس كما يكون منّا، وأنّ هناك معاني قُصِد إفادتها بهذه العبارات، وهي: عبارة عن شأن من شؤونه سبحانه وتعالى قبل خلـق آدم، وأنّه كان يعدّ لـه الكون، وشأن مع الملائكة يتعلق بخلق نوع الإنسان، وشأن آخر في بيان كرامة هذا النوع وفضله »[١].

الـرأي الـثاني: هـو الـذي سـار علـيه الخلف من المحقّقين وعلماء الإسلام الذين بذلوا جهدهم في دراسة القرآن والتعرف على مقاصده، حيث يرون أنّ هذه القِصّـة بمواقفهـا المخـتلفة إنّمـا جاءت على شكل التمثيل ومحاولة تقريب النشأة الآدمية الإنسانية وأهميتها وفضيلتها، وأنّ جميع المواقف والمفاهيم التي جاءت فيها يمكن تحديد المعاني والأهداف التي قصدت منها.

فالـرأي الأوّل والـثاني وإن كانـا يلتقـيان في حقـيقة تنزيـه الله سـبحانه وتعـالى وعـالم الغيـب عـن مشـابهة المخلوقـات الماديـة المحسوسـة في هـذه المواقف المختلفة، وكادا يتفقان ـ أيضاً ـ في الأهداف والغايات العامّة المقصودة من هـذا المقطـع القـرآني، ولكـنّهما مع ذلك يختلفان في إمكانية تحديد بعض المفاهيم

(١) المنار ١: ٢٥٤.

التي وردت في المقطع، كما سوف يتضح ذلك عند معالجتنا للمقطع القرآني من جانبه الآخر.

وفيما يتعلق بالجانب الثاني نجد السلف انسجاماً مع موقفهم في الجانب الأوّل يقفون من دراسة المقطع موقفاً سلبياً، ويكتفون ـ في بعض حالات الانفتاح ـ بذكر الفوائد الدينية التي تترتب على ذكر القرآن لهذا المقطع القرآني (المتشابه).

وقد أشار الشيخ محمّد عبدة إلى بعض هذه الفوائد، ونكتفي بذكر فائدتين:

الأولى: إنّ الله سبحانه وتعالى في عظمته وجلاله يرضى لعبيده أن يسألوه عن حكمته في صنعه، وما يخفى عليهم من أسراره في خلقه.

الثانية: إنّ الله سبحانه وتعالى لطيف بعباده رحيم بهم، يعمل على معالجتهم بوجوه اللطف والرحمة، فهو يهدي الملائكة في حيرتهم، ويجيبهم عن سؤالهم عندما يطلبون الدليل والحجّة بعد أن يرشدهم إلى واجبهم من الخضوع والتسليم: ﴿إِنِّيَ أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ * وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاء كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلاَئِكَةِ..﴾[1].

وأمّا الخلف فقد حاولوا إيضاح المفاهيم التي وردت في هذا المقطع القرآني ليتجلى بذلك معنى استخلاف الله سبحانه وتعالى لآدم، وسوف نعرض أهم هذه المفاهيم المرتبطة بقضية الاستخلاف، مع ذكر الآراء المختلفة فيها، ثم نتحدّث عن المعنى العام للمقطع القرآني.

---

(١) البقرة: ٣٠ ـ ٣١.

مفاهيم حول الاستخلاف

١ ـ الخلافة: الخليفة بحسب اللغة: مَنْ خلف مَنْ كان قبله، وقام مقامه وسد مسده، وتستعمل ـ أيضاً ـ بمعنى النيابة[١]، ومن هذا المنطلق يُطرَح هذا السؤال: لماذا سُميّ آدم خليفة؟

توجد هنا عدّة آراء:

الأول: سُمِّي خليفة؛ لأنّه خلف مخلوقات الله سبحانه وتعالى في الأرض، وهذه المخلوقات إمّا أن تكون ملائكة، أو يكونوا الجن الذين أفسدوا في الأرض، وسفكوا فيها الدماء، كما رُوِي عن ابن عباس، أو يكونوا آدميين آخرين قبل آدم هذا.

الثاني: سُمِّي خليفة؛ لأنّه وأبناءه يخلف بعضهم بعضاً، فهم مخلوقات تتناسل، ويخلف بعضها بعضاً، وقد نُسِب هذا الرأي إلى الحسن البصري.

الثالث: سُمِّي خليفة؛ لأنّه يخلف الله سبحانه وتعالى في الأرض، وفي تفسير هذه الخلافة لله سبحانه وتعالى وارتباطها بالمعنى اللغوي تعدّدت الآراء واختلفت، وهي على النحو التالي:

أ ـ يخلف الله في الحكم والفصل بين الخلق.

ب ـ يخلف الله سبحانه وتعالى في عمارة الأرض واستثمارها، من إنبات الزرع، وإخراج الثمار، وشق الأنهار وغير ذلك[٢].

ج ـ يخلف الله سبحانه وتعالى في العلم بالأسماء، كما ذهب إلى ذلك العلاّمة الطباطبائي[٣].

---

(١) مفردات الراغب: ١٥٥، مادة (خلف).

(٢) هذا الرأي وما قبله ذكره الطوسي في التبيان ١: ١٣١.

(٣) الميزان ١: ١١٨.

د ـ يخلف الله سبحانه وتعالى في الأرض بما نفخ الله فيه من روحه، ووهبه من قوة غير محدودة، سواء في قابليتها أم شهواتها أم علومها، كما ذهب إلى ذلك الشيخ محمّد عبدة[1].

ولعلّ المذهب الثالث هو الصحيح من هذه المذاهب الثلاثة، خصوصاً إذا أخذنا في مدلوله معنى واسعاً لخلافة الله في الأرض، بحيث يشمل مجمل الآراء الأربعة التي أشرنا إليها في تفسيره؛ لأنّ دور الإنسان في خلافة الله في الأرض يمكن أن يشمل جميع الأبعاد والصور التي ذكرتها هذه الآراء، فهو يخلف الله في الحكم والفصل بين العباد بما منح الله هذا الإنسان من صلاحية الحكم بين الناس بالحق: ﴿يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأرض فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلاَ تَتَّبِعْ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ﴾[2].

وكذلك يخلفه في عمارة الأرض واستثمارها، من إنبات الزرع، وإخراج الثمار والمعادن، وتفجير المياه، وشق الأنهار وغير ذلك: ﴿فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيهِ النُّشُور﴾[3] ولعلّ أكثر موارد استعمال (خلائف وخلفاء واستخلاف) أريد منه هذا النوع من الاستخلاف: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الأرض تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُوراً وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتاً فَاذْكُرُوا آلاءَ اللهِ وَلاَ تَعْثَوْا فِي الأرض مُفْسِدِينَ﴾[4].

وكذلك يخلف الإنسان الله في الأرض بعلمه بالأسماء والمعارف والكمالات

---

(١) المنار ١: ٢٦٠.

(٢) ص: ٢٦.

(٣) الملك: ١٥.

(٤) الأعراف: ٧٤.

التي يتكامل من خلالها ويسير بها نحو الله سبحانه وتعالى.

ولعلّ ما ذكره الشيخ محمّد عبدة إنّما يمثل السر في منح الإنسان هذه الخلافة؛ لأنّه يتميز بهذه المواهب والقوى والقابليات.

٢ ـ كيف عرف الملائكة أن الخليفة يفسد في الأرض؟

لقد ذكر المقطع القرآني أنّ جواب الملائكة عن إخبارهم بجعل آدم خليفة في الأرض أنّهم تساءلوا عن سبب انتقاء هذا الخليفة الذي يفسد في الأرض، فكيف عرف الملائكة هذه الخصيصة في هذا الخليفة؟ وهنا عدة آراء:

الأوّل: إنّ الله سبحانه وتعالى أعلمهم بذلك؛ لأنّ الملائكة لا يمكن أن يقولوا هذا القول رجماً بالغيب وعملاً بالظن[١].

الثاني: إنّهم قاسوا ذلك على المخلوقات التي سبقت هذا الخليفة الذي سوف يقوم مقامها، كما يشير إلى ذلك بعض الروايات والتفاسير[٢].

الثالث: إنّ طبيعة الخلافة تكشف عن ذلك بناءً على الرأي الأوّل من المذهب الثالث في معنى الخلافة؛ إذ يفترض الاختلاف والنزاع، ولازمه الفساد في الأرض وسفك الدماء، كما ذكر ذلك ابن كثير في تفسيره[٣].

الرابع: أنّ طبيعة الخليفة نفسه تقتضي ذلك، وهنا رأيان:

أ ـ إنّ المزاج المادي والروحي لهذا المخلوق الذي يريد أن يجعله الله خليفة، والأساس الاجتماعي للعلاقات الأرضية التي سوف تحصل بين أبناء هذه المخلوقات هي التي جعلت الملائكة يعرفون ذلك، يقول العلاّمة الطباطبائي: « إنّ

---

(١) التبيان ١: ١٣٢.

(٢) التبيان ١: ١٣٣.

(٣) قصص الأنبياء لابن كثير ١: ٥.

الموجـود الأرضـي بمـا أنّه مادي مركب من القوى الغضبية والشهوية، والدار دار الـتزاحم محـدودة الجهـات وافـرة المـزاحمات، مركـباتها في معـرض الانحـلال، وانـتظاماتها واصـطلاحاتها مظـنة الفسـاد ومصب البطلان، لا تتم الحياة فيها إلاّ بالحـياة النوعـية، ولا يكمـل البقـاء فيـها إلاّ بالاجتماع والتعاون، فلا تخلو مـن الفساد وسفك الدماء »[١].

ب ـ إنّ الإرادة الإنسـانية بمـا أعطيت من اختيار يتحكم في توجيهه العقل بمعلوماتـه الناقصـة هـي الـتي تـؤدي بالإنسان إلى أن يفسد في الأرض ويسفك الدمـاء، قـال محمّد عبدة: « أخبر الله الملائكة بأنّه جاعل في الأرض خليفة، نفهم مـن ذلـك أنّ الله يـودع في فطرة هذا النوع الذي يجعله خليفة أن يكون ذا إرادة مطلقـة واختـيار في عمله غير محدود، وأنّ الترجيح بين ما يتعارض من الأعمال الـتي تعـن لـه تكـون بحسـب علمه، وأنّ العلم إذا لم يكن محيطاً بوجوه المصالح والمـنافع فقـد يوجه الإرادة إلى خلاف المصلحة والحكمة، وذلك هو الفساد، وهو معين لازم الوقوع؛ لأنّ العلم المحيط لا يكون إلاّ لله تعالى »[٢].

ويبدو أنّ الرأي الأوّل هو الصحيح؛ لأنّ الله تعالى لابدّ أنّه قد أعلم الملائكة بحال وطبيعة هذا المخلوق الذي ينتهي به الحال إلى هذه النتائج.

وأمّا الرأي الصحيح في بيان طبيعة نفس الخليفة فلعلّه هو: بيان أمرين:

أحدهمـا: الخصوصـية المادية التي أشار إليها العلاّمة الطباطبائي، والهوى في طبيعة هذا الخليفة.

---

(١) الميزان ١: ١١٥و١١٩)، والتفسير الكبير ١: ١٢١.

(٢) المنار ١: ٢٥٦.

والآخـر: هـو أنّ هذا الإنسان مريد ومختار يعمل بإرادته ـ كما ذكر الشيخ محمّـد عـبدة ـ ويمكن أن نفهم ذلك من قرينة تعقيب الملائكة أنفسهم، الأمر الذي استدعى التوضـيح الإلهـي الـذي يشـتمل عـلى بيان الخصـوصية التي تجعل هذا الموجود مستحقاً لهذه الخلافة، وهو: العلم.

٣ ـ الأسماء: والأسماء من المفاهيم التي وقع الخلاف فيها بين علماء التفسير حول حقيقتها والمراد منها، والآراء فيها تسير في الاتجاهين التاليين:

الأوّل: هـي الألفـاظ التي سمّى الله سبحانه وتعالى بها ما خلقه من أجناس وأنـواع المحدثـات وفي جمـيع اللغـات، وهذا الرأي هو المذهب السائد عند علماء التفسير، ونسب إلى ابن عباس وبعض التابعين[1].

ويـنطلق أصحاب هذا المذهب في تفكيرهم إلى أنّ الله سبحانه وتعالى كان قـد علّـم آدم جمـيع اللغات الرئيسية، وقد كان ولده على هذه المعرفة، ثمّ تشعبت بعد ذلك، واختص كلّ جماعة منهم بلغة غير لغة الجماعة الأخرى.

الـثاني: هـي المسـميات، أو صفاتها وخصائصها، لا الألفاظ، وحينئذ فنحن بحاجـة إلى القريـنة القرآنـية أو العقلية التي تصرف اللفظ إلى هذا المعنى الذي قد يـبدو أنّه يخالف ظاهر الإطلاق القرآني لكلمة الأسماء الدالة على الألفاظ. ويمكن أن نتصوّر هذه القرينة في الأمور التالية:

أ ـ كـلمة (علّـم) التي تدلّ على أنّ الله سبحانه وتعالى منح آدم (العلم) وبمـا: « أنّ العـلم الحقيقي إنّما هو إدراك المعلومات أنفسها، والألفاظ الدالة عليها تخـتلف باخـتلاف اللغات التي تجري بالمواضعة والاصطلاح، فهي تتغير وتختلف،

---

(١) التبيان ١: ١٣٨، والتفسير الكبير ٢: ١٧٦.

والمعنى لا تغيير فيه ولا اختلاف »[١]. فلابدّ أن يكون هو المسميات التي هي المعلومات الحقيقية.

ب ـ قضية التحدي المطروحة في الآيات الكريمة؛ ذلك أنّ الأسماء حين يُقصد منها الألفاظ واللغات فهي إذن من الأشياء التي لا يمكن تحصيلها إلاّ بالتعليم والاكتساب، فلا يحسن تحدي الملائكة بها؛ إذ لا دلالة في تعليمها آدم على وجود موهبة خاصة فيه يتمكن بها من معرفة الأسماء، وهذا على خلاف ما اذا قلنا: إنّ المقصود منها المسميات، فإنّها ممّا يمكن إدراكه ـ ولو جزئياً ـ عن طريق إعمال العقل الذي يُعدّ موهبة خاصة، فيكون لمعرفة آدم بها دلالة على موهبة خاصة منحه الله إياها، قال الطوسي: « إنّ الأسماء بلا معانٍ لا فائدة فيها، ولا وجه لايثاره الفضيلة بها »[٢]، وقال الرازي: « وذلك لأنّ العقل لا طريق له إلى معرفة اللغات البتة، بل ذلك لا يحصل إلاّ بالتعليم، فإن حصل التعليم حصل العلم به، وإلاّ فلا، أمّا العلم بحقائق الأشياء فالعقل متمكن من تحصيله، فصحّ وقوع التحدي فيه »[٣].

ج ـ عجز الملائكة عن مواجهة التحدي؛ لأنّ هذه الأسماء لو كانت ألفاظاً لتوصل الملائكة إلى معرفتها بإنباء آدم لهم بها، وهم بذلك يتساوون مع آدم، فلا تبقى له مزية وفضيلة عليهم، فلابدّ لنا من أن نلتزم بأنّها أشياء تختلف مراتب العلم بها، الأمر الذي أدى إلى أن يعرفها آدم معرفة خاصة تختلف عن معرفة الملائكة لها حين إخباره لهم بها، وهذا يدعونا لأن نقول: إنّها عبارة عن المسميات

---

(١) المنار ١: ٢٦٢.

(٢) التبيان ١: ١٣٨.

(٣) التفسير الكبير ٢: ١٧٦.

لا الألفاظ. قال العلامة الطباطبائي بصدد شرح هذه الفكرة: « إنّ قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الأسماء كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ...﴾ يشعر بأنّ هذه الأسماء أو أنّ مسمياتها كانت موجودات أحياء عقلاء محجوبين تحت حجاب الغيب، وأنّ العلم بأسمائهم كان غير العلم الذي عندنا بأسماء الأشياء، وإلاّ كانت الملائكة بإنباء آدم إياهم بها عالمين بها وصائرين مثل آدم مساوين معه »[1].

وحين يصل أصحاب هذا الاتّجاه إلى هذه النقطة نجدهم يحاولون أنْ يتعرفوا على العلاقة التي صحّحت استعمال لفظ (الأسماء) محل لفظ (المسميات) ويذكرون لذلك قرائن متعدّدة:

١ ـ فالرازي يرى هذه المناسبة والعلاقة في مصدر اشتقاق الاسم، فإنّه إمّا أن يكون من السمة أو السمو: « فإن كان من السمة كان الاسم هو العلامة، وصفات الأشياء خصائصها دالة على ماهياتها، فصحّ أن يكون المراد من الأسماء: (الصفات) وإن كان من السمو فكذلك؛ لأنّ دليل الشيء كالمرتفع على ذلك الشيء، فإنّ العلم بالدليل حاصل قبل العلم بالمدلول »[2] والصفات تدل على الموصوف، وهي كالظاهر المرتفع بالنسبة إلى الشيء.

٢ ـ والشيخ محمّد عبدة يرى هذه العلاقة في: « شدّة الصلة بين المعنى واللفظ الموضوع له، وسرعة الانتقال من أحدهما إلى الآخر ».

٣ ـ كما أنّه يرى في ذلك وجهاً آخر يكاد يغنيه عن هذه العلاقة، لأنّ الاسم قد يطلق إطلاقاً صحيحاً على صورة المعلوم الذهنية، أي: ما به يُعلمُ

---

(١) الميزان ١: ١١٧.

(٢) تفسير الرازي٢: ١٧٦.

الشيءُ عند العالم، فاسم الله ـ مثلاً ـ هو ما به عرفناه في أذهاننا، لا نفس اللفظ بحيث يقال: إنّنا نؤمن بوجوده، ونسند إليه صفاته. فالأسماء هي ما يعلم بها الأشياء في الصور الذهنية، وهي العلوم المطابقة للحقائق الخارجية الموضوعية، والاسم بهذا المعنى هو الذي جرى الخلاف بين الفلاسفة في أنّه عين المسمى أو غيره، الأمر الذي يدعونا لأن نقول: إنّ للاسم معنى آخر غير اللفظ؛ اذ لاشك بأنّ اللفظ غير المعنى.

والاسم بهذا الاطلاق ـ أيضاً ـ هو الذي يتبارك ويتقدس: ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى﴾[1]؛ إذ لا معنى لأن يكون اللفظ هو الذي يتبارك ويتقدّس[2].

ما هي هذه الأسماء؟

وبعد هذا كلّه نجدهم يختلفون في حقيقة هذه المسميات، والمراد منها في الآية الكريمة:

فالعلاّمة الطباطبائي يراها ـ كما في النص السابق ـ موجودات أحياء عقلاء، ولعلّه يفهم هذه الحياة ها والعقل من قوله تعالى: ﴿ثُمَّ عَرَضَهُمْ﴾؛ لأنّه استعمل ضمير الجماعة المختص بِمَنْ يعقل، وهذا الاتجاه نجده في بعض الاراء المتقدّمة على العلاّمة الطباطبائي نفسه، كما في حكاية الطبري عن الربيع وابن زيد أنهما قالا: علّمه الله أسماء ذريته وأسماء الملائكة[3].

ولكن الشيخ الطوسي يناقش فكرة الاعتماد على الضمير بقوله: « وهذا غلط؛ لما بيناه من التغليب وحسنه، كما قال تعالى: ﴿وَاللهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ

---

(١) الأعلى: ١.

(٢) المنار ١: ٢٦٢.

(٣) التبيان ١: ١٣٨، وتفسير الرازي ٢٤: ١٦.

يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ﴾ »[١].

والشيخ محمّد عبدة يرى أنّها تعني: جميع الأشياء وجميع ما يتعلق بعمارة الدين والدنيا من غير تحديد ولا تعيين[٢]، ولعلّ هذا الاتجاه هو الذي يظهر من كلام الشيخ الطوسي والرازي في تفسيرهما[٣]، وحكاه الطبرسي[٤] عن ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير وعليه أكثر المتأخرين.

وهذا الرأي هو الصحيح الذي ينسجم مع واقع الإنسان من ناحية، وصحة التمييز به والفضل على الملائكة؛ لأنّه يُعبّرُ عن خط التكامل الذي يمكن أن يسير به الإنسان، ويمتاز به على جميع المخلوقات.

نظرية الاستخلاف

بعد أن تعرّفنا على آراء العلماء المختلفة تجاه المفاهيم البارزة التي جاءت في هذا المقطع القرآني، لابدّ لنا من معرفة الصورة الكاملة للمقطع القرآني؛ لنستخلص نظرية استخلاف آدم منها.

صورتان للنظرية

وهنا توجد صورتان لهذه النظرية بينهما كثير من وجوه الشبه:

الصورة الأولى: الصورة التي ذكرها السيد رشيد رضا في تفسيره عن أستاذه الشيخ محمّد عبدة، حيث يرى أنّ القِصّة وردت مورد التمثيل؛ لغرض تقريبها من

---

(١) التبيان ١: ١٣٨.

(٢) المنار ١: ٢٦٢.

(٣) التبيان ١: ١٣٨، والتفسير الكبير ٣: ١٧٦.

(٤) مجمع البيان ١: ١٥٣.

تناول أفهام الخلق لها؛ لتحصل لهم الفائدة من معرفة حال النشأة الأولى.

وعلى هذا الأساس يمكننا أن نفهم كثيراً من جوانب هذه المحاورة، والألفاظ التي استعملت فيها دون أن نتقيد بالمعنى اللغوي العرفي لها:

١ ـ أخبر الله سبحانه وتعالى الملائكة بأنّه بصدد أن يجعل في الأرض خليفة عنه، يودع في فطرته الإرادة المطلقة التي تجعله قادراً على التصرف حسب قدرته ومعلوماته التي لا يمكن أن تصل إلى مرتبة الكمال.

وعلى أساس هذه الإرادة المطلقة، وهذا العلم الناقص عرف الملائكة أنّ هذا الخليفة سوف يسفك الدماء ويفسد في الأرض؛ لأنّ ذلك نتيجة طبيعية لما يتمتع به من إرادة مطلقة يسير بها حسب علمه الذي لا يحيط بجميع جوانب المصالح والمنافع، الأمر الذي قد يوجه الإرادة إلى خلاف الحكمة والمصلحة، فيقع في الفساد.

وحين عرف الملائكة ذلك تعجبوا من خلق الله لهذا النوع من الخلق الذي يسفك الدماء ويفسد في الأرض، فسألوا الله سبحانه ـ عن طريق النطق أو الحال، أو غير ذلك ـ أن يتفضل عليهم بإعلامهم عن ذلك وبيان الحكمة لهم.

وكان الجواب لهم هو: بيان وجوب الخضوع والتسليم لمن هو بكل شيء عليم؛ لأنّ هذا هو موقف جميع المخلوقات تجاهه؛ لأنّه العالم المحيط بكل المصالح والحِكم.

٢ ـ على أنّ هذا النوع من الخضوع والتسليم الذي ينشأ من معرفة الملائكة بإحاطة الله بكلّ شيء ربّما لا يذهب الحيرة، ولا يزيل الاضطراب، وإنّما تسكن النفس بإظهار الحكمة، والسر الذي يختفي وراء الفعل الذي حصل منه تعجب الملائكة.

ولذلك تفضل الله سبحانه وتعالى على الملائكة بأن أوضح لهم السر، وأكمل

علمهم ببيان الحكمة في هذا الخلق، فأودع في نفس آدم وفطرته علم جميع الأشياء من غير تحديد ولا تعيين، الأمر الذي جعل لآدم امتيازاً خاصاً استحق به الخلافة عن الله في الأرض.

ويظهر هذا الامتياز حين نقارن بين الإنسان والمخلوقات لله سبحانه، فقد نطق الوحي ودل العيان والاختبار على أنّ الله سبحانه وتعالى خلق العالم أنواعاً مختلفة، وخصّ كلّ نوع منها بقدرات ومواهب، ولكنّ الإنسان مع ذلك يختلف عنها في أنّه لمّا منحه الله من قدرات ومواهب ليست لها حدود معينة، لا يتعداها، على خلاف بقية المخلوقات.

فالملائكة ـ الذين لا نتمكن من معرفة حقيقتهم إلاّ عن طريق الوحي ـ لهم وظائف محدودة ـ كما دلت الآيات والأحاديث ـ فهم يسبّحون الله ليلاً ونهاراً، وهم صافون ويفعلون ما يؤمرون إلى غير ذلك من الأعمال المحدودة.

٣ ـ وما نعرفه بالنظر والاختبار عن حال الحيوان والنبات والجماد، فإنّها بين أن يكون لا علم له ولا عمل كالجماد، أو يكون له عمل معين يختص به نفسه دون أن يكون له علم وإرادة، ولو فرض أنّ له علماً أو إرادة فهما لا أثر لهما في جعل عملهما مبيّناً لحكم الله وسنته في الخلق، ولا وسيلة لبيان أحكامه وتنفيذها.

فكل حي من الأحياء المحسوسة والغيبية ـ عدا الإنسان ـ له استعداد محدود وعلم إلهامي محدود، وما كان كذلك لا يصلح أن يكون خليفة عن الذي لا حد لعلمه وإرادته.

وأمّا الإنسان فقد خلقه الله ضعيفاً وجاهلاً، ولكنّه على ضعفه وجهله فهو يتصرف في الموجودات القوية، ويعلم جميع الأسماء بما وهبه الله من قدرة على النمو والتطور التدريجي في إحساسه ومشاعره وإدراكه، فتكون له السلطة على هذه الكائنات يسخرها ثم يذللها بعد ذلك كما تشاء قوته الغريبة التي يسمونها

العقل، ولا يعرفون حقيقتها ولا يدركون كنهها، فهذه القوة نجدها تغني الإنسان عن كل ما وهب الله للحيوان في أصل الفطرة والإلهام من الكساء والغذاء والأعضاء والقوة، فالإنسان بهذه القوة غير محدود الاستعداد، ولا محدود الرغائب، ولا محدود العلم، ولا محدود العمل، وكما أعطاه الله سبحانه وتعالى هذه المواهب أعطاه أحكاماً وشرائع حدد فيها أعماله وأخلاقه، وهي في الوقت نفسه تساعده على بلوغ كماله؛ لأنّها مرشد للعقل الذي كان له كل تلك المزايا.

وبهذا كله استحق الإنسان خلافة الله في الأرض، وهو خلق المخلوقات بها، ونحن نشاهد في عصرنا آثار هذه الخلافة بما فعله الإنسان من تطوير وسيطرة وتصرف في الكون.

وحين أودع الله في فطرة آدم علم الأشياء من غير تحديد عرض الأشياء على الملائكة وأطلعهم عليها اطلاعاً إجمالياً، ثم طالبهم بمعرفتها والإنباء بها وإذا بهم يظهرون التسليم والخضوع والعجز والاعتراف، وعند ذلك أمر الله آدم أن ينبأهم بالأشياء ففعل، وذلك لتتكشف لهم الحقيقة بأوضح صورها وأشكالها.

الصورة الثانية: فهي التي عرضها العلاّمة الطباطبائي، وهي تختلف عن الصورة السابقة في بعض الجوانب، ونحن نقتصر على ذكر جوانب الخلاف التي سبق أن أشرنا إلى بعضها:

١ ـ إنّ خليفة الله موجود مادي مركب من القوى الغضبية والشهوية، والدار دار تزاحم محدودة الجهات وافرة المزاحمات، لا يمكن أن تتم فيها الحياة إلاّ بإيجاد العلاقات الاجتماعية، وما يستتبعها من تصادم وتضاد في المصالح والرغبات، الأمر الذي يؤدي إلى الفساد وسفك الدماء.

٢ ـ إنّ الملائكة حين تعجبوا كانوا يرون أنّ الغاية من جعل الخلافة هي: أن يحكي الخليفة مستخلَفه بتسبيحه بحمده وتقديسه له بوجوده، والأرضية أي:

الانـتماء إلى الأرض وشـهواتها لا تدعـه يفعل ذلك، بل تجره إلى الفساد والشر، والغاية من هذا الجعل يمكن أن تتحقق بتسبيحهم بحمد الله وتقديسهم له.

٣ ـ إنّ آدم اسـتحقّ الخلافة؛ لقدرته على تحمل السر الذي هو: عبارة عن تعـلم الأسماء التي هي: أشياء حية عاقلة محجوبة تحت حجاب الغيب محفوظة عند الله. وقـد أنـزل الله كلّ اسم في العالم بخيرها وبركتها، واشتق كلّ ما في السماوات والأرض مـن نورهـا وبهائهـا، وإنّهـم عـلى كـثرتهم وتعددهم لا يتعددون تعدد الأفراد، وإنّما يتكاثرون بالمراتب والدرجات.

الموازنة بين الصورتين

ويحسـن بـنا أن نـوازن بين الصورتين؛ لنخرج بالصورة الكاملة التي نراها صـحيحة لتصـوير هـذا المقطـع القـرآني، ولـنأخذ النقاط الثلاث التي خالف فيها العلاّمة الطباطبائي الشيخ محمّد عبدة:

ففـي الـنقطة الأولى: قد نجد العلاّمة الطباطبائي على جانب من الحقّ، كما نجـد الشيخ محمّد عبدة على جانب آخر منه؛ لأنّ العلاّمة الطباطبائي أكّد ما فطر علـيه الإنســان من غرائز وعواطف مختلفة، وهذا شيءٌ صحيح لما لهذه الغرائز من تـأثير كـبير في حصـول التزاحم والتنافس في المجتمع الإنساني، الأمر الذي يؤدي إلى الفســاد وسـفك الدمـاء، وأسـاس هذه الغرائز غريزة حبّ الذات التي جاءت الأديـان السماوية ـ ومنها الإسلام ـ من أجل توجيهها توجيهاً صالحاً يدفعها إلى تجنب الفساد والسفك للدماء؛ ولذلك نجد القرآن الكريم يؤكّد دور الهوى في الفساد وسفك الدماء.

والشـيخ محمّـد عـبدة حـين يغفـل هذا الجانب ـ في مسألة معرفة الملائكة للفساد وسفك الدماء ـ يؤكّد جانباً آخر لـه دور كبير ـ أيضاً ـ في الفساد وسفك الدمـاء، وهو: الإرادة المطلقة والمعرفة الناقصة، فلولا هذه الإرادة ولولا النقص في

العلم لما كان السفك والفساد.

وعلى هذا الأساس يمكن أن نعتبر كلا الجانبين مؤثراً في معرفة الملائكة لنتيجة هذا الخليفة.

وفي النقطة الثانية: نجد الشيخ محمّد عبدة يحاول أنْ يذكر أنّ الشيء الذي أثار السؤال لدى الملائكة هو: قضية أنّ هذا المخلوق المريد ذا العلم الناقص لابدّ أن يكون مفسداً في الأرض وسافكاً للدماء، ومن ثمّ لا مبرر لجعله خليفة مع ترتب هذه الآثار على وجوده.

وأمّا العلاّمة الطباطبائي فهو يحاول أنْ يذكر أنّ الشيء الذي أثار السؤال هو: أنّ الخليفة لابدّ أن يكون حاكياً للمستخلَف (الله) بخلاف الملائكة؛ إذ يمكن أن يحكوا المستخلَف من خلال تسبيحهم وحمدهم.

وفي هذه النقطة قد يكون الحقّ إلى جانب العلاّمة الطباطبائي؛ لأنّ التفسير الإلهي لهذه الخلافة كان من خلال بيان امتياز هذا الخليفة بالعلم، كما قد يفهم من الآية، وأشار إليه الشيخ محمّد عبدة، مع أنّ هذا التفسير لا ينسجم مع النقطة التي ذكرها الشيخ عبدة؛ لأنّه افترض في أصل إثارة السؤال وجود العلم الناقص إلى جانب الإرادة، فكيف يكون هذا العلم ـ بالشكل الذي ذكره الشيخ محمّد عبدة، وهو علم ناقص على أي حال ـ جواباً لهذا السؤال؟.

نعم، لو افترضنا أنّ العلم الذي علّمه الله سبحانه وتعالى لآدم هو الرسالات الإلهية الهادية للصلاح والرشاد والحقّ والكمال ـ كما أشار الشيخ محمّد عبدة إلى ذلك في النقطة الثالثة ـ فقد يكون جواباً لسؤال الملائكة؛ لأنّ مثل هذا العلم يمكن أن يصلح شأن الإرادة والاختيار الذي أثار المخاوف، ولكن هذا خلال الظاهر؛ إذ يفهم من ذيل هذا المقطع الشريف: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلا

خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[1] أنّ هذا الهدى الذي هو الرسالات الإلهية الهادية جاء بعد هذا التعليم لآدم.

وأمّا لو افترضنا أنّ الذي أثار السؤال لدى الملائكة هو الإرادة والاختيار فقط ـ كما اختاره أستاذنا الشهيد الصدر قدس سره ـ أصبح بيان الامتياز بالعلم والمعرفة جواباً للسؤال، وتهدئة للمخاوف التي اثارت لدى الملائكة؛ لأنّ هذا العلم يهدي إلى الله تعالى، ويتمكن هذا الإنسان بفطرته من أن يسير في طريق التكامل.

وأمّا العلاّمة الطباطبائي فقد اعتبر الانتماء إلى الأرض والتزاحم بين المصالح فيها هو الذي يؤدي إلى الفساد، ويكون العلم بالأسماء طريقاً وعلاجاً لتجنب هذه الأخطار؛ لأنّ الأسماء بنظره موجودات عاقلة حيّة.

وفي النقطة الثالثة: يفترض الشيخ محمّد عبدة أنّ العلم هو الذي جعل الإنسان مستحقاً للخلافة، وهذا العلم ذو بعدين:

أحدهما: العلوم الطبيعية التي يمكن للإنسان أنْ يحصل عليها من خلال التجارب والبحث، والتي يتمكن بواسطتها من الهيمنة على العالم المادي الذي يعيش فيه، كما نشاهد ذلك في التأريخ وفي عصرنا الحاضر بشكل خاص.

والآخر: العلم الإلهي المنزل من خلال الشريعة، والذي يمكن للإنسان من خلاله أن يعرف طريقه إلى الكمالات الإلهية، ويشخص المصالح والمفاسد والخير والشر.

وهذا التصور ينسجم مع إطلاق كلمة العلم في الآية الكريمة، ومع فرضية أنّ الجواب الإلهي للملائكة إنّما هو تفسير لجعل الإنسان خليفة؛ لأنّ الجواب ذكر خصوصية العلم كامتياز لآدم على الملائكة.

---

(١) البقرة: ٣٨.

كمـا ينسـجم هذا التصور مع ما أكّده القرآن الكريم في مواضع متعدّدة من دور العقـل ومدركاته في حياة الإنسان ومسيرته وتسخير الطبيعة له، وكذلك دور الشريعة في تكامل الإنسان ووصوله إلى أهدافه.

ولكـن هـذا التصور نلاحظ عليه ـ ما ذكرنا ـ من أنّ الشريعة قد افترض نـزولها في هـذا المقطع الشريف بعد هذا الحوار: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدىً فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[1].

كمـا أنّ الظاهـر أنّ الإرادة والاختـيار يمـثلان ميزة أخرى لآدم والإنسان بشـكل عـام على الملائكة، وأنّ هذه الخصوصية هي التي أثارت مخاوف الملائكة وسؤالهم، كما نبهنا عليه وأشار إليه الشيخ محمّد عبدة.

وبذلك يكون استحقاق آدم للخلافة وجود هاتين الخصوصيتين فيه.

وأمّـا العلاّمـة الطباطبائي فهو افترض أنّ هذا الاستحقاق إنّما كان باعتبار العـلم بالأسماء، ولكنّه فسر الأسماء بأنّها موجودات عاقلة لها مراتب من الوجود، ويمكن من خلال العلم بها أن يسير الإنسان في طريق التكامل.

ولكن هذا التفسير فيه شيءٌ من الغموض، ولعلّه يعتمد على بعض المذاهب الفلسـفية التي تؤمن بوجود العقول التي هي واسطة في العلم والخلق والتكامل بين الله سبحانه وتعالى والوجود ومنه الإنسان.

نعـم، هـناك فرضية تشير إليها بعض الروايات المروية عن أهل البيت عليهم السلام وهي: أنّ الأسماء عبارة عن أسماء العناصر والذوات الإنسانية الموجودة في سلسلة امـتداد الجـنس البشري من الأنبياء والربانيين والأحبار الذين جعلهم الله سبحانه

---

(١) البقرة: ٣٨.

وتعـالى شهوداً على البشرية والإنسانية، واستحفظهم الله سبحانه وتعالى على كتبه ورسـالاته[1]، ويكـون وجود هذا الخط الإنساني الإلهي الكامل هو الضمان الذي أعدّه الله سبحانه وتعالى لهداية البشرية والسيطرة على الهوى، وتوجيه الإرادة نحو الخير والصلاح والكمال.

ويكـون العلم بهذه الأسماء معناه: تحقق وجودها في الخارج باعتبار مطابقة العلم للمعلوم، وتعليم آدم الأسماء إنّما هو إخباره بوجودها.

أو يكـون العلم بالأسماء معناه: معرفة هذه الكمالات التي يتصف بها هؤلاء المخلوقـون، وهـي صـفات وكمـالات تمثل نفحة من الصفات والكمالات الإلهية، خصوصـاً إذا أخذنـا بـنظر الاعتـبار أنّ كـلمة (الأسماء) في القرآن تطلق على الصفات الإلهية بنحو من الإطلاق.

والظاهر أنّ هذه الفرضية هي التي ذهب إليها استاذنا الشهيد الصدر قدس سره.

مسيرة الاستخلاف

وهـي: مسـيرة تحقـق الخلافـة في الأرض، فـيقع الكـلام فيه ـ أيضاً ـ في جانبين:

الأول: تشـخيص مجموعـة مـن المفاهيم والتصورات التي وردت في القرآن الكريم حول هذه المسيرة.

الثاني: بيان الصورة النظرية الكاملة حول هذه المسيرة.

---

(١) ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِن كِتَابِ اللهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ...﴾ المائدة: ٤٤.

الجانب الأوّل: المفاهيم والتصوّرات

السجود لآدم

في البداية يواجهنا السؤال عن الأمر الإلهي للملائكة في السجود لآدم؛ إذ إنّه في الشريعة المقدسة يحرم السجود لغير الله تعالى، فكيف صحّ أن يطلب من الملائكة السجود لآدم؟ وما هو المقصود من هذا السجود؟

وهذا السؤال ينطلق من فكرة: أنّ السجود بحدّ ذاته عبادة، والعبادة لغير الله شرك وحرام؛ إذ تقسم الأفعال العبادية إلى قسمين:

أحدهما: الأفعال التي تتقوم عباديتها بالنية وقصد القربة، كالإنفاق ـ الزكاة والخمس ـ أو الطواف بالبيت الحرام أو القتال أو غير ذلك، فإنّ هذه الأفعال إذا توفرت فيها نية القربة وقصد رضا الله سبحانه وتعالى تكون عبادة لله تعالى، وبدون ذلك لا تكون عبادة، ومن ثمّ فهي تتبع نيتها في تشخيص طبيعتها.

والآخر: الأفعال التي تكون بذاتها عبادة، ويذكر السجود منها؛ لأنّه عبادة بذاته، ولذا يحرم السجود لغير الله؛ لأنّه يكون بذاته عبادة لغير الله.

ولكن هذا التصور غير صحيح: فإنّ السجود شأنه شأن الأفعال الأخرى التي تتقوم عباديتها بالقصد والنية، ولذا فقد يكون السجود سخرية واستهزاء، وقد يكون لمجرد التعظيم، وقد يكون عبادة إذا كان بنيتها؛ ولذا نجد في القرآن الكريم في بعض الموارد الصحيحة يستخدم السجود تعبيراً عن التعظيم كما في قصّة إخوة يوسف، قال تعالى: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرّوا لَهُ سُجّداً وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقّاً﴾[1].

---

(١) يوسف: ١٠٠.

وإنّما كان السجود لغير الله حراماً؛ لأنّه يستخدم عادة في العبادة، فأُريد للإنسان المسلم أن يتنزه عمّا يوهم العبادة لغير الله تعالى؛ وأمّا إذا كان السجود للتعظيم وبأمر من الله تعالى، فلا يكون حراماً، بل يكون واجباً.

ولكن يبقى السؤال: ماذا كان يعني هذا السجود ؟

فقد ذكر بعض المفسرين ـ إنطلاقاً من فكرة أنّ هذا الحديث لا يراد منه إلاّ التربية والتمثيل، وليس المصاديق المادية لمفرداته ومعانيه ـ أنّ السجود المطلوب إنّما هو: خضوع هذه القوى المتمثلة بالملائكة للإنسان؛ لأنّ الله سبحانه وتعالى أودع في شخصية هذا الإنسان وطبيعته من المواهب ما تخضع له هذه القوى الغيبية، وتتأثر بفعله وإرادته: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلاَئِكَةُ أَلاَّ تَخَافُوا وَلاَ تَحْزَنُوا﴾[١].

كما أنّه يمكن أن يكون هذا السجود سجوداً حقيقياً بالشكل الذي يتناسب مع الملائكة، ويكون طلب السجود منهم لآدم من أجل أن يعبّروا بهذا السجود عن خضوعهم أو تقديسهم لهذا المخلوق الإلهي المتميز، بما أودع الله فيه من روحه، ووهبه العلم والإرادة والقدرة على التكامل والصعود إلى الدرجات الكمالية العالية.

ولعلّ المعنى الثاني هو الظاهر من مجموعة السور والآيات القرآنية التي تحدّثت عن هذا الموضوع؛ إذ نلاحظ أنّ امتناع إبليس عن السجود إنّما كان بسبب الاستكبار لتفضيل هذا المخلوق؛ لأنّه كان يطرح في تفسير عدم السجود أنّه أفضل من آدم: ﴿قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾[٢]، كما أنّ

(١) فصلت: ٣٠.

(٢) الأعراف: ١٢.

القـرآن الكـريم يشـير إلى أنّ الإنســان الصـالح المخلص يكون خارجاً عن قدرة إبلـيس ومكـره، ومـن ثمّ فهـو مهـيمن على هذه القوة الشيطانية: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْـمُخْلَصِينَ﴾[1].

إبليس من الملائكة أم لا؟

وهـناك سؤال آخر عن حقيقة إبليس، هل إنّه من الملائكة أو الجن، حيث ورد في القـرآن الكـريم وصـفه بكلا هذين العنوانين، فاذا كان من الملائكة فكيف يعصـي الله تعـالى، وقـد وصـف الله تعـالى الملائكة بأنهم: ﴿عِبَادٌ مُكْرَمُونَ﴾[2] لا يخـالفون و ﴿لا يَعْصُـونَ الله مَا أَمَرَهُمْ﴾[3]، وهم بأمره يعملون، وإذا كان من الجن فلماذا وُضع إلى جانب الملائكة في هذه القصّة؟

وتذكـر عـادة للاسـتدلال عـلى أنّ ابلـيس من الجن وليس من الملائكة، ويختلف عن طبيعة الملائكة عدّةُ شواهد، إضافة إلى وصف القرآن الكريم له بذلك:

منها: أنّ أوصاف الملائكة لا تنطبق على ابليس؛ لأنّهم وُصفوا بالطاعة وقد تمرد إبليس.

ومـنها: إن الملائكة وصفوا بأنهم رسل: ﴿جَاعِلِ الْمَلائِكَةِ رُسُلاً أُوْلِي أَجْنِحَةٍ مَثْنَى وَثُلاثَ وَرُبَاعَ﴾[4].

ومـنها: أنّ الملائكـة لا ذريـة لهـم؛ إذ لا يتناسـلون ولا شـهوة لهم، وأمّا

---

(١) ص: ٨٢ ـ ٨٣.

(٢) الأنبياء: ٢٦.

(٣) التحريم: ٦.

(٤) فاطر: ١.

إبلـيس فلـه ذريـة كمـا أشار القرآن الكريم إلى ذلك: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاء مِن دُونِي﴾[1].

ولكـن هـذه الشـواهد لا تكفي في عدِّ إبليس من الجن في مقابل الملائكة؛ وذلـك لأنّ وصف القرآن الكريم لإبليس بأنّه من الجن يمكن أن يكون من ناحية أنّ بعـض الملائكـة يوصف بأنّه جن، إن لم يكن هذا الوصف عاماً لهم؛ لأنّ الجن مأخوذ من الخفاء والستر، والملائكة مستورون عن عوالمنا ومشاهدنا.

كمـا نلاحـظ هذا الوصف في نسبة الملائكة إلى الله تعالى عند المشركين؛ إذ افترضـوا أنّ الملائكـة هم بنات الله ـ على ما ورد في القرآن الكريم ـ وفي الوقت نفسـه يصـف القـرآن الكريم هؤلاء الملائكة بأنهم جنة: ﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَباً﴾[2].

كمـا أنّ الطاعـة ليسـت صفة لازمة لعنوان الملائكة، بل نلاحظ في القرآن الكريم حصول التمرد لدى بعض الملائكة، كما في الملكين هاروت وماروت[3].

وكذلـك موضـوع الذريـة فإنّهـا يمكـن أن تكـون مـن الخصوصيات التي اختص بها إبليس؛ ليقوم بهذا الدور الخاص له في حياة الإنسان.

نعم، يوجد في بعض الروايات ما يشير إلى أنّ إبليس كان من الجن وليس مـن الملائكـة، وإنّمـا كان يعاشرهم، وأنّهم كانوا يظنون أنّه منهم، ولكن لا يمكن الاعتماد على مثل هذه الروايات.

---

(١) الكهف: ٥٠.

(٢) الصافات: ١٥٨.

(٣) البقرة: ١٠٢.

هل خلق آدم للجنّة أم للأرض؟

وهـناك سـؤال آخـر، وهـو: هل خُلق آدم للأرض كما يبدو ذلك في أول المقطع الشريف: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبّكَ لِلمَلاَئِكَةِ إِنّي جَاعِلٌ فِي الأرض خَلِيفَة﴾[1]، أو أنّه مخلـوق للجـنة، وبعـد العصـيان طرد للأرض، كما يفهم ذلك من القسم الثاني من المقطـع الشريف: ﴿وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنّةَ وكُلاَ مِنْهَا رَغَداً حَيْثُ شِئْتُما ولاَ تَقْرَبَا هَذِهِ الشّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنْ الظّالِمِينَ﴾[2]؟

وقد حاول بعض الملحدين أن يثير الشبهات حول هذا الموضوع بدعوى أنّ هـذا المقطع القرآني يبدو وكأن إدخال آدم للجنة والتوبة عن فعله إنّما هما عملية شكلية وصورية؛ لطرده منها وإنزاله إلى الأرض.

ولكن الجواب عن السؤال واضح، وهو: أنّ آدم إنّما خُلق للأرض وخلافة الله فـيها، وكـان وجـوده في الجـنة مرحلة متقدّمة ـ تأهيلية ـ تؤهله للقيام بدور الخلافـة؛ إذ لم يكـن من الممكن لآدم أن يقوم بهذا الدور بدون هذا التأهيل والتجربة التي خاضها في الجنة، على ما سوف نوضح هذا الأمر في بيان الجانب الآخر.

عـلى أنّ هـذه الجـنة يمكـن أن تكون جنة أرضية وليست جنة الخلد؛ إذ لا يوجـد دليل على أنّها جنة الخلد، وكان هبوطه وإخراجه منها يعني بداية دور تحمّل المسؤولية والتعب والجهد من أجل الحياة واستمرارها، فهو منذ البداية كان على الأرض، ولكـن في مكان منها لا تعب ولا عناء فيه، وقد تهيأت لـه جميع أسباب العيش والـراحة والاسـتقرار، وبعد المعصية بدأت حياة جديدة تختلف عن الحياة السابقة في خصوصياتها ومواصفاتها وإن كانت على الأرض أيضاً.

---

(١) البقرة: ٣٠.

(٢) البقرة: ٣٥.

وبذلـك يمكـن أن نجيـب عـن سؤال آخر، هو: أنّه كيف تسنى لإبليس أن يغوي آدم في الجنة مع أنّ دخولها محرّم على إبليس؟

إذ يمكن أن تكون هذه الجنة أرضية ولم يمنع من دخولها، ولعلّ ضمير الجمع في قولـه تعالى: ﴿ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾[١] يشير إلى ذلك.

عـلى أنّ عملية الإغواء يمكن أن تكون من خلال وجوده في خارج الجنة؛ لأنّ الخطاب بين أهل الجنة وغيرهم ممّن هو في خارج الجنة ميسور، كما دل على ذلـك القـرآن الكـريم في خطـاب أهل الجنة وأهل النار: ﴿ وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللهُ قَالُوا إِنَّ اللهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾[٢].

وفي خطـاب أصـحاب الجـنة لأصـحاب الـنار: ﴿ وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقّاً فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقّاً قَالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴾[٣].

خطيئة آدم

والسـؤال الآخـر هو عن خطيئة آدم وغوايته وعصيانه: ﴿وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى﴾[٤].

إذ دلـت بعض الروايات على أنّ آدم كان نبياً، وإن لم يُذكر ذلك في القرآن

---

(١) البقرة: ٣٦.

(٢) الأعراف: ٥٠.

(٣) الأعراف ٤٤.

(٤) طـه: ١٢١.

الكريم، والأنبياء معصومون من الذنب والزلل والغواية منذ بداية حياتهم.

ومع غض النظر عن الشك والمناقشة في صحة هذه الفرضيات: (فرضية أن يكون آدم نبياً) و(فرضية أن يكون الأنبياء معصومين من الذنب منذ بداية حياتهم)، يمكن أن نفسر جدّية هذه المخالفة والعصيان على أساس اتجاهين:

الاتجاه الأوّل: أن يكون النهي الإلهي هنا هو نهي إرشادي[1] أُريد منه الإرشاد إلى المفاسد الموجودة في أكل الشجرة، وليس نهياً مولوياً يراد منه التحريك والطلب الجدي، والمعصية المستحيلة على الأنبياء التي توجب العقاب هي في الأوامر المولوية وليست الإرشادية.

الاتجاه الثاني: أن يكون النهي الإلهي هنا نهياً مولوياً ـ كما هو الظاهر ـ وحينئذ فيفترض أنّ الأنبياء معصومون من الذنوب المتعلقة بالأوامر والنواهي التي يشتركون فيها مع الناس، وأمّا الأوامر والنواهي الخاصة بهم فلا يمتنع عليهم صدور الذنب بعصيانها، وليسوا معصومين تجاهها، والنهي الذي صدر لآدم إنّما هو خاص به، ولذا لم يحرم أكل الشجرة على ذريته من بعده.

---

(١) تقسم الأوامر والنواهي في الشريعة إلى قسمين: مولوي وإرشادي. والمراد من (المولوي): ما يصدر من المولى باعتباره مولى له حق الطاعة، ويكون فيه إرادة جديدة للطلب والتحرك نحو المطلوب أو الزجر عن المنهي عنه، كما في أوامر الصلاة والزكاة والجهاد والحج والنهي عن شرب الخمر والزنا والسرقة. و (الإرشادي): هو الذي يكون للإرشاد إلى المصلحة أو المفسدة، كما في الأوامر والنواهي في موارد المعاملات غالباً، حيث يكون إرشاداً لبطلان المعاملة أو صحتها، أو كما في أوامر الأطباء والمهندسين والعلماء التجريبين، فإنّهم لا يستحقون الطاعة بما هم سادة، وأولو الأمر والولاية، بل لأنّ متعلقات أوامرهم ونواهيهم فيها مصالح ومفاسد، فعندما يأمر بشرب الدواء فهذا يعني: أنّ شرب الدواء فيه مصلحة، وكذا عندما ينهى عن أكل شيء فإنّه يعني: أنّ أكله فيه ضرر ومفسدة.

ومـن هنا نجد القرآن الكريم ينسب الظلم والذنب ـ أحياناً ـ لبعض الأنبياء باعتبار هذه الأوامر الخاصة، كما حصل لموسى عليه السلام: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾[1]. مع أنّ قتل الفرعوني الظالم الكافر ليس ذنباً وحراماً على الناس بشكل عام، وإنّما كان حراماً على موسى لخصوصية في وضعه؛ ومـن هـنا ورد أنّ «حسنات الأبرار سيئات المقربين» باعتبار أنّ لهم تكاليف خاصة بهم تتناسب مع مستوى الكمالات التي يتصفون بها.

وهـذا التفسير للعصمة أمر عرفي قائم في فهم العقلاء لمراتب الناس، فبعض الأمـور هي من العلماء والفضلاء ذنب يؤاخذون عليه، ولكنّه ليس كذلك بالنسبة إلى العامة من الناس، وبعض الانفاقات القليلة ذنب من الأغنياء يؤاخذون عليها، وليست كذلك بالنسبة إلى الفقراء.

الجانب الثاني: التصور العام لمسيرة الخلافة

وهنا نشير إلى تصورين:

التصـور الأوّل: مـا ذكره العلاّمة الطباطبائي قدس سره في الميزان، حيث يفترض أنّ هـذه المسـيرة بـدأت مـن وضـع آدم وزوجه في الجنة من أجل أن ينتقل إلى الأرض بعد ذلك، وكان لابدّ لـه من التعرض إلى المعصية من أجل أن يتحقّق هذا النزول إلى الأرض؛ إذ لا يمكن أن يحصل على التكامل الإنساني الذي يؤهله لهذه الخلافة ما لم يتعرض إلى المعصية والنزول إلى الأرض بعد ذلك؛ وذلك لأنّ تكامل الإنسان إنّما يحصل من خلال توفر عنصرين وعاملين أساسيين:

---

(١) القصص: ١٦.

أحدهما: شعور الإنسان بالفقر والحاجة والمسكنة والذلة، أو بتعبير آخر شعور الإنسان بالعبودية لله سبحانه وتعالى، الذي يدفعه للحركة والتوجه إلى الله سبحانه وتعالى والمصير إليه.

والآخر: هو عفو الله تعالى ورضوانه ورحمته وتوفيقه لهذا الإنسان، وإمداده بالعطاء والفضل الإلهي.

فشعور الإنسان بالحاجة يجعله يتحرك لسدها، والفضل والعطاء الإلهي هو الذي يحقق الغنى النسبي للإنسان، ويسد النقص والحاجات لدى الإنسان فيتكامل، وإذا لم يشعر الإنسان بالحاجة فلا يسعى إلى الكمال حتى لو كان محتاجاً في واقع الحال، ولو لم يتفضل الله عليه بالعفو والرحمة والعطاء لبقي ناقصاً ومتخلفاً في حركته، وما ذكر في قصّة آدم إنّما يمثل هذين الأمرين معاً.

فلو لم ينزل الإنسان إلى الأرض لما شعر بالحاجة؛ إذ كان يعيش في الجنة يأكل ويشرب بدون تعب أو عناء، فطبيعة هذه الجنة: ﴿إِنَّ لَكَ أَلاَّ تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى * وَأَنَّكَ لا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَى﴾[1].

ولو لم تصدر من آدم المعصية فلا يمكن أن يحصل على تلك الدرجات العالية من الرحمة والمغفرة التي حصل عليها الإنسان في حالات الرجوع والتوبة؛ إذ يفترض العلاّمة الطباطبائي وجود درجات من الرحمة والمغفرة مرهونة بالتوبة والإنابة، قال: « فللّه سبحانه وتعالى صفات من عفو ومغفرة وتوبة وستر وفضل ورأفة ورحمة لا ينالها إلاّ المذنبون... فهذه التوبة هي التي استدعت تشريع الطريق الذي يتوقع سلوكه، وتنظيف المنزل الذي يرجى سكونه، فوراءها تشريع الدين

---

(١) طـه: ١١٨ ـ ١١٩.

وتقويم الملة »[1].

فالقصّة وراءها قضاءان قضاهما الله تعالى في آدم:

القضاء الأوّل: الهبوط والخروج من الجنة والاستقرار على الأرض وحياة الشقاء فيها، وهذا القضاء لازم حتمي لأكل الشجرة حيث بدت سوآتهما، وظهور السوءة لا يناسب حياة الجنة، بل الحياة الأرضية، ومن هنا كان إخراجهما من الجنة بعد العفو عنهما، ولولا ذلك لكان مقتضى العفو هو بقاؤهما في الجنة.

القضاء الثاني: إكرام آدم بالتوبة؛ إذ طيّب الله سبحانه وتعالى بها الحياة الأرضية التي هي شقاءٌ وعناءٌ، وبها ترتبت الهداية إلى العبودية الحقيقية. فتألفت الحياة من حياة أرضية وحياة سماوية[2].

فنزول آدم إلى الأرض وإن كان فيه ظلم للنفس وشقاء، إلاّ أنّه هيّأ لنفسه بنزوله درجة من السعادة ومنزلة من الكمال ما كان ينالها لو لم ينزل، وكذلك ما كان ينالها لو نزل من غير خطيئة.

التصور الثاني: ما ذكره أستاذنا الشهيد الصدر قدس سره: أنّ الله سبحانه وتعالى قدّر لآدم ـ الذي يمثل أصل الجنس البشري ـ أن يمرّ بدور الحضانة التي يمرّ بها كلّ طفل؛ ليتعلم الحياة وتجاربها، فكانت هذه الجنة الأرضية التي وجدت من أجل تربية الإحساس الخلقي لدى الإنسان والشعور بالمسؤولية وتعميقه من خلال امتحانه بما يوحيه إليه من تكاليف وأوامر.

وقد كان النهي عن تناول الشجرة هو أوّل تكليف يوجه إلى هذا الخليفة؛ ليتحكم في نزواته وشهواته، فيتكامل بذلك، ولا ينساق مع غريزة الحرص وشهوة

---

(١) تفسير الميزان ١: ١٣٤.

(٢) تفسير الميزان ١: ١٣٤.

حب الدنيا التي كانت الأساس لكلّ ما يشهده مسرح التأريخ الإنساني من ألوان الاستغلال والصراع.

وقد كانت المعصية التي ارتكبها آدم هي العامل الذي يولد في نفسه الإحساس بالمسؤولية من خلال مشاعر الندم، فتكامل وعيه بهذا الإحساس، في الوقت الذي كانت قد نضجت لديه خبرات الحياة من خلال وجوده في الجنة.

وكان الهدى الإلهي يتمثل بخط الشهادة، وهو الوحي الإلهي الذي يتحمل مسؤوليته الأنبياء لهداية البشرية.

وبذلك تتكامل المسيرة البشرية، ويتطور الإنسان، ويسمو على المخلوقات من خلال التعليم الرباني والهدى الإلهي الذي يجسده شهيد رباني معصوم من الذنب يحمله إلى الناس من أجل تحصينهم من الضلال: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدىً فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[1].

ويمكن أن نشير في نهاية هذا العرض لهذين التصورين إلى عدّة ملاحظات:

الملاحظة الأولى: أنه يمكن تكميل الصورة: بأنّ الإسكان في الجنة في الوقت الذي يمثل مرحلة الإعداد والتهيؤ يعبر في الوقت نفسه عن هدف إلهي، وهو: أنّ مقتضى الرحمة الإلهية بالإنسان أن يعيش حياة الاستقرار والسعادة بعيداً عن الشقاء، وأنّ مسيرة الشقاء إنّما هي اختيار الإنسان؛ ولذا بدأ الله سبحانه وتعالى حياة الإنسان بالجنة، وشمله برحمته الواسعة من خلال التوبة والسداد الإلهي بالهدى الذي أنزله على الأنبياء.

كما أنّ الخطيئة هي التي فجّرت في الإنسان ـ إضافة إلى إحساسه بالمسؤولية ـ إدراكه للحسن والقبح والخير والشر، ولعلّ هذا هو الذي أشار إليه

---

(١) البقرة: ٣٨.

القـرآن الكـريم بقولـه تعالى: ﴿فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ﴾[1].

وكان هذا الإدراك ضرورياً للإنسان من أجل أن يكون قادراً على مواجهة مشـكلات الحـياة، وألوان الصراع فيها، وتمييز الحقّ من الباطل، والخير من الشر، والمصلحة من المضرة، ويخلق فيه حالة التوازن الروحي والنفسي في مقابل ضغوط الشهوات والغرائز.

وقـد كـان مـن الممكن أن يحصل هذا الإدراك من خلال الحضانة الطويلة والتجربة الذاتية في حياته في الجنة، ولعل هذا هو الهدف من وضعه في الجنة؛ ليمرّ بهـذه الحضـانة الطويلة، كما يحصل للإنسان في تجاربه في الطفولة؛ إذ تنمو فيه هذه المعرفة تدريجياً، ولكن كان هناك طريق أقصر محفوف بالمخاطر وبالخطيئة والذنب.

ولم يكـن الله سـبحانه وتعـالى ليخـتار للإنسان طريق الخطيئة بالرغم من قصـره؛ لأنّـه طريق خطير، ولكن عندما اختار الإنسان ذلك، وأصبح يدرك هذه الحقائق صار مؤهلاً للبدء في الحياة الدنيا.

وقـد فـتح الله سـبحانه وتعـالى أمامـه باب التوبة والرجوع إليه، ليتمكن الإنسان من مواصلة طريقه عندما يضعف ويقع في الخطيئة، وبذلك يتكامل عندما يكون قادراً على التغلب على شهواته والسيطرة على رغباته.

الملاحظـة الثانـية: إنّ العلاّمـة الطباطبائي لم يوضح دور الخطيئة في معرفة السـوءات، كمـا لم يوضـح عدم انسجام السـوءات مع حياة الجنة، ولعلّه يريد من دور الخطيـئة في معـرفة السـوءات ما أشرنا إليه من دورها في الإحساس الخلقي للإنسـان في إدراكـه للحسـن والقـبح، وكذلك لأنّ حياة الجنة يراها حياة طاهرة

---

(١) طـه: ١٢١.

ونظيفة لا تنسجم مع السوءات، وهو معنى عرفاني حيث لم يشر القرآن الكريم إلى أنّ آدم عليه السلام لم تكن لديه سوءة قبل الخطيئة، أو أنّها وجدت بعد الخطيئة، وإنّما أشار إلى أنّ إدراكه للسوءة إنّما كان بعد الخطيئة والذنب.

الملاحظة الثالثة: إنّ الشهيد الصدر قدس سره لم يذكر في تكوّن مسار الخلافة على الأرض دور التوبة في هذا المسار، مع أنّ التوبة لها دور أساس يمكن من خلاله أن يستأنف الإنسان عمله وتجربته في هذه الحياة، ويصعد بسببها في مدارج الكمال.

الملاحظة الرابعة: إنّ الكمالات الإنسانية يمكن أن نتصورها بدون خطيئة، ويتكامل فيها الإنسان من خلال الطاعة والإحساس بالعبودية لله سبحانه وتعالى، إلاّ إذا كان مقصوده من الخطيئة ليس مجرد المخالفة، وإنّما إحساس الإنسان بالحاجة والتقصير في حق الله تعالى وشكره لنعمه، الأمر الذي يدفعه إلى الاستزادة من الأعمال الصالحة والرجوع إلى الله تعالى والإنابة إليه.

الملاحظة الخامسة: أنّ العلاّمة الطباطبائي قدس سره تصوّر أنّ الجنة سماوية، والشهيد الصدر قدس سره تصوّرها أرضية[١]، والتصور الثاني في الوقت الذي ينسجم مع بعض الروايات، يتوافق ـ أيضاً ـ مع فرضية خلق الإنسان للأرض، والله سبحانه أعلم.

---

(١) الإسلام يقود الحياة: ١٥٢ ـ ١٥٣.



القسم الثاني

أنبياء أُولي العزم الأربعة

الفصل الأول: نوح عليه السلام

الفصل الثاني: إبراهيم عليه السلام

الفصل الثالث: موسى عليه السلام

الفصل الرابع: عيسى عليه السلام


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی



الفصل الأول

قصة نوح عليه السلام في القرآن


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

نوح وقصّته

نـوح عليه السلام هو النبي الثالث ممّـن ذكروا من الأنبياء في القرآن بعد آدم عليه السلام، وجدّه الأكبر إدريس[1]، وهو أوّل الرسل من أولي العزم[2]، وهم: نوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى، ومحمّد (صلى اللّه عليه وعليهم وعلى آله أجمعين).

وقـد جاءت قصّته في التوراة مختلفة عمّـا جاءت في القرآن الكريم، كما أنّه يوجد اختلاف بين نسخها المترجمة عن العبرية والسامرية واليونانية.

وقـد ورد ذكر نوح في القرآن الكريم في ثلاثة وأربعين مورداً[3]، كما أنّه وردت قصّـته بشـيء من التفصيل في كلّ من سور: (الأعراف، وهود، والمؤمنون، والشعراء، والصـافات، والقمـر، ونـوح) مـع إشارة للقصّة في سور أخرى، وهي مختلفة في الطـول والقصـر، كمـا أنّها مختلفة في اللفظ والهدف بحسب الغرض والسياق الذي جاءت فيه القصّة، ولكن أكثرها تفصيلاً وشرحاً لقصّته ما ورد منها في سورة هود.

وتتلخص قصّة نوح في القرآن الكريم بالأمور التالية:

---

(١) بناءً على أنّ آدم من الأنبياء كما تشير إليه بعض النصوص، وإلاّ فهو النبي الثاني.

(٢) فقد ورد في أحاديث أهل البيت وأحاديث الجمهور ما يؤكد ذلك، وقد استدل لذلك بمجموعة من الآيات منها قوله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِن الدينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحاً وَالَّذِي أَوْحَينَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى﴾ الشورى: ١٣. منه قدس سره.

(٣) يمكن التعرف عليها من مراجعة المعجم المفهرس.

قوم نوح عليه السلام

لقد أشار القرآن الكريم إلى الأبعاد العقائدية والأخلاقية والسياسية والاجتماعية التي كان يتصف بها قوم نوح:

أ ـ فمن الناحية العقائدية عكفوا على عبادة غير الله، واتخذوا لهم أصناماً يعبدونها، وقد أشار القرآن الكريم إلى بعض أسماء هذه الأصنام، وهي: (ودّ، وسواع، ويغوث، ويعوق، ونسرا): ﴿وَقَالُوا لاَ تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلاَ تَذَرُنَّ وَدّاً وَلاَ سُوَاعاً وَلاَ يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْراً﴾[1].

وتذكر بعض الروايات[2] أنّ هذه الأسماء كانت لرجال صالحين، اتخذ الناس لهم تماثيل؛ لتمجيدهم وإحياء ذكراهم، ثم تحول الناس لعبادتهم بعد ذلك.

ب ـ ومن الناحية الأخلاقية اتصفوا بسوء الأخلاق من الجهل والعناد والمكر الكبير والكبر وازدراء الفقراء والضعفاء.

ج ـ ومن الناحية السياسية كانوا يتبعون سادتهم من أهل القدرة والقوة ممّن كثر ماله وولده: ﴿قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلاَّ خَسَاراً﴾[3].

وكان هؤلاء السادة ـ ملأ من قومه ـ يستضعفون الفقراء ويستكبرون في الأرض.

د ـ ومن الناحية الاجتماعية والسلوكية كانوا يرتكبون الآثام والخطايا ويمارسون أنواع الظلم والفساد والطغيان: ﴿مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَاراً فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللهِ أَنْصَاراً * وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لاَ تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنْ

---

(١) نوح: ٢٣.

(٢) بحار الأنوار٣: ٢٥٠-٢٦٠.

(٣) نوح: ٢١.

الْكَافِرِينَ دَيَّاراً * إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلاَ يَلِدُوا إِلاَّ فَاجِراً كَفَّاراً * رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِي مُؤْمِناً وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلاَ تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلاَّ تَبَاراً﴾[١].

وقال تعالى: ﴿ولا تجعلوا مَعَ اللّه إلهاً آخر إنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذيرٌ مُبِين﴾[٢].

وقال تعالى: ﴿وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَى﴾[٣].

شخصية نوح عليه السلام

لم يتحدّث القرآن الكريم عن الحياة الشخصية لنوح عليه السلام، أو بعض ما جرى له قبل رسالته ودعوته، كما تحدّث عن إبراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام، ولعلّ السبب في ذلك ـ واللّه أعلم ـ أنّه لا يوجد شيءٌ فيها ممّا يثير الاهتمام بالنسبة إلى الأغراض القرآنية للقصّة، أو أنّ القرآن كان منهجه التفصيل النسبي بالنسبة إلى الأنبياء اللاحقين لوجود أقوام يتبعونهم، ولا زالوا على ديانتهم والانتماء الخاص لهم دون الأنبياء السابقين الذين لا يتصفون بهذه الصفة.

ولكن يمكن أن نستنتج من المحاورة التي جرت بين نوح عليه السلام والملأ من قومه: أنّ نوحاً كان من طبقة الأشراف والملأ منهم؛ ولذلك كانوا يحتجون عليه بمعاشرة الأراذل من الناس، ويطلبون منه أن يطردهم، كما أنّ هذا الانتماء لهذه الطبقة من الناس قد يفسّر لنا العامل الاجتماعي ـ واللّه أعلم ـ في ضلال زوجته وابنه؛ إذ كان قومه يتأثرون بهذه العوامل الاجتماعية.

---

(١) نوح: ٢٦ ـ ٢٨.

(٢) الذاريات: ٥١.

(٣) النجم: ٥٣.

كمـا أنّه يمكن أن نستنتج: أنّه كان على درجة عالية من الشجاعة والإقدام والصبر والتحمل لما توحيه ظروف المحاصرة والعزلة والتكذيب والتهديد له بالقتل، وهـو مـع كـل ذلك يستمر في رسالته دون مللٍ أو كللٍ مع طول المدة، كما سوف نعرف ذلك.

ومـع ذلك لم يترك القرآن الحديث عن شخصية نوح عليه السلام ومواصفاته العامة من خلال النقاط التالية:

١ ـ كـان عليه السلام أوّل أولي العـزم ـ الذيـن هـم سـادة الأنبـياء وأصـحاب الرسـالات الإلهـية العامـة إلى البشـر جميعاً الذين أخذ الله سبحانه وتعالى منهم الميـثاق الغلـيظ ـ ولـذا فشـريعته أوّل الشرائع الإلهية المشتملة على تنظيم الحياة الإنسـانية، وقـد ذكـرنا إشارة القرآن الكريم إلى ذلك في الآية (١٣) من سورة الشورى، وكذلك في الآية (٧) من سورة الأحزاب.

٢ ـ كـان عليه السلام الأب الـثاني للنسـل الحاضـر من بني الإنسـان، وإليه تنتهي أنساب الناس؛ لقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ﴾[1].

٣ ـ إنّ نوحـاً هـو أبـو الأنبياء المذكورين في القرآن، ما عدا آدم وإدريس عليهما السلام قال تعالى: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الآخِرِينَ﴾[2].

٤ ـ كـان عليه السلام أوّل مـن كلّم الناس بمنطق العقل وطريق الاحتجاج مضافاً إلى طريق الوحي بعد تعرض الجماعة البشرية للانحراف عن الفطرة، فهو الأصل الذي ينـتهي إلـيه دين التوحيد في العالم بعد ظهور الوثنية، فله الفضل والمنّة على جميع الموحدين إلى يوم القيامة، ولعلّ هذا هو السبب فيما خصّه الله سبحانه وتعالى به

---

(١) الصافات: ٧٧.

(٢) الصافات: ٧٨، الميزان ١٠: ٢٥١.

من السلام الذي لم يشاركه فيه أحد: ﴿سَلامٌ عَلَى نُوحٍ فِي العَالَمِينَ﴾[1].

وقد اصطفاه اللّه على العالمين، وعدّه من المحسنين، وسمّاه عبداً شكوراً وعبداً صالحاً، وعدّه من عباده المؤمنين، وآخر ما نقل من دعائه قوله: ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِناً وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلاَ تَزِدْ الظَّالِمِينَ إِلاَّ تَبَاراً﴾[2].

كما أنّه كان أوّل من ذكره القرآن الكريم في ذكر اسم اللّه عند الابتداء بأمر عظيم: ﴿بِسْمِ اللّه مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا﴾[3].

كما أخبر القرآن الكريم عن أنّه لبث في قومه ألف سنة إلاّ خمسين عاماً، الأمر الذي يكشف عن طول المعاناة والصبر العظيم.

حياة نوح عليه السلام

يبدو أنّ حياة نوح عليه السلام ـ من خلال ما عرضه القرآن الكريم في قصّته ـ تنقسم إلى ثلاث مراحل، وتبدو هذه المراحل الثلاث واضحة من المقطع الذي ذكر فيه قصته من سورة هود.

المرحلة الأولى: الرسالة والدعوة

كان نوح عليه السلام يدعو قومه إلى توحيد اللّه سبحانه وعبادته، ورفض عبادة غير اللّه تعالى من الشركاء، كما كان يدعوهم إلى تقوى اللّه تعالى وطاعته، وإلى التوبة والإنابة إلى اللّه تعالى ليغفر لهم ذنوبهم.

---

(١) الصافات: ٧٩.

(٢) نوح : ٢٨، الميزان ١٠: ٢٥٢ بتصرف قليل.

(٣) هود: ٤١.

كمـا كان يبلّغ رسالات اللّه وينصح لهم، وينذرهم عذابه وعقابه، ويبشرهم بـالخير العمـيم في الدنيا، حيث يرسل اللّه السماء عليهم مدراراً، ويمددهم بأموال وبنين، ويجعل لهم جنات ويجعل لهم أنهاراً.

ويظهـر من القرآن الكريم ـ كما يفهم من المقارنة بين شريعته وشرائع سائر أنبـياء أولي العـزم، أو من سياق الوصايا العامة التي ذكرها القرآن الكريم للشرائع السـابقة ـ أنّ نوحـاً عليه السلام كـان يأمـرهم بالمعـروف: كـالعدل، والمساواة، وصدق الحديـث، والوفـاء بـالعهد، وينهاهم عن المنكر وعن ممارسة الفواحش واقترافها، وقـد توسـل في دعوته هذه بوسائل: الدعوة بالحكمة، والموعظة الحسنة، والإنذار مـن عـذاب اللّـه تعالى، والاحتجاج الذي يعتمد على المنطق والأخلاق، والتأكيد على التجرد من الهوى أو المصالح الدنيوية، فهو إنسان أرسله اللّه لإبلاغ رسالاته ولـيس ملكاً، كما أنّه لا يبتغي من وراء هذا العمل أجراً أو فائدة خاصة أو مقاماً دنيوياً، وإنّما يريد بذلك خيرهم وصلاحهم.

وكـان عليه السلام يتصف: بالصبر، وسعة الصدر، والاستقامة في الدعوة، ومواصلة إبلاغ الرسالة، واستخدام الأساليب المختلفة العلنية والسرية، قال تعالى: ﴿رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلاً وَنَهَاراً﴾[1].

وقـال تعالى: ﴿ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَاراً * ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَـهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَاراً﴾[2].

وقـد واجهـه قومـه بتكذيـبه في دعوته، واستخدموا في هذا التكذيب عدّة وسائل تعبّر عن مراحل من المواجهة بينه وبين قومه، وهي:

---

(١) نوح: ٥.

(٢) نوح : ٨ ـ ٩.

أولاً: كانوا يثيرون في وجهه الشبهات والشكوك من خلال المجادلة بالباطل، فتارة يتهمونه بالكذب والافتراء، لأنّ الرسول من اللّه لابدّ أن يكون ملكاً، ويستغربون أن يكون رسول اللّه رجلاً مثلهم، وأخرى يتهمونه بالضلال والخروج على الجماعة ووحدتها، وثالثة بأنّه يسعى وراء الجاه والمقام والحصول على الامتيازات، مع أنّه في نظرهم لا فضل له عليهم في الجاه والمال والولد.

ثانياً: المحاصرة الاجتماعية من خلال الاتهام بالتسافل الاجتماعي والعيش مع الأراذل والضعفاء والأوباش من الناس، ولا يمكنهم أن يؤمنوا برسالته؛ لأنّ ذلك يؤدي بهم إلى أن ينزلوا إلى هذا المستوى الاجتماعي الداني، أو من خلال الاتهام بالجنون والاضطراب العقلي والشغب.

وكان نوح عليه السلام يرد عليهم هذا الاتهام: بأنّ هؤلاء مؤمنون، ولا يمكن له أن يطردهم ويبتعد عنهم، واللّه أعلم بما في نفوسهم، وهو يؤجرهم على أعمالهم ونياتهم.

ثالثاً: التهديد بالعدوان واستخدام القوة ضده إذا لم يترك رسالته، قال تعالى: ﴿قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ * قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ * فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحاً وَنَجِّنِي وَمَنْ مَعِي مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾[١].

وقال تعالى: ﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِر﴾[٢].

ويبدو من القرآن الكريم أنّ نتائج هذه المرحلة كانت:

أولاً: الإيمان بالرسالة من قبل عدد محدود من الطبقة السفلى من الناس، وكذلك أهله باستثناء زوجته وأحد أبنائه، وبقي سائر الناس على عنادهم

---

(١) الشعراء: ١١٦ ـ ١١٨.

(٢) القمر: ١٠.

وإصرارهم في تكذيبه: ﴿وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلاَّ قَلِيلٌ﴾[١].

ثانياً: انقطاع الصلة والتعايش بين نوح ﷺ وقومه من خلال تطور المواجهة بالتهديد وباستخدام القوة، وصمود واستمرار نوح ﷺ على موقفه وعدم التراجع عنه: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللهِ فَعَلَى اللهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لاَ يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلاَ تُنْظِرُونِ﴾[٢].

ويمكن أن نفهم كلا هذين الأمرين من هاتين الآيتين أيضاً: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تُجْرِمُونَ * وَأُوحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلاَّ مَنْ قَدْ آمَنَ فَلاَ تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾[٣].

المرحلة الثانية: اليأس وصنع الفلك[٤]

وقد يأس نوح ﷺ من هداية قومه وإيمانهم بعد أن تبيّن العناد والإصرار على التكذيب فيهم، فنادى ربه بذلك، ثم حصل له اليأس من هدايتهم بعد أن أخبره اللّه سبحانه وتعالى بذلك، كما أشارت إلى ذلك الآية السابقة، وقد كان

---

(١) هود: ٤٠.

(٢) يونس : ٧١.

(٣) هود: ٣٥ ـ ٣٦.

(٤) اليأس من الهداية لا يصح إلاّ بإخبار اللّه سبحانه وتعالى، وكذلك قطع الصلة والبلاغ، ولذلك عاتب اللّه سبحانه وتعالى نبيه يونس وابتلاه بالحوت؛ لأنّه ذهب مغاضباً كما يعبّر القرآن الكريم، ولهذا السبب ـ على ما يبدو من القرآن الكريم ـ لم ينزل العذاب على قوم يونس مع أنّهم كانوا قد كذبوه في رسالته كما يشير القرآن الكريم إلى ذلك في سورة يونس، وأمّا نوح ﷺ فقد أخبره اللّه بذلك. منه ﷷ.

قومـه يطالـبونه بما كان يعدهم من إنزال العذاب، وهو يوكل ذلك إلى اللّه تعالى، وفي الوقت نفسه يواصل دعوته لهم.

إلاّ أنّه بعد إخبار اللّه سبحانه وتعالى له بذلك، نجد أن نوحاً عليه السلام يعبّر عن هذا اليأس في عدة مواقف:

أ ـ إعلان القطيعة والبراءة من قومه، كما أشارت إلى ذلك الآيات الكريمة السابقة.

ب ـ الدعـاء والطلـب من اللّه سبحانه وتعالى بإنزال العذاب عليهم تنفيذاً للسّـنة الإلهـية التي كانت تفرض نزول العذاب بالأقوام الذين يكذبون رسلهم مع تهديدهـم باستخدام القوة ضدّهم، أمّا بقتلهم أو إخراجهم من ديارهم، أو تعذيبهم بالسـجن وغيره، وقد كان نوح ينذر قومه بنزول هذا العذاب، قال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَـبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَادَلُوا بِالْـبَاطِلِ لِيُدْحِضُـوا بِـهِ الْحَـقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ * وَكَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ﴾[1].

وقـال تعـالى: ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لاَ تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنْ الْكَافِرِينَ دَيَّاراً * إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلاَ يَلِدُوا إِلاَّ فَاجِراً كَفَّاراً﴾[2].

ج ـ الاستعداد لنزول العذاب من خلال صنع الفلك والسفينة.

صنع الفلك

ثم إنّ اللّـه سـبحانه وتعـالى لّمـا أمـر نوحاً بأن يصنع الفلك تهيئاً وتحسباً

---

(١) غافر: ٥ ـ ٦.

(٢) نوح: ٢٦ ـ ٢٧.

لحدوث الطوفان ونزول العذاب: ﴿وَلاَ تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ﴾[١]، قـام نوح بصنع الفلك، ويبدو أنّ المنطقة التي كان يعيش فيها وقومه كانت فلاة لا يوجـد فـيها بحـر ولا نهـر؛ ولذا لم يكن لهذا العمل تفسير لدى قومه، فأثار فيهم الاستغراب والتعجب والسخرية: ﴿وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلأٌ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ﴾[٢]. فهـل كـان ذلـك منهم من دون أن يخبرهم نوح بنزول العذاب والطوفان، أو أنّهم كانوا يوغلون بالتكذيب والسخرية حتى بعد إخباره لهم بمجيء الطوفان؟

لا يوجـد تصـريح في القرآن الكريم، وإن كنت استقرب أن يكون ذلك بعد إخـبار نوح لهم بذلك، كما هو مقتضى الحال، وما يفهم من بعض الآيات أنّ نوحاً كـان قـد أخـبرهم بنزول العذاب: ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ * قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ اللهُ إِنْ شَاءَ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾[٣].

ويشـير إلى ذلـك مـا كـان يذكـره نوح لهم في مقابل سخريتهم: ﴿قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِـنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ * فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ﴾[٤].

واسـتمرت هـذه الحـرب النفسـية الطويلـة طيلة المدة التي كان يصنع فيها نـوح عليه السلام ـ الفـرد المحاصـر القلـيل العـدّة والعدد ـ السفينة العظيمة التي يريد أن يعدها لهذه المهمة.

ولعـلّ هـذه الفترة كانت من أصعب الأوقات التي مرّ بها الرسول نوح عليه السلام؛

---

(١) هود: ٣٧.

(٢) هود: ٣٨.

(٣) هود : ٣٢ ـ ٣٣.

(٤) هود: ٣٨ ـ ٣٩.

لأنها كانت فترة المقاطعة الشاملة، وفترة الحرب النفسية الظالمة، وفترة الانتظار والترقب لنزول العذاب وتحقق الوعد الإلهي، وقد كان اللّه سبحانه وتعالى يرعى نوحاً بعينه التي لا تنام، ويسدده بالوحي، ويعلمه كيف يصنع السفينة في مراحلها المتعددة، ويثبته في عمله وموقفه.

ووضع له سبحانه وتعالى علامة لمجيء الأمر بالعذاب وهي: فوران التنور في بيت أهله: ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ فَاسْلُكْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ﴾[1].

المرحلة الثالثة: الطوفان وآثاره ونتائجه

وعندما فار التنور أمر اللّه سبحانه وتعالى نوحاً عليه السلام أن يحمل في الفلك أهله ـ إلاّ من استثنى منهم، وممّن سبق القول من اللّه سبحانه وتعالى في إهلاكهم كزوجته ـ وجميع المؤمنين ممّن آمن به، وهو قليل، وكذلك من كلّ الحيوانات من كلّ زوجين اثنين ذكراً وأنثى، فلمّا حملهم في السفينة وركبوا فيها فتح اللّه سبحانه وتعالى أبواب السماء بماءٍ منهمرٍ، وفجر الأرض عيوناً، فالتقى الماء من السماء والأرض على أمر قد قدر، وأصبحت السفينة تجري بهم في موج كالجبال، ولم يكن هناك شيء من الجبال أو المرتفعات ممّا يعصم الإنسان عن أمر اللّه بالغرق، فأخذ الناس الطوفان وهم ظالمون.

ثمّ إنّ نوحاً وجد ابنه كان قد انعزل عنه، ولم يركب في السفينة، فناداه: يا بنيّ اركب معنا، ولا تكن مع الكافرين. قال ابنه: سأوي إلى جبل يعصمني

---

(١) المؤمنون : ٢٧.

مـن المـاء، قـال لــه نـوح: لا عاصم اليوم من أمر اللّه إلاّ من رحم اللّه منهم، وهم أولئك الذين ركبوا السفينة، ثم حال الموج بينه وبين ابنه، فكان ولده من المغرقين.

قضاء الأمر ونزوله ومن معه إلى الأرض

فلمّا عمّ الطوفان، وأغرق الناس[١] أمر اللّه الأرض أن تبلع ماءها، والسماء أن تقلـع وغـيض المـاء، واستوت السفينة على جبل الجوديّ، وقيل بعداً للقوم الظالمين، وأوحـي إلى نوح عليه السلام أن اهبط إلى الأرض بسلام منّا وبركات عليك وعلى أمم ممّـن معـك، فـلا يـأخذهم بعد هذا طوفان عام، ومنهم أمم سيمتعهم اللّه بأمتعة الحـياة، ثمّ يمسّـهم عـذاب اليمٌ، فخرج هو ومن معه، ونزلوا الأرض يعبدون اللّه بالتوحيد والإسلام، وتوارثت ذريته عليه السلام الأرض، وجعل اللّه ذريته هم الباقين[٢].

قصّة ابن نوح الغريق

ولم يكـن نـوح عليه السلام يعـلم مـن ابنه أنه يبطن الكفر كما كان يعلم ذلك من امـرأته، فكان غرقه مفاجأة له، وحزن لذلك، ولو كان يعلم ذلك لما تفاجأ وحزنه أمره، وهو القائل في دعائه: ﴿رَبِّ لاَ تَذَرْ عَلَى الأَرض مِنْ الْكَافِرِينَ دَيّاراً * إِنّكَ إِنْ تَذَرْهُـمْ يُضِلّوا عِبَادَكَ وَلاَ يَلِدُوا إلاَّ فَاجِراً كَفَّاراً﴾[٣]. وهو القائل: ﴿فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْـنَهُمْ فَـتْحاً وَنَجِّـنِي وَمَـنْ مَعِـي مِـنْ الْمُؤْمِنِينَ﴾[٤]. وقد سمع قولـه تعالى فيما

---

(١) كما يظهر من سورة الصافات: ٧٧.

(٢) سورتا هود والصافات.

(٣) نوح: ٢٦ – ٢٧.

(٤) الشعراء: ١١٨.

أوحى إليه: ﴿ولا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ﴾[1].

فوجـد نوح عليه السلام وحزن وتسائل، فنادى ربّه من وجده قائلاً: ربِّ إنّ ابني من أهلي، وإنّ وعدك الحقّ، وعدتني بإنجاء أهلي وأنت أحكم الحاكمين، لا تجور في حكمـك، ولا تجهـل في قضـائك، فمـا الذي جرى على ابني؟ فأخذته العناية الإلهية، وحالت بينه وبين أن يصرّح بالسؤال في نجاة ابنه ـ وهو سؤال لما ليس له بـه علم ـ وأوحى اللّه اليه: يا نوح إنّه ليس من أهلك إنّه عمل غير صالح، فإياك أن تواجهني فيه بسؤال النجاة، فيكون سؤالاً فيما ليس لك به علم إنّي أعظك أن تكون من الجاهلين.

فانكشـف الأمر لنوح عليه السلام والتجأ إلى ربه سبحانه وتعالى قائلاً: ﴿رَبِّ إِنِّيَ اعُـوذُ بِـكَ انْ اسْـألَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ﴾[2] أسالك أن تشملني بعنايتك، وتستر علي بمغفرتك، وتعطف علي برحمتك، ولولا ذلك لكنت من الخاسرين[3].

---

(١) هود: ٣٧.

(٢) هود : ٤٧.

(٣) يوجد هنا بحثان تناولهما المفسرون حول حادثة ابن نوح:

الأول: هل كان ابن نوح ولداً للنوح حقيقة كما هو ظاهر الآية، أو أنّه ابن زوجته من رجل آخر، أي ربيبه، كما تشير إلى ذلك بعض القراءات المروية (ابنها) وبعض الروايات، أو أنّه ابن فراشه، وأنّ زوجته قد خانته بذلك، كما وصفها القرآن الكريم بالخيانة في سورة التحريم، والصحيح: هو ما ذكرناه تمسكاً بظاهر الآية الكريمة، وأصالة القرآن في مقابل الروايات.

الثاني: هل سأل نوح ربه نجاة ولده في قوله: ﴿إنّ ابني من أهلي وإنّ وعدك الحق﴾ مع أنّه كان كافراً، وقد دعا ربه أن لا يذر على الأرض من الكافرين دياراً أو أنّه لم يكن يعرف كفر ولده؛ لأنّه كان منافقاً، أو أنّه ظنّ أنّ اللّه سبحانه وتعالى سوف يهديه في آخر لحظة بسبب الوعد الإلهي له بالنجاة، أو أنّ نوحاً لم يسأل ربه ذلك، وإنّما سأل تفسير هذه الحادثة التي فوجئ بها؛ ←

ملاحظات عامّة حول القصّة

١ ـ إنّ الهـدف الأساس من قِصّة نوح التي تتميزّ عن بقية القصص القرآنية ـ كما يبدو من القرآن ـ هو مجموع أمرين:

الأوّل: أن يضـرب اللّـه مثلاً لهلاك قوم رسول من أولي العزم كذّبوا بنبيهم وهمّـوا بـه، حيث كانت قضية نوح أوّل حادثة في التأريخ الإنساني الذي تعرّض فيها قوم نبيّ من الأنبياء إلى الهلاك، كما كان الرسول الوحيد من أولي العزم الذين جـرى في قومـه هـذا الهلاك، وقد كان الهلاك فيها عامّاً شاملاً حتى أنّه وصل إلى الأقربين من نوح عليه السلام.

وهذه القضية من القضايا التي يؤمن بها أهل كلّ الرسالات السماوية وجميع الأقوام والملل المعروفة في التأريخ البشري، كما يدل على ذلك تراث هذه الأمم، ولذلك فهي مثل صادق ينتفع به كلّ الناس.

الـثاني: إنّ هذه القِصّة تعبّر عن المثل الأعلى للصبر والشجاعة بسبب طول المـدة المقرونة باليأس والوحدة؛ إذ لا نعرف في أي واحد ممّـن ذكر اللّه قصّته من الأنبـياء أنّه مكث في قومه هذه المدة الطويلة يدعوهم إلى اللّه ويكذبونه، ولا يجد بيـنهم ناصراً لـه منهم إلاّ القليل المستضعف، ويستمرّ في عمله والقيام بوظيفته مع اليأس من هدايتهم وصلاحهم.

← لأنّه كان يظن نجاة ولده بسبب الوعد الإلهي؟! إلى غير ذلك من الأسئلة التي تثار حول هذا الموضوع وترتبط بالعصمة الإلهية.

وقد تناول هذا الموضـوع العلاّمة الطباطبائي وغيره بالبحث. راجع الميزان ١٠: ٢٣٢ ـ ٢٣٨.

منه رحمه الله.

٢ ـ لقد كان من نتائج الطوفان وآثاره تثبيت خط التوحيد للّه سبحانه وتعالى في التأريخ البشري من خلال البقية الباقية لذرية نوح المؤمنين مع بقاء هذه الحادثة قائمة في الذاكرة التأريخية للبشرية، وكذلك لم يشهد التأريخ البشري حادثة أخرى مماثلة لهذه الحادثة بعد ذلك، بل كان العذاب ينزل في هذه الجماعة الخاصة أو تلك، وإنّ العذاب كان ينزل بسبب الانحرافات الأخلاقية والاجتماعية التي تتعرض لها هذه الجماعات.

٣ ـ إنّ رواية القِصّة في التوراة جاءت متفاوتة مع ما ذكر منها في القرآن الكريم، كما أشرنا آنفاً، ويمكن أن نلاحظ الاختلاف بين القرآن والتوراة في النقاط المهمة التالية:

أ ـ وجود تفاصيل في النص القرآني ـ على عمومه وإجماله ـ ذات مغزى مهم لم تذكر في الرواية التوراتية الموجودة، مثل: استثناء امرأة نوح[١] من النجاة وغرق ولده، بل صرحت التوراة بدخول امرأته في الفلك ونجاتها، ولم تذكر ابن نوح الغريق.

وكذلك يصرّح القرآن بنجاة المؤمنين بنوح على قلّتهم، مع أنّ التوراة تقتصر على خصوص نوح وأهله.

ب ـ وجود تفاصيل في التوراة عن القِصّة ليس لها مغزى وهدف، مثل: خصوصيات السفينة، من طولها وعرضها وطبقاتها وارتفاعها، ومدة الطوفان وارتفاع الماء، وكيفية نقصان الماء، ومحاولات نوح لاستكشاف جفاف الأرض

---

(١) يصرح القرآن الكريم بهذا المغزى عندما يضرب امرأة نوح وامرأة لوط مثلاً للذين كفروا في سورة (التحريم آية ١٠)، ومنه يمكن أن نفهم المغزى من هلاك ابن نوح؛ لأنّه لا توجد لأحد عند اللّه قرابة، وأنّ الكرامة عند اللّه تعالى هي للإيمان والعمل الصالح. منه قدس سره.

بإرسال الغراب والحمامة ومجيئها في المرة الثانية بغصن الزيتون، ونزول نوح والحيوانات والدابات وانتشارها في الأرض للتكاثر والتوالد، وكذلك بناؤه لأماكن الذبح والعبادة، والقرار الإلهي بتمكين نوح من الحيوانات الأرضية والطيور والحيوانات المائية، وإنّ الله وضع ميثاقاً بينه وبين نوح وذريته، وعلامة تذكرهم بالميثاق، وهو: قوس قزح، إلى غير ذلك من التفاصيل التي لا مغزى لها ولا هدف، كما أنّ بعضها بعيد وغريب لا يقبله المنطق السليم.

ج ـ ذكرت التوراة بعض التفاصيل التي لا تليق بالأنبياء وقداستهم، مثل: ما فعله أحد أبناء نوح بأبيه بعد أن كان قد سكر نوح بشرب الخمر حيث تعرّى داخل خبائه، فنظر إليه ولده عارياً وأخبر إخوته بذلك، فقاموا بستر عورته، وعندما استيقظ من سكرته لعن ولده كنعان الذي نظر إلى عورته، ودعا عليه أن يكون عبداً لأخوته.

د ـ وجود تفاصيل تخالف ظاهر القرآن أو صريحه مثل: ذكر التوراة لنجاة أبناء نوح، وذكر القرآن لغرق بعض أبنائه... وكذلك ذكر القرآن أنّ المدة التي لبث فيها نوح مع قومه قبل الطوفان ـ حسب ظاهر الآية ١٤ من سورة العنكبوت ـ هي: تسع مئة وخمسون عاماً، والتوراة تذكر مدة عمر نوح كلها هي تسع مئة وخمسون عاماً[1].

وقد تأثر بعض الصحابة والتابعين بهذه المعلومات التي وردت في التوراة؛ لأنّهم أخذوها عن أهل الكتاب، وتناقلوها بينهم، وقد يكون بعض هذه المعلومات التي لا تخالف القرآن والتفاصيل صحيحاً، ولكن لا يمكن الاعتماد عليها.

---

(١) تصرح الروايات المروية عن أهل البيت عليهم السلام: أنّ عمر نوح كان ألفين وخمس مائة عام.

وبذلك يمكن أن نفهم سمو الهدف القرآني، وارتباط نصّه بالوحي الإلهي، ومصداقية قوله تعالى في آخر قصّة نوح من سورة هود، وهو أكثر مواردها تفصيلاً: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلاَ قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾[1].

٤ ـ ورد في الروايات العديدة التي روى أكثرها العياشي في تفسيره عن أهل البيت عليهم السلام أنّ حياة نوح والطوفان والتنور كان في الكوفة ومسجدها الأعظم، وأنّ الجودي الذي استقرت عليه السفينة هو جبل قرب الكوفة، ولعله الغري، وأنّ الجبل الذي آوى إليه ابن نوح هو: جبل (النجف) الذي كان جبلاً عظيماً، ثم تقطّع بأمر اللّه قطعاً قطعاً حتى امتد إلى بلاد الشام، وصار بعضه رملاً، وهو المعروف الآن (بالطارات)[2]، وهذا التفسير التأريخي للحادثة ممّا اختص به تراث أهل البيت عليهم السلام دون غيرهم، ولعلّ الأبحاث التأريخية والآثارية تكشف هذه الحقيقة في المستقبل.

---

(١) هود: ٤٩.


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی



الفصل الثاني

قصة إبراهيم عليه السلام في القرآن


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

إبراهيم وقصّته

إبراهـيم عليه السلام بـن آزر هو النبي السادس ممّـن ذكروا من الأنبياء في القرآن الكريم بعد آدم، وإدريس، ونوح، وهود، وصالح عليهم السلام، وهو ثاني أولي العزم الذين تحدثنا عنهم.

وقـد جـاءت قصّته في التوراة مفصلة، ولكنّها مختلفة عمّا جاءت في القرآن الكريم، شأنها شأن بقية قصص الأنبياء.

وقـد ورد ذكـر إبراهـيم عليه السلام في القرآن الكريم في تسع وستين مورداً، وهو بذلك يكون أكثر ذكراً من نوح عليه السلام، بل أكثر الأنبياء ذكراً بعد موسى عليه السلام.

كمـا أنّ قصّته وردت بشيء من التفصيل في كلّ من سورة البقرة، والأنعام، وإبراهيم، والأنبياء، والعنكبوت، والصافات.

ولكـنّها لم تـرد كاملـة ولـو بنحو الإجمال في أي موضع من مواضع القرآن الكـريم، وإنّمـا جاءت متفرقة، وهي في الوقت نفسه مختلفة اللفظ والهدف بحسب السياق الذي جاءت فيه القصّة.

وتتلخص قصّة إبراهيم كما جاءت في القرآن الكريم بالأمور التالية:

قوم إبراهيم عليه السلام

لم يـتحدّث القـرآن الكـريم عـن قـوم إبراهيم عليه السلام الذي ولد بينهم، وبدأ دعوته ورسالته فيهم إلاّ قليلاً، حيث أشار إلى عدة أبعاد في حياتهم:

أ ـ البعد العقائدي الذي كان يتمثل بعبادة الأوثان، حيث كانوا يعبدونها ويعتقدون أنها هي التي تمنحهم الرزق، وقد توارثوا هذه العبادة عن آبائهم الأقدمين، حتى أنهم أخذوا يصنعون الأصنام ويتداولونها بينهم: ﴿وَإبراهيم إذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللهَ وَاتَّقُوهُ ذلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * إنَّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ أوْثَاناً وَتَخْلُقُونَ إفْكاً إنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ لاَ يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقاً فَابْتَغُوا عِنْدَ اللهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾[1].

كما أنهم لم يعتقدوا بالمعاد والدار الآخرة، كما يشير إلى ذلك استدلال إبراهيم عليه السلام بدعوته لهم على المعاد والنشأة الآخرة: ﴿أوَ لَمْ يَرَوا كَيْفَ يُبْدِئُ اللهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إنَّ ذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ * قُلْ سِيرُوا في الأرض فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللهُ يُنشِئُ النَّشْأةَ الآخرة إنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ وَإلَيْهِ تُقْلَبُونَ * وَمَا أنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ في الأرض ولاَ في السَّمَاءِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ﴾[2].

وبهذه العقيدة الفاسدة تحولوا من عبادة اللّه سبحانه وتعالى إلى عبادة الشيطان: ﴿يَا أبَتِ إنِّي أخَافُ أنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيّاً * قَالَ أرَاغِبٌ أنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إبراهيم لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لأرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيّاً﴾[3].

وتشير بعض الروايات والنصوص التأريخية إلى أنهم كانوا يعبدون الكواكب، وحاول بعض المفسرين أن يجد لذلك شاهداً من القرآن الكريم في قصة

---

(١) العنكبوت: ١٦ ـ ١٧.

(٢) العنكبوت: ١٩ ـ ٢٢.

(٣) مريم: ٤٥ ـ ٤٦.

نظـر إبراهيم إلى الكواكب الذي يقال: إنّها الزُّهَرة ثم إلى القمر ومن بعد ذلك إلى الشـمس الـتي وردت في سـورة الأنعـام، أو ما أشار إليه القرآن الكريم في قوله: ﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ * فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ﴾[1].

ولكن هذه الآيات الكريمة لا تدلّ على أكثر من تأملات لإبراهيم في طريقه لإدراك الله الواحد الأحد، كما سوف نشير إلى ذلك.

كمـا أنّ هـؤلاء القـوم مراسـيم يـؤدون فيها عبادتهم من تقديم الطعام لها والخـروج إلى خـارج العمارة للعيد، كما تشير إلى ذلك الآيات التي تتحدّث عن قضـية تكسـير إبراهـيم عليه السلام للأصـنام، ومخاطبته لها وخروجهم عنها: ﴿فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ * فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ * فَرَاغَ إِلَى آلِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلاَ تَأْكُلُونَ * مَا لَكُمْ لاَ تَنطِقُونَ * فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْباً بِالْيَمِينِ * فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزِفُّونَ * قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ * وَاللهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾[2].

وقال تعالى: ﴿فَجَعَلَهُمْ جُذَاذاً إِلاَّ كَبِيراً لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ * قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنْ الظَّالِمِينَ﴾[3].

ب ـ البعد الاجتماعي الذي كان يتمثل في اتخاذهم الأوثان محوراً للعلاقات الاجتماعية في الولاء والمودة بدل الله تعالى، مع أنّ هذا المحور في الولاء والمودة لا أصل لـه، بل سوف يتحول بعد ذلك إلى عداوة وبراءة بعضهم من بعض في يوم القيامة: ﴿وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللهِ أَوْثَاناً مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ

---

(١) الصافات: ٨٨ ـ ٨٩.

(٢) الصافات: ٨٩ ـ ٩٦.

(٣) الأنبياء: ٥٨ ـ ٥٩.

بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضاً وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾(١).

مضافاً إلى وجود الحالة المدنية في حياتهم الاجتماعيه كالبناء والأعمال اليدوية.

ج ـ البعد السياسي الذي كان يتمثل في وجود نظام للحكم يرأسه ملك وفيه قوانين، كما تشير إلى ذلك المناقشة التي جرت بين إبراهيم ومن آتاه اللّه الملك: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾(٢).

وكذلك محاكمة إبراهيم وقرار إلقائه في النار.

وتؤكّد ذلك النصوص التوراتية والتأريخية والروايات الكثيرة المروية عن الصحابة والتابعين وعن أئمة أهل البيت عليهم السلام حيث تذكر أنّ ملكاً عظيماً يسمى أو يكنى بالنمرود كان يحكم بلاد بابل في العراق، وأنّه كان جباراً، وهو الذي أمر بإحراق إبراهيم عليه السلام، كما سوف يأتي في قصّته.

د ـ البُعد الأخلاقي، ولم يتحدّث القرآن الكريم عن الحالة الأخلاقية لهم إلاّ بمقدار الإشارة إلى نكوصهم عن الحق، وتكذيبهم للرسالة، والتزامهم بالتقليد الأعمى للآباء، وانتكاسهم على رؤوسهم؛ إذ أخذتهم العزة بالإثم عندما وجدوا أصنامهم قد جعلها إبراهيم جذاذاً، فلم تغن عنهم، ولم تدافع عن نفسها، ولا ترجع لهم جواباً، ولا تخبرهم عن حال، فعمدوا إلى إحراق إبراهيم.

كما لم يتحدّث عن الأوضاع السلوكية والممارسات الشخصية لهم في مجال الآثام والخطايا، أو الظلم والفساد والطغيان وغيرها.

---

(١) العنكبوت: ٢٥.

(٢) البقرة: ٢٥٨.

شخصية إبراهيم عليه السلام

لقد تحدّث القرآن الكريم بعض الشيء عن شخصية إبراهيم عليه السلام أثناء الحديث عن قصّته أو بشكلٍ مستقلٍ، وأكّد بشكل خاص على صفاته الممتازة وأبعادها المتعددة، بحيث يظهر فيها إبراهيم عليه السلام وكأنّه أفضل الأنبياء جميعاً عدا سيد الأنبياء وخاتمهم نبينا محمّد صلى الله عليه وآله.

ولعلّ هذا الجانب هو السبب المهم فيما ورد في الأحاديث الشريفة المتواترة عن رسول اللّه صلى الله عليه وآله من استحباب قرن الصلاة عليه وآله بالصلاة على إبراهيم وآله والتمثيل بها[1].

ويمكن إجمال الأبعاد التي أشار إليها القرآن الكريم من صفات إبراهيم صراحة أو تلميحاً ببيان آثارها بالأبعاد الأربعة التالية:

الأوّل: البعد الرسالي

وهي الصفات التي تشير إلى موقع إبراهيم من الرسالة الإلهية، وهذه الصفات هي:

أ ـ الإمامة، حيث تحدّث القرآن الكريم عن منح اللّه سبحانه وتعالى لإبراهيم مقام الإمامة: ﴿وَإِذْ ابْتَلَى إبراهيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَات فَأتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ

---

(١) روي عن الحكم أنه قال: «سمعت ابن أبي ليلى يقول: لقيت كعب بن عجرة، فقال: ألا أهدي لك هدية: إنّ رسول اللّه صلى الله عليه وآله خرج علينا، فقلنا: يا رسول اللّه قد علمتنا كيف السلام عليك، فكيف الصلاة عليك؟، قال: قولوا اللّهمّ صلّ على محمّد كما صليت على إبراهيم إنّك حميد مجيد، وبارك على آل محمّد كما باركت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد » قصص الأنبياء لابن كثير: ٢٤٥ عن الصحيحين. ورواه ـ أيضاً ـ في جامع أحاديث الشيعة ١٥: ٤٧٥ عن أمالي ابن الطوسي، وأكّدته أحاديث عديدة. راجع جامع أحاديث الشيعة ١٥: ٤٧٦ ـ ٤٧٨.

لِلنَّاسِ إِمَاماً قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لاَ يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾[1].

وقد استجاب الله سبحانه وتعالى دعوته في أن تكون هذه الإمامة فيه وفي ذريته، كما صرّح القرآن الكريم بذلك في عدة مواضع أخرى أيضاً، واستثنى من نيلها الظالمين.

قال تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلاًّ هَدَيْنَا وَنُوحاً هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ* وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِنَ الصَّالِحِينَ * وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطاً وَكُلاًّ فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ * وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾[2].

والإمامة على ما تشير إليه الآية الكريمة السابقة، وتؤكده بعض الروايات التي وردت عن أهل البيت عليهم السلام أنّها أعلى درجات النبوّة.

فقد روى الكليني في الكافي بسنده عن جابر، عن أبي جعفر عليه السلام قال: سمعته يقول: « إنّ الله تبارك وتعالى اتخذ إبراهيم عبداً قبل أن يتخذه نبياً، وان الله اتخذه نبياً قبل أن يتخذه رسولاً، وان الله اتخذه رسولاً قبل أن يتخذه خليلاً، وان الله اتخذه خليلاً قبل أن يتخذه إماماً، فلمّا جمع له الأشياء قال: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ للناس إماماً﴾ فمن عظمها في عين إبراهيم، قال: ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لا يَنَالُ عَهْدِي الظالمين﴾»[3].

---

(١) البقرة: ١٢٤.

(٢) الأنعام: ٨٤ ـ ٨٧.

(٣) أصول الكافي ١: ١٧٥.

ويبدو من القرآن الكريم عند تتبع استخدام عنوان الإمامة أنّ البداية كانت من إبراهيم عليه السلام.

ب ـ أولي العزم، عدّ القرآن الكريم إبراهيم عليه السلام من أنبياء أولي العزم من الرسل، كما ذكرنا ذلك في الحديث عن نوح عليه السلام، وقد أشار القرآن الكريم إلى ذلك في سورتي الشورى (آية ١٣) والأحزاب (آية ٧).

ويمتاز هؤلاء الأنبياء بإنزال الشرائع السماوية عليهم لتنظيم حياة الناس بها، ممّا يؤشّر على وجود أقوام من الناس يؤمنون بهم ويتبعون مناهجهم، وقد أكّد القرآن الكريم وجود هذا النوع من الوحي الإلهي على إبراهيم عليه السلام عندما تحدّث عن صحف إبراهيم وموسى: ﴿إنّ هذا لَفيَ الصُحُف الأولَى صُحُفِ إبراهيم وَمُوسى﴾[1].

كما أنّ هؤلاء الأنبياء ممّن أخذ عليهم اللّه سبحانه وتعالى الميثاق الغليظ بسبب طبيعة ثقل المسؤولية والرسالة التي يتحملونها، كما أشارت إلى ذلك (الآية ٧) من سورة الأحزاب.

ج ـ الاصطفاء، لقد كان إبراهيم عليه السلام من جملة الأنبياء الذين ذكرهم القرآن الكريم بالاصطفاء والاجتباء، وتميّز بأنّه كان أوّل من تم اصطفاؤه مع آله وعترته: ﴿إنّ اللهَ اصْطَفَى آدَمَ ونُوحاً وَآلَ إبراهيم وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ * ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْض واللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[2].

وقد تحدّث القرآن الكريم عن هذه الصفة في إبراهيم في مواضع عديدة، وعبّر عنها بأساليب مختلفة؛ لتأكيد هذا الموقع الرسالي الخاص.

د ـ جمع الدنيا والآخرة: ﴿وَآتَيْنَاه في الدُنْيَا حَسَنَةً وَإنّهُ فِي الآخرة لَمِنَ

---

(١) الأعلى: ١٨ ـ ١٩.

(٢) آل عمران: ٣٣ ـ ٣٤.

الصَالِحِينَ﴾[١] تـدل الآية الكريمة على أنّ اللّه جمع لإبراهيم عليه السلام الدنيا والآخرة، فهـو في دنـياه يعـيش عيشـة حسنة لـه مال وأولاد ومنعة وعزّة، وكرامة ومروة وذريـة وبقـاء في الذكر الحسن، وقدوة للأنبياء حتى أفضلهم وخاتمهم، وقبول من جمـيع الأمم والملل، وصلوات دائمة عليه وعلى آله، وهو في الآخرة من الصالحين الذيـن أنعـم اللّه عليهم ورفع درجتهم، واستجاب دعاءه في أن يلحقه بمحمّد وآله عليهم الصلاة والسلام، فيكون منهم[٢].

الثاني: العلاقة بالله تعالى

وهـي الصـفات الـتي تـتحدّث عـن نـوع ومستوى العلاقة بين اللّه تعالى وإبراهـيم، والـتي يمكن أن نراها فيما أشار إليه القرآن الكريم من الصفات التالية، فقد كان إبراهيم عليه السلام:

أ ـ حنـيفاً مسـلماً؛ إذ وصف اللّه سبحانه وتعالى إبراهيم ودينه وملته بهذا الوصف في عدّة مواضع من القرآن الكريم:

قـال تعـالى: ﴿مَا كَانَ إبراهيم يَهُودِيّاً وَلاَ نَصْرَانِيّاً وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفاً مُسْلِماً وَمَا كَانَ مِنْ الْمُشْرِكِينَ﴾[٣].

وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِيناً قِيَماً مِلَّةَ إبراهيم حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنْ الْمُشْرِكِينَ﴾[٤].

---

(١) النحل: ١٢٢.

(٢) راجع الميزان ١: ٣٠٥.

(٣) آل عمران: ٦٧.

(٤) الأنعام: ١٦١.

والحنيف المسلم هو: الذي أخلص وأسلم لأمر اللّه تعالى، فلم يلتوِ في شيء من دينه، أو هو المائل عن الضلالة إلى الاستقامة[١].

وقد جاء التأكيد في أغلب هذه الآيات على أنّه لم يكن من المشركين؛ لأنّ بعض العرب المشركين كانوا يدّعون أنّهم على دين إبراهيم، كما أنّه في الوقت نفسه تأكيد للاستقامة في الدين.

ب ـ شاكراً لأنعم اللّه سبحانه وتعالى عليه؛ إذ هداه إلى الدين الحنيف، وتفضل عليه بالنبوّة والرسالة والإمامة، وأنجاه من النار، وأنقذه من الطغاة، وآتاه في الدنيا حسنة، ورزقه الذرية الصالحة المصطفاة، وجعل ذكره من الخالدين...

وكان في كلّ هذه المواقع يتصف بالشكر لهذه النعم، وصفة الشكر للمنعم تمثل التعبير الأصيل لعلاقة العبودية بين الإنسان واللّه تعالى.

ج ـ قانتاً ومطيعاً للّه سبحانه وتعالى بخضوع وخشوع وتسليم، فهي صفة من صفات اقتران الطاعة للّه بالعبادة والخضوع والخشوع له.

د ـ خليلاً للّه تعالى: ﴿وَاتَّخَذَ اللَّهُ إبراهيم خَلِيلاً﴾[٢].

والخليل هو: الذي أخلص في الحبّ حتى تخلل الحب والود نفسه وخالطها، فهو عليه السلام قد اختلط حبّه للّه بنفسه الشريفة وتخلّلها، كما خالط إحسان اللّه سبحانه وتعالى له ولطفه به نفسه وتخللها، فهي علاقة التمازج والاختلاط في الحب والولاء بينه وبين اللّه تعالى، كل بما يناسب شأنه.

وهذا الوصف ممّا اختص به إبراهيم عليه السلام في القرآن الكريم[٣].

---

(١) معجم ألفاظ القرآن ١: ٣٠٤، ومفردات الراغب: ١٥٣.

(٢) النساء: ١٢٥.

(٣) وقد ورد في روايات أهل البيت عليهم السلام أنّ اللّه سبحانه وتعالى إنّما اتخذ إبراهيم خليلاً؛ لأنّه لم يرد أحداً، ولم يسأل أحداً قط غير اللّه تعالى. وفي رواية أخرى: لكثرة سجوده على الأرض. وفي ←

هـ ـ وفياً بالعهود والميثاق الغليظ الذي أخذه اللّه سبحانه وتعالى عليه ﴿وَإبراهيم الّذِي وفّى﴾[١].

فلم يقصّر في أداء مسؤوليته مهما كانت المصاعب والعقبات، ومهما كانت التفاصيل والمفردات، وقد اختص اللّه سبحانه وتعالى في القرآن الكريم إبراهيم بهذا الوصف.

و ـ منيباً إلى اللّه تعالى: ﴿إنّ إبراهيم لَحَلِيمٌ أواه مُنِيب﴾[٢] فهو يرجع إلى اللّه سبحانه وتعالى في أموره كلّها: ﴿وَالّذِينَ اجْتَنَبُوا الطّاغُوتَ أنْ يَعْبُدُوهَا وَأنَابُوا إلَى اللهِ لَـهُمْ الْبُشْرَى﴾[٣].

الثالث: العلاقة بالناس والأمّة

فقد ذكر القرآن الكريم في وصف إبراهيم عليه السلام صفات توضح طبيعة العلاقة بينه وبين قومه، وأهل بيته والناس بشكل عام.

أ ـ كان أمّة، وقد ورد في تفسير ذلك: أنّه كان قدوة ومعلّماً للخير، فهو إمام هدى، وأنّ قِوام الأمّة بوجوده، وأنّ عمله كان عمل أمّة، أو أنّه مفرد في زمانه بالتوحيد، فكان مؤمناً والناس كفار[٤].

وقد ورد في سورة الممتحنة وضع إبراهيم في موضع القدوة للمسلمين في

← رواية ثالثة: لإطعامه وصلاته بالليل والناس نيام. وفي رواية رابعة: لكثرة صلواته على محمّد وأهل بيته صلوات اللّه عليه وآله. البحار ١٢: ٤، عن عيون أخبار الرضا وعلل الشرائع للصدوق.

(١) النجم: ٣٧.

(٢) هود: ٧٥.

(٣) الزمر: ١٧.

(٤) البحار ١٢: ٢ عن مجمع البيان.

قولـــه تعــالى: ﴿لَقَـدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللهَ هُوَ الْغَنِيّ الْحَمِيدُ﴾[١].

كمـا ورد فـيه الأمر لرسول اللّه باتباع ملة إبراهيم عليه السلام: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّـةَ إبراهـيم حَنِـيفاً وَمَـا كَـانَ مِنْ الْمُشْرِكِينَ﴾[٢]. كما ورد فيه: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِيناً مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ للهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إبراهيم حَنِيفاً﴾[٣].

ب ـ كان حليماً؛ إذ وصفه القرآن الكريم بذلك عندما أخذه العطف والشفقة عـلى لـوط وقومـه بسـبب ما أخبره به رسل اللّه بالقرار الإلهي في نزول العذاب علـيهم، فهـؤلاء القـوم بالرغم من انحرافهم وشذوذهم، وإيذائهم لابن أخيه لوط وإسـائتهم لمعاملـته، فـإن إبراهـيم أخذ يجادل المرسل فيهم ـ كما سوف نعرف ـ بأمل دفع نزول العذاب عنهم.

وهــذا يعـني: أنّ حالة العطف والشفقة والرأفة بالناس عموماً من الصفات المميزة الـتي تمـيز هذا النوع من الناس الذين اصطفاهم اللّه لرسالته: ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إبراهيم الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ * إِنَّ إبراهيم لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ﴾[٤].

وهــذا الوصــف ذكره القرآن الكريم بشأن نبينا محمّد صلى الله عليه وآله في قولـه تعالى: ﴿لَقَـدْ جَـاءَكُمْ رَسُـولٌ مِـنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾[٥].

---

(١) الممتحنة: ٦.

(٢) النحل: ١٢٣.

(٣) النسـاء: ١٢٥.

(٤) هود: ٧٤ ـ ٧٥.

(٥) التوبة: ١٢٨.

كما تذكر هذه الصفة ـ الحلم ـ لإبراهيم في عطفه على أبيه وموعدته إياه بالاستغفار له، وإن كان قد تبرأ منه عندما تبين له أنّه عدو للّه: ﴿وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إبراهيم لأَبِيهِ إِلاَّ عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ للهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إبراهيم لأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾[1].

ومن هنا يمكن أن نفهم أنّ الحلم هو الصبر المقرون بالعطف والرأفة على فعل السوء رجاء إصلاح الحال حباً بالآخرين وطلباً لمنفعتهم.

ج ـ كان بريئاً من أعداء اللّه الذين يصرّون على موقفهم في العداوة، ويلحّون على التمرد والعصيان. وقد ذكر القرآن الكريم هذا الوصف لإبراهيم في علاقته مع المشركين عندما تبين له هذا الإصرار وهذا الموقف دون فرق بين الأباعد منهم والأقارب، وجعل هذا الوصف لإبراهيم؛ ليكون الأسوة والقدوة للآخرين.

فقد سبق أن أشرنا إلى موقفه من البراءة من أبيه عندما تبين له أنّه عدو للّه: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إبراهيم وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَداً حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللهِ وَحْدَهُ إِلاَّ قَوْلَ إبراهيم لأَبِيهِ لأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللهِ مِن شَيْءٍ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ * رَبَّنَا لاَ تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا وَاغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾[2].

وبذلك نعرف أنّ هذه الصفة تكمّل صفة الحلم التي تحدثنا عنها في الفقرة السابقة في علاقة إبراهيم بالناس.

---

(١) التوبة: ١١٤.

(٢) الممتحنة: ٤ ـ ٥.

د ـ كـان يدعـو إلى اللّـه بالحكمة والموعظة الحسنة؛ إذ كان يتبع أسلوب مخاطـبة العقـل والوجـدان، والـتدرج في الخطـاب والموقـف، واسـتخدام مختلف الأسـاليب والوسـائل المشـروعة للوصـول إلى هدفه مع الالتزام بالخلق الإنساني الرفيع.

وسـوف يتضـح ذلـك عندما نستعرض مراحل حياته ودعوته، والأساليب التي كان يتبعها في ذلك.

الرابع: معالم الشخصية

ذكـر القرآن الكريم إلى جانب جميع الصفات الـسابقة بُعداً رابعاً من شخصية إبراهيم، وهو: البعد الذي يرتبط بمعالم شخصيته الذاتية، وهي:

أ ـ الـتفكر والـتأمل والـتدبر في الخلـق والكون وظواهر الطبيعة من أجل الوصـول إلى الحقـيقة؛ إذ يذكر لـه القرآن الكريم عدّة مواقف تعبّر عن ذلك، لعلّ أحسـنها مـا ذكـره في سورة الأنعام من تفكره وتدبره في التفتيش عن ربه الخالق وهـو في صغره عندما رأى الكوكب وأفوله، ثم انتقاله إلى القمر والشمس، ثم إلى معرفته باللّه تعالى:﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَباً قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لاَ أُحِبُّ الآفِلِينَ * فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغاً قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لأَكُونَنَّ مِنْ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ * فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾[1].

كما سوف نشير إلى ذلك في المرحلة الأُولى من حياته.

---

(١) الأنعام: ٧٦ ـ ٧٨.

وكذلـك طلبه من ربه أن يريه كيف يحيي الموتى للوصول إلى درجة اليقين في معـرفة النشـأة الآخـرة: ﴿وَإِذْ قَالَ إبراهيمُ رَبِّ أرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أوَ لَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أرْبَعَةً مِنْ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إلَيْكَ ثُـمَّ اجْعَـلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءاً ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأتِينَكَ سَعْياً وَاعْلَمْ أنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[١].

كما سوف نعرف ذلك في المرحلة الثالثة من حياته.

ب ـ كان واسع المعرفة بالحقائق الإلهية بسبب طلبه لها بالتأمل والتفكر من ناحـية، وبسبب اللطف الإلهي والعناية الربانية به الذى فتح لـه هذا الباب الواسع مـن المعرفة من ناحية أُخرى، والذي عبّر عنه القرآن الكريم بـــ (إراءته لملكوت السماوات والأرض): ﴿وَكَذَلِـكَ نُـرِي إبراهـيم مَلَكُـوتَ السَّـمَاوَاتِ وَالأرض وَلِـيَكُونَ مِـنْ الْمُوقِـنِينَ﴾[٢]. حيث كان يرى الحقائق الإلهية الغيبية والمشهودة في السماوات والأرض[٣].

---

(١) البقرة: ٢٦٠.

(٢) الأنعام: ٧٥.

(٣) وقد قال العلاّمة المجلسي بعد ذكره لمجموعة من الأخبار: إنّ إراءته ملكوت السماوات والأرض يحتمل:

١ ـ أن يكون ببصر العين: بأن يكون الله تعالى قد قوّى بصره، ورفع له كلّ منخفض، وكشط لـه عن أطباق السماء والأرض حتى رأى ما فيهما ببصره.

٢ ـ أن يكون المراد رؤية القلب: بأن أنار قلبه حتى أحاط بها علماً.

والأول أظهر نقلاً، والثاني عقلاً.

والظاهر على التقديرين: أنه أحاط علماً بكلّ ما فيهما من الحوادث والكائنات.

٣ ـ وأمّا حمله على أنه رأى الكواكب وما خلقه الله في الأرض على وجه الاعتبار والاستبصار، واستدلّ بها على إثبات الصانع، فلا يخفى بعده عمّا يظهر من الأخبار. انتهى كلامه. البحار ١٢: ٦١ ـ ٦٢.

ج ـ كـان قـوي الحجّة والبرهان، ويبدو ذلك واضحاً من القرآن الكريم في عرضـه لاحـتجاج إبراهـيم مع أبيه، ومع قومه في المرحلة الأُولى من حياته، كما تذكـره آيـات سورة الأنعام؛ ولذلك وصفة القرآن الكريم بعدها بقوله: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْـنَاهَا إبراهيم عَلَـى قَوْمِـهِ نَـرْفَعُ دَرَجَـات مَنْ نَشَاءُ إنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾[1]. وكذلـك موقفـه في الاحـتجاج عـلى قومه بعد ذلك في المرحلة الثانية من حياته، وتكسيره الأصنام بهدف إقامة الحجّة، وكأسلوب لتوضيح الحقيقة كما هو الظاهر، ولم يكـن الغـرض هو مجرد الانتقام ـ والله أعلم ـ ولذلك اضطروا في البداية إلى التسليم بالحجّة ثم نكسوا على رؤسهم.

وكذلك موقفه في الاحتجاج مع الملك في موضوع ربّه الله تعالى الذي عرفه بالإحـياء والإماتة، ثم بالتصرف في هذا الكون ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذي حَاجَّ إبراهيم في رَبِّـهِ أَنْ آتَـاهُ اللهُ الْمُلْـكَ إذْ قَـالَ إبراهـيم رَبِّيَ الَّذي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيـتُ قَـالَ إبراهـيم فَـإنَّ اللهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنْ الْمَشْرِقِ فَأْت بِهَا مِنْ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذي كَفَرَ وَاللهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمينَ﴾[2].

د ـ الشـجاعة الفائقـة في المواقف والاستقامة عليها، كما يبدو ذلك واضحاً في كـلّ مواقفـه العامـة والخاصـة: في دعوته لأبيه وقومه، وفي تكسيره للأصنام، ووقوفـه في مواجهـة قومه وهو واحد منفرد، وفي صبره على الإحراق بالنار، وفي

← ولكنّ الظاهر من الآية الكريمة في سورة الأنعام ـ بعد جمعها مع الأخبار وما استظهره فيه من العقل كما في الاحتمال الأوّل والثاني ـ أنّ الاحتمال الثالث هو الصحيح، وكان ذلك مقدّمة لحصول مضمون كل من الاحتمالين الآخرين الأوّل والثاني. والله أعلم.

(١) الأنعام: ٨٣ .

(٢) البقرة: ٢٥٨.

مجادلته لـلمَلِك، وفي هجرته إلى الأرض المباركة، وفي إسكانه لذريته في وادٍ غير ذي زرع، وفي بنائه البيت، وفي إقدامه على ذبح ولده إسماعيل، إلى غير ذلك ممّا يعبّر عن هذا البعد في شخصيته[١].

حياة إبراهيم عليه السلام

يمكن تقسيم حياة إبراهيم وقصّته من خلال ما عرضه القرآن الكريم في مواضع متعدّدة إلى أربع مراحل، وهي:

١ ـ مرحلة الفتوة.

٢ ـ مرحلة الدعوة والمواجهة.

٣ ـ مرحلة الهجرة وإبلاغ رسالة التوحيد.

٤ ـ مرحلة الإمامة وبناء الكعبة.

المرحلة الأولى: مرحلة الفتوّة

ولد إبراهيم عليه السلام في (فدان آرام) من أرض العراق كما تذكر التوراة أو (بابل) كما تذكر بعض النصوص التأريخية والروايات، وفي بيت وثني؛ إذ كان أبوه الذي سمّاه القرآن الكريم (آزر) نجّاراً ينحت الأصنام، ويبيعها لمن يعبدها كما نصّ على ذلك إنجيل برنابا[٢]، وورد أنّه كان منجّماً لنمرود، ويمكن أن يكون قد جمع بين الأمرين.

---

(١) لمزيد الفائدة وازن ما ذكرناه هنا عن أبعاد شخصية إبراهيم بما ذكره العلاّمة الطباطبائي في الميزان ٧: ٢١٧ ـ ٢١٨، وكذلك ما ورد في البحار عن كتاب الخصال للصدوق ١٢: ٦٦ ـ ٧٠.

(٢) قصص الأنبياء للنجار: ١١٨.

ولكــن إبراهــيم عليه السلام مــنذ طفولته وحتى وصوله إلى مرحلة التمييز والفتوة كــان يعــيش في معــزل عــن قومــه كما تشير إلى ذلك بعض النصوص التأريخية، وبعــض الروايات المروية المعتبرة عن أهل البيت عليهم السلام [١] وقد أدرك في هذه العزلة

---

(١) أبي وابن الوليد معاً، عن سعد، عن ابن يزيد، عن ابن أبي عمير، عن هشام بن سالم، عن أبي بصير، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «كان أبو إبراهيم منجّماً لنمرود بن كنعان، وكان نمرود لا يصدر إلاّ عن رأيه، فنظر في النجوم ليلة من الليالي فأصبح، فقال: لقد رأيت في ليلتي هذه عجباً، فقال له نمرود: وما هو ؟ فقال: رأيت مولوداً يولد في أرضنا هذه يكون هلاكنا على يديه، ولا يلبث إلاّ قليلاً حتى يحمل به، فعجب من ذلك نمرود، وقال: هل حمل به النساء؟، فقال: لا.

وكان فيما أوتي من العلم أنّه سيحرق بالنار، ولم يكن أوتي أنّ اللّه سينجيه، قال: فحجب النساء عن الرجال، فلم يترك امرأة إلاّ جعلت بالمدينة حتى لا يخلص إليهن الرجال، قال: وباشر أبو إبراهيم امرأته فحملت به، فظنّ أنّه صاحبه، فأرسل إلى نساء من القوابل لا يكون في البطن شيء إلاّ علمن به، فنظرن إلى أم إبراهيم فألزم اللّه تبارك وتعالى ذكره ما في الرحم الظهر، فقلن: ما نرى شيئاً في بطنها، فلمّا وضعت أمّ إبراهيم أراد أبوه أن يذهب به إلى نمرود، فقالت له امرأته: لا تذهب بابنك إلى نمرود فيقتله، دعني أذهب به إلى بعض الغيران أجعله فيه حتى يأتي عليه أجله، ولا تكون أنت تقتل ابنك، فقال لها: فاذهبي، فذهبت به إلى غار، ثم أرضعته، ثمّ جعلت على باب الغار صخرة، ثمّ انصرفت عنه، فجعل اللّه رزقه في إبهامه فجعل يمصّها، فيشرب لبناً، وجعل يشبّ في اليوم كما يشب غيره في الجمعة، ويشبّ في الجمعة كما يشبّ غيره في الشهر، ويشبّ في الشهر كما يشبّ غيره في السنة، فمكث ما شاء اللّه أن يمكث.

ثمّ إنّ أمه قالت لأبيه: لو أذنت لي أن أذهب إلى ذلك الصبي فأراه فعلت، قال: فافعلي، فأتت الغار فإذا هي بإبراهيم عليه السلام، وإذا عيناه تزهران كأنّهما سراجان، فأخذته، وضمته إلى صدرها وأرضعته، ثمّ انصرفت عنه، فسألها أبوه عن الصبي؟، فقالت: قد واريته في التراب، فمكثت تعتل، فتخرج في الحاجة، وتذهب إلى إبراهيم عليه السلام فتضمّه إليها وترضعه، ثمّ تنصرف.

فلمّا تحرّك أتته أمّه كما كانت تأتيه، وصنعت كما كانت تصنع، فلما أرادت الانصراف أخذ ثوبها، فقالت له: ما لك؟، فقال: اذهبي بي معك، فقالت له: حتى استأمر أباك، فلم يزل إبراهيم في الغيبة مخفيّاً لشخصه كاتماً لأمره حتى ظهر، فصدع بأمر اللّه سبحانه وتعالى ذكره، وأظهر اللّه ←

الحقـائق الإلهـية حيـث إنّـه خرج يوماً من مكانه متأمّلاً في هذا الكون والوجود يفـتّش عـن ربّـه في السـماء، وقد غابت الشمس، فنظر إلى أحد الكواكب الذي يقال: إنّه الزهرة، فقال: ﴿هذَا رَبِّيّ﴾ ـ على الفرض والاحتمال ـ فلما غاب وأفل، قـال: ﴿لا أحـبّ الآفلينَ﴾ ثم نظر إلى الشرق وقد رأى القمر قد طلع، فقال: ﴿هذا رَبِّيّ﴾ هـذا أكـبر وأحسن، فلما تحرك وزال قال: ﴿لَئنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّيّ لأكُونَنَّ مِنْ القَـوْمِ الضـالّين﴾ فـلمّا أصبح وطلعت الشمس، ورأى ضوءها وقد أضاءت الدنيا لطلوعهـا، قال: ﴿هذا رَبِّيّ هذَا أكْبَر﴾ وأحسن، فلمّا تحركت وزالت كشف اللّه عن السـماوات حـتى رأى ملكوت السماوات والأرض، فعند ذلك قال: ﴿يَـا قَوْمِ إنِّيّ بَـرِيءٌ ممّـا تُشْرِكُونَ إنِّيّ وَجّهْتُ وَجْهِي لِلّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالأرض حَنِيفاً وَمَا أنَا مِنْ الْمُشْرِكِينَ﴾[1].

وقـد كانـت فطـرة إبراهـيم طاهرة زكية، وقلبه سليماً لم يتلوث بالأدناس والأرجاس وعبادة الأوثان، أو ممّـا كان قومه عليه من الفساد والانحراف، فشاهد الحقّ، ووصل إليه بتوفيق اللّه تعالى.

وعـندما دخـل بيت أبيه آزر أخذ يحاجّه في عبادته للأصنام، ويدعوه إلى رفضـها وتوحيد اللّه تعالى، واتباعه حتى يهديه اللّه إلى الصراط المستقيم، ويبتعد عن ولاية الشيطان وعبادته، ولم يزل يلحّ عليه بذلك حتى نهره وطرده وأبعده عن نفســه، وأخـذ يهـدّده ويوعّده بالرجم والعذاب إن لم ينتهِ عن ذكر آلهته بسوء أو

← قدرته فيه ». البحار ١٢: ٤١ عن كمال الدين للصدوق.

ولكن الشيخ الراوندي ذكر في قصص الأنبياء هذه الرواية عن الصدوق مع فارق مهم، وهو: أنّ آزر كان عمّ إبراهيم، وأنّ (تارخ) كان قد وقع على أم إبراهيم فحملت به.

(١) تفسير علي بن إبراهيم القمي ١: ٢٠٦، ٢٠٧، والآية ٧٨ ـ ٧٩ من سورة الأنعام.

الرغبة عنها، فتلطّف إبراهيم بأبيه إرفاقاً به وحناناً عليه، وقد كان ذا خُلق كريم، فسلّم عليه، ووعده بأن يستغفر لـه اللّه تعالى، ويشاركه الحديث ويعتزله وعبادة الآلهة ليتوجه إلى عبادة اللّه وحده.

وقد كان إبراهيم ـ من جانب آخر ـ يحاج قومه في أمر الأصنام حتى ألزمهم الحقّ، وشاع خبره بين الناس في الانحراف عن الأصنام والآلهة.

وقد كان قومه يخوّفونه من انتقام الآلهة ونزول العذاب به بسبب رفضه لعبادتها، ودعوة الناس لاجتنابها، ولكنّه عليه السلام كان يجيبهم بأنّهم أحقّ بالخوف؛ لأنّهم مشركون، وهو أحقّ بالأمن؛ لأنّه آمن باللّه وحده لا شريك له، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إبراهيم لأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَاماً آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلاَلٍ مُبِينٍ * وَكَذَلِكَ نُرِي إبراهيم مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرضِ وَلِيَكُونَ مِنْ الْمُوقِنِينَ * فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَباً قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لاَ أُحِبُّ الافِلِينَ * فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغاً قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لأَكُونَنَّ مِنْ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ * فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ * إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِي لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرض حَنِيفاً وَمَا أَنَا مِنْ الْمُشْرِكِينَ * وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِي فِي اللهِ وَقَدْ هَدَانِي وَلاَ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلاَّ أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئاً وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً أَفَلاَ تَتَذَكَّرُونَ * وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلاَ تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَاناً فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالامْنِ إِنْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمْ الامْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ * وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إبراهيم عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾[1].

(١) الأنعام: ٧٤ ـ ٨٣.

وقال تعالى: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إبراهيم إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقاً نَبِيّاً * إِذْ قَالَ لأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لاَ يَسْمَعُ وَلاَ يُبْصِرُ وَلاَ يُغْنِي عَنْكَ شَيْئاً * يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطاً سَوِيّاً * يَا أَبَتِ لاَ تَعْبُدْ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمنِ عَصِيّاً * يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنْ الرَّحْمنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيّاً * قَالَ أَرَاغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إبراهيم لَئِنْ لَمْ تَنتَهِ لأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيّاً * قَالَ سَلاَمٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيّاً * وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَى أَلاَّ أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيّاً﴾[1].

ويبدو أنّ إبراهيم عليه السلام في هذه المرحلة:

١ ـ كان يعيش الفطرة النقية والقلب السليم.

٢ ـ استخدم عقله ووجدانه للوصول إلى الحقيقة، فأعانه اللّه سبحانه وتعالى على ذلك بإراءته ملكوت السماوات والأرض.

٣ ـ المجادلة بالحكمة والموعظة الحسنة لأبيه وأهله ثمّ لقومه.

٤ ـ اللطف والمصاحبة بالمعروف لأبيه آزر.

٥ ـ المهادنة والمتاركة لأبيه وقومه، والانفصال عنهم في الحياة الاجتماعية والدينية، والتوجه إلى اللّه تعالى بالعبادة؛ إذ كان يعمل مع أبيه وهو نجّار يصنع الأوثان.

وتشير بعض الروايات عن أهل البيت عليهم السلام الى أنّ إبراهيم كان يسخر من الأوثان والأصنام في هذه المرحلة، حيث كان أبوه يدفع له الأصنام؛ ليبيعها كما

---

(١) مريم: ٤١ ـ ٤٨.

يبيع إخوته، فكان يعلّق في أعناقها الخيوط، ويجرّها على الأرض ويقول: « من يشتري ما لا يضرّه ولا ينفعه »[١] ويغرقها في الماء والحماة، ويقول لها: « اشربي وتكلّمي »[٢] !! فذكر إخوته ذلك لأبيه، فنهاه، فلم ينته، فحبسه في منزله ولم يدعه يخرج[٣].

المرحلة الثانية: مرحلة الدعوة والمواجهة

لم يحدّد القرآن الكريم الوقت الذي خوطب به إبراهيم عليه السلام بالرسالة والدعوة، كما هو الحال بالنسبة إلى موسى عليه السلام، ولكن يبدو ـ والله أعلم ـ أنّ الخطاب بالرسالة كان بعد فترة العزلة عن أبيه ومجتمعه، حيث اتسم موقف إبراهيم عليه السلام بعدّة سمات جديدة:

أ ـ المواجة بعد المهادنة.

ب ـ البراءة من أبيه بعد الاستغفار له.

ج ـ الشدّة في التعامل مع عبادة الأصنام، بعد أن كان الموقف السابق يتصف بالاحتجاج الكلامي اللين، أو السخرية الفردية الخاصة.

وهذا التطور في الموقف يعبّر عن وضع جديد يتسم بالمسؤولية الكبيرة وتحمل الأعباء والأخطار، وهو ينسجم مع افتراض توجه الخطاب الإلهي له بالنبوّة والرسالة.

ويبدو ذلك واضحاً من خلال المقارنة بين ما ورد في سورة الأنعام ومريم، مع ما ورد في سورة الأنبياء والشعراء والعنكبوت والصافات.

---

(١) شرح أصول الكافي ١٢: ٥٣١.

(٢) شرح أصول الكافي ١٢: ٥٣٢.

(٣) تفسير القمي ١: ٢٠٨.

وهنا نجد أن إبراهيم عليه السلام:

١ ـ قد أخذ ينتقد بشكل علني وواضح عبادة قومه للأصنام، ويستنكر عليهم ذلك، ويحتج على هذا الانحراف والضلالة بأنّ هذه الأصنام لا تنفع ولا تضر، ولا تملك الرزق، ولا تسمع الدعاء، ولا تبصر الأشياء، وأنّها إفكٌ قد افتراه الناس على اللّه تعالى وعلى الحقيقة، ولم يجد جواباً عن هذا الاحتجاج والاستنكار إلاّ جواباً واحداً، وهو: أنّهم يقلّدون آباءهم الأقدمين في هذه العبادة.

٢ ـ ولمّا ألحّ عليهم بالاحتجاج والطلب أخذوا يستغربون منه ذلك، ويتعجبون من حديثه، وهل هو حديث جدٍّ وحقٍّ أو كان يلعب ويمزح معهم: ﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللاعِبِينَ﴾[1]. ولكنّه عليه السلام أكّد أنّه جاء بالحقّ وأنّ الربّ هو اللّه سبحانه وتعالى ربّ السماوات والأرض الذي فطرهن، وأنّه هو الشاهد على الحقيقة المطلع على هذا الواقع: ﴿الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ * وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ * وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ * وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ * وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ﴾[2].

ثمّ أخذ يتوجه إلى ربّه بالدعاء مؤكداً ذلك: ﴿رَبِّ هَبْ لِي حُكْماً وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ * وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الآخِرِينَ * وَاجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ * وَاغْفِرْ لأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ * وَلاَ تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ * يَوْمَ لاَ يَنْفَعُ مَالٌ وَلاَ بَنُونَ * إِلاَّ مَنْ أَتَى اللهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾[3].

---

(١) الأنبياء: ٥٥.

(٢) الشعراء: ٧٨ ـ ٨٢.

(٣) الشعراء: ٨٣ ـ ٨٩.

٣ ـ وفي تطور آخر أخذ يعظُهم، ويذكّرهم بالآخرة والنشأة الآخرة وبمواقف الأمم السابقة من الأنبياء والرسالات، وما نزل بهم من عذاب بسبب تكذيبهم، وإنّهم مهما أُوتوا من قوة فهم لا يعجزون اللّه سبحانه وتعالى أن يأخذهم بالعذاب: ﴿وَإِنْ تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلاَّ الْبَلاَغُ الْمُبِينُ * أَوَ لَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ * قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الآخِرَةَ إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ * وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي السَّمَاءِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ * وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللهِ وَلِقَائِهِ أُولَئِكَ يَئِسُوا مِنْ رَحْمَتِي وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[١].

٤ ـ وفي تطور رابع أخذ إبراهيم يتبرأ بشكل علني وواضح من الآلهة، ويظهر العداوة لهم، ويتوعد ويهدد بالكيد لهم والقضاء عليهم؛ ليثبت بشكل واضح عجزها عن الدفاع عن نفسها، أو قدرتها على أن تفعل شيئاً لنفسها، بل هي أدنى وأعجز من الإنسان نفسه الذي يتمكن من الأكل والشرب والكلام، وهي لا تتمكن من ذلك كلّه. قال تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلاَّ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾[٢]، وقال تعالى: ﴿وَتَاللّه لأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ﴾[٣].

وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبراهِيمُ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ * إِلاَّ

---

(١) العنكبوت: ١٨ ـ ٢٣.

(٢) الشعراء: ٧٧.

(٣) الانبياء: ٥٧.

الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ * وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾[١].

وقال تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إبراهيم وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَداً حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللهِ وَحْدَهُ إِلاَّ قَوْلَ إبراهيم لأَبِيهِ لأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللهِ مِنْ شَيْءٍ رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾[٢]. ولما تبيّن لإبراهيم أنّ أباه عدوٌّ لله تبرأ منه أيضاً، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إبراهيم لأَبِيهِ إِلاَّ عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ للهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إبراهيم لأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾[٣].

٥ ـ وفي تطور آخر بدأ إبراهيم يخطط للدخول في مواجهة عملية وميدانية فعلية، ولم يكتف بالحديث والكلام والبراءة من قومه وممّا يعبدون.

فقد توعّد قومه أن يكيد لأصنامهم، فخرج قومُه ذات يوم إلى عبادة جامعة لهم خارج البلد، أو إلى عيد من أعيادهم، أو يوم من أيامهم يخرجون فيه من منازلهم إلى خارج البلد ـ كما يفعل بعض الناس ذلك في يوم ١٣ فروردين من السنة الشمسية في بلاد فارس وغيرها ـ وتخلّف عنهم إبراهيم متعللاً بالسقم، فلم يخرج معهم، ودخل بيت الأصنام وأخذ قدوماً بيده، فراغ على آلهتهم ضرباً باليمين، فجعلهم جذاذاً وأجزاءً محطمة، واستثنى من ذلك كبير الأصنام، لعلّهم يرجعون إليه بالسؤال لمعرفة الحقيقة.

---

(١) الزخرف: ٢٦ ـ ٢٨.

(٢) الممتحنة: ٤.

(٣) التوبة: ١١٤.

فلمّا رجعوا وشاهدوا ما حدث لآلهتهم أخذوا يسألون، ويفتشون عمّن فعل بهم ذلك، فقال بعضهم: سمعنا فتى يذكرهم يقال له: إبراهيم.

فأحضروا إبراهيم إلى مجمعهم، وأتوا به على أعين الناس؛ ليشهدوا استنطاقه، وانتهز إبراهيم هذه الفرصة ليبلّغ دعوته مع الحجّة البالغة والدليل الواضح، كما صنع موسى عليه السلام بعده في قضية المباراة مع السحرة.

قالوا: أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا إبراهيم؟!

قال لهم على نحو الاحتجاج والإلزام لا الجد والأخبار، ليكشف لهم حقيقة الأصنام عملياً: إنّ هذا ممّا فعله كبيرهم بهم ـ وأشار إليه ـ فاسألوهم إن كانوا ينطقون.

وقد قال لهم ذلك وهو يعلم أنّه لا يصدقونه على ذلك؛ لأنّهم يعلمون أنّ هذه الأصنام جمادات لا يقدر أيّ واحد منهم على هذا الفعل، ولا على الأخبار عن الواقع، وبذلك يكون إبراهيم قد ألزمهم بالحجّة العملية، وواجههم بعجز الأصنام وعدم قدرتها على الضرّ أو النفع أو الكلام أو السمع؛ ولذلك لمّا سمعوا منه هذا الكلام رجعوا إلى أنفسهم، فعرفوا الحقيقة، وقالوا: إنّكم أنتم الظالمون بعبادة الأوثان وبالشرك باللّه تعالى، ولكنّهم نكسوا على رؤوسهم مرة أخرى، وأخذتهم العزّة بالإثم والجحود، فقالوا: لقد علمت أنّ هؤلاء لا ينطقون؟!

قال: أفتعبدون من دون اللّه ما لا يضركم ولا ينفعكم؟! أفٍّ لكم وما تعبدون من دون اللّه أفلا تعقلون، أتعبدون ما تنحتونه بأيديكم، وتصنعونه بأنفسكم وتتركون عبادة اللّه الذي خلقكم وما تعملون؟!

٦ ـ وفي تطور آخر للموقف نجد قوم إبراهيم ـ وعلى رأسهم ملكهم النمرود على ما ذكرته بعض النصوص التأريخية والروايات ـ يتخذون قراراً، ويصدرون حكماً بإحراق إبراهيم عليه السلام عقاباً له على هذا العمل الذي كانوا يرونه

جريمة من أكبر الجرائم في حقّهم وحقّ مجتمعهم، وذلك بعد أن كانوا قد نكسوا على رؤوسهم، واستمراراً منهم في موقفهم، وأخذ يحرّض بعضهم بعضاً على نصرة آلهتهم، فبنوا له بنياناً، وأسعروا فيها جحيماً من النار، وقد اشترك في هذا الأمر عامة الناس، وألقوه في الجحيم التي أسعروها من خلال رميه بالمنجنيق على ما تذكر بعض النصوص.

٧ ـ وهنا حدثت المفاجأة التي ادهشت الجميع؛ إذ إنّ اللّه سبحانه وتعالى أمر النار أن تكون برداً وسلاماً على إبراهيم، وأبطل كيدهم بذلك.

وتذكر بعض النصوص أن نمرود نظر إلى إبراهيم عليه‌السلام وقد أنجاه اللّه سبحانه وتعالى من النار، فقال متعجباً: من اتخذ إلهاً فليتخذ مثل إله إبراهيم.

٨ ـ وقد أدخل إبراهيم عليه‌السلام في مثل هذه الأحوال على الملك، وكان يعبدة القوم، ويتخذونه رباً، فحاجّ الملكُ إبراهيمَ في ربِّه[1].

فقال له الملك: مَنْ ربّك هذا؟، قال إبراهيم: ربي الذي يحيي ويميت، قال له الملك: أنا أحيي وأميت، فقال له إبراهيم: كيف تحيي وتميت؟ قال: أعمد إلى رجلين ممّن وجب القتل عليهما، فأطلق أحدهما وأعفو عنه، وأقتل الآخر، فأكون قد أمت وأحييت، فقال إبراهيم عليه‌السلام: إن كنت صادقاً فأحيي الذي قتلته، ثم قال عليه‌السلام: يا هذا فإنّ ربي يأتي بالشمس من المشرق، فات بها من المغرب! فبهت الذي كفر، وانقطع عن الاحتجاج[2].

٩ ـ وقرر إبراهيم الهجرة ـ مع من آمن معه ـ من بلاده إلى الأرض

---

(١) ويقول علي بن إبراهيم القمي في تفسيره: إنّ هذه الواقعة كانت بعد نجاته من الاحراق بالنار ـ وهذا هو مقتضى التسلسل الطبيعي للأحداث ـ حيث أثار ذلك عند الملك هذا السؤال.

(٢) تفسير القمي ١: ٨٦، ومجمع البيان ٢: ١٦٩.

المقدسة المباركة ليدعو إلى اللّه تعالى؛ وذلك إمّا لوجود فرصة أفضل للدعوة إلى اللّه تعالى وإبلاغ رسالته، كما قد يفهم ذلك من قوله تعالى: ﴿فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّيَ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾[1].

وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾[2]، أو أنّ اللّه أنجاه من القوم الكافرين بقرار من الملك بنفيه إلى الأرض المباركة، كما تنص على ذلك بعض الروايات[3]، وقد يفهم من قوله تعالى: ﴿وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطاً إِلَى الأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ﴾[4].

ونلاحظ في هذه المرحلة الأُمور التالية:

١ ـ اتبع في دعوته إلى قومه سبيل الحكمة والموعظة الحسنة والتدرج في إبلاغ الدعوة، واستخدم في ذلك العقل والمنطق السليم ومخاطبة الوجدان، وبدأ بأهله وعشيرته، ثمّ بالناس عموماً حتى انتهى الأمر به إلى مجادلة الملك نفسه.

٢ ـ لم يؤمن له أحد من قومه إلاّ لوط ـ كما يصرّح القرآن الكريم باسمه ـ وزوجته سارة التي كان قد تزوّج بها قبل هجرته، كما تشير الآيات الدالة على سؤاله من ربّه أن يهب له الذرية الصالحة، وكما تؤكّد ذلك بعض الروايات.

كما أنّ قوله تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبراهيم وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ﴾[5] يدلّ على وجود أكثر من واحد من المؤمنين معه.

---

(١) العنكبوت: ٢٦.

(٢) الصافات: ٩٩.

(٣) روضة الكافي: ٣٧٠.

(٤) الأنبياء: ٧١.

(٥) الممتحنة: ٤.

هـذا كلّـه كـان يحصـل بالرغم مما بذله إبراهيم من عناء وتعب وجهود في سبيل إبلاغ الدعوة.

٣ ـ اتـبع أسـلوب التخطـيط في المواجهـة مـع الشـجاعة الفائقة، والصبر والـتوكل عـلى اللّـه تعـالى، وتحمل المسؤولية بمفرده، وتحمل نتائجها مهما كانت، والاستقامة على الموقف مهما كانت الظروف.

٤ ـ الـبراءة المطلقة من الكافرين حتى لو كانوا أقرب الناس إليه؛ ولذا كان إبراهـيم قـدوة لكـلّ المؤمـنين بالرسـالات الإلهية الخاتمة، كما ذكرنا ذلك سابقاً، وتشير إليه الآيات السابقة في النقطة الثانية.

المرحلة الثالثة: مرحلة الهجرة وإبلاغ رسالة التوحيد

لقـد قـرّر إبراهيم الهجرة إلى الأرض المقدسة التي باركها اللّه تعالى، وهي: أرض فلسـطين، وقد صحب معه في هذه الهجرة لوط، وهو من أقربائه، كما يذكر في الـتأريخ؛ إذ إنّـه ابـن أخيه على ما تذكر النصوص التوراتية[1] وقيل: إنّه ابن خالـته كمـا تشـير إلى ذلك بعض الروايات، وإنّ سارة زوجة إبراهيم هي أخت لوط[2].

يـبدو من بعض الروايات أنّ إبراهيم عندما هاجر إلى الأرض المباركة كان في سعة من الرزق والمال؛ إذ كانت سارة زوجته ذات مال، وقد نماه بعمله، وأخذه معه في هجرته.

ولا يحدثـنا القرآن الكريم عن تفاصيل هذه المرحلة المهمة من حياة إبراهيم عليه السلام

---

(١) الميزان ٧: ٢١٩ عن التوراة.

(٢) علل الشرائع ١: ١٤٩.

ولكـن الـنصّ الـتوراتي الـذي يتحدّث عن إبراهيم يبدأ بهذه المرحلة من حياته، ويذكر تفاصيل صغيرة، وقصّة فيها الكثير من الغرابة.

كمـا أنّ بعض الروايات التي وردت عن النبي من طرق الجمهور تكاد تتفق مـع النص التوراتي في تفاصيله، الأمر الذي يؤشّر على تسرب الإسرائيليات لهذه الروايات[١].

وقـد وردت الرواية عن أهل البيت في هذا الموضوع أيضاً، ولكنّها نقية من الشوائب التوراتية، ولذا نذكر مضمونها بصورة إجمالية:

١ـ فأخـرجوا إبراهـيم ولوطـاً معـه من بلادهم إلى الشام، فخرج إبراهيم ومعـه لوط لا يفارقه وسارة، وقال لهم: ﴿إِنِّي ذَاهِـبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ يعني: إلى بيـت المقدس، فتحمّل إبراهيم عليه السلام بماشيته وماله، وعمل تابوتاً وجعل فيه سارة، وشـدّ عليها الأغلاق غَيرة منه عليها، ومضى حتى خرج من سلطان نمرود، وسار إلى سـلطان رجـل من القبط يقال لـه: عرارة، فمرّ بعاشر لـه، فاعترضه العاشر؛ ليعشر ما معه، فلمّا انتهى إلى العاشر ومعه التابوت قال العاشر لإبراهيم عليه السلام: افتح هـذا التابوت حتى نعشر ما فيه، فقال لـه إبراهيم عليه السلام: قل ما شئت فيه من ذهب أو فضـة حـتى نعطي عشره ولا نفتحه، قال: فأبى العاشر إلاّ فتحه، قال: وغضب إبراهـيم عليه السلام عـلى فـتحه، فـلمّا بـدت لـه سـارة ـ وكانت موصوفة بالحسن والجمال ـ قال له العاشر: ما هذه المرأة منك؟

قـال إبراهيم: هي حرمتي وابنة خالتي، فقال لـه العاشر: فما دعاك إلى أن

---

(١) للمزيد من الاطلاع راجع النص التوراتي في قصص الأنبياء للنجار: ١٤٥. وهناك بحث قيّم بين لجنة تقييم الكتاب والمؤلف النجار حول هذا الموضوع يحسن مراجعته: ١٢٤ ـ ١٣٦، وما رواه الجمهور في قصص الأنبياء لابن كثير ١: ١٦٧ ـ ١٩١.

خبيتها في هذا التابوت؟. فقال إبراهيم ﷺ: الغيرة عليها أن يراها أحد. فقال له العاشر: لست أدعك تبرح حتى أعلم الملك حالها وحالك. قال: فبعث رسولاً إلى الملك، فأعلمه. فبعث الملك رسولاً من قبله ليأتوه بالتابوت. فأتوا ليذهبوا به. فقال لهم إبراهيم ﷺ: إنّي لست أفارق التابوت حتى يفارق روحي جسدي، فأخبروا الملك بذلك. فأرسل الملك أن احملوه والتابوت معه. فحملوا إبراهيم ﷺ والتابوت وجميع ما كان معه حتى أدخل على الملك.

فقال له الملك: افتح التابوت. فقال له إبراهيم ﷺ: أيّها الملك إنّ فيه حرمتي وبنت خالتي، وأنا مفتدٍ فتحه بجميع ما معي، قال: فغصب الملك إبراهيم على فتحه. فلمّا رأى سارة لم يملك حلمه سفهه أن مدّ يده إليها. فأعرض إبراهيم ﷺ وجهه عنها وعنه غيرة منه، وقال: اللّهم احبس يده عن حرمتي وابنة خالتي، فلم تصل يده إليها، ولم ترجع إليه. فقال له الملك: إنّ إلهك هو الذي فعل بي هذا؟ فقال له: نعم، إنّ إلهي غيور يكره الحرام، وهو الذي حال بينك وبين ما أردت من الحرام. قال له الملك: فادع إلهك يردّ عليّ يدي، فإن أجابك فلم أعرض لها. فقال إبراهيم ﷺ: إلي ردّ إليه يده؛ ليكفّ عن حرمتي، قال: فردّ اللّه عزّ وجلّ إليه يده، فأقبل الملك نحوها ببصره، ثمّ عاد بيده نحوها، فأعرض إبراهيم عنه بوجهه غيرة منه، وقال: اللّهم احبس يده عنها، قال: فيبست يده ولم تصل اليها. فقال الملك لإبراهيم: إنّ إلهك لغيور، وإنّك لغيور، فادع إلهك يردّ علّي يدي، فإنّه إن فعل لم أعد. فقال إبراهيم: أسأله ذلك على أنّك إن عدت لم تسألني أن أسأله. فقال له الملك: نعم، فقال إبراهيم: اللهم إن كان صادقاً فرد يده عليه. فرجعت إليه يده. فلمّا رأى ذلك الملك من الغيرة ما رأى، ورأى الآية في يده عظّم إبراهيم وهابه، وأكرمه واتقاه، وقال له: قد أمنت من أن أعرض لها، أو لشيء ممّا معك، فانطلق حيث شئت، ولكن لي إليك حاجة، قال إبراهيم: ما هي؟

فقال له: أحبّ أن تأذن لي أن أخدمها قبطيّة عندي جميلة عاقلة تكون لها خادماً، قال: فأذن له إبراهيم، فدعا بها، فوهبها لسارة، وهي هاجر أم إسماعيل.

فسار إبراهيم بجميع ما معه، وخرج الملك معه يمشي خلف إبراهيم إعظاماً لإبراهيم وهيبة له، فأوحى اللّه تبارك وتعالى إلى إبراهيم: أنْ قفْ ولا تمشِ قدّام الجبّار المتسلّط، ويمشي وهو خلفك، ولكن اجعله أمامك، وامشِ خلفه وعظّمه وهبْه، فإنّه مسلط، ولابدّ من إمرة في الأرض برّة أو فاجرة، فوقف إبراهيم وقال للملك: امضِ فإنّ إلهي أوحى إليّ الساعة أن أعظّمك، وأهابك وإن أقدّمك أمامي، وأمشي خلفك إجلالاً لك، فقال له الملك: أوحى إليك بهذا؟ فقال له إبراهيم: نعم.

فقال له الملك: أشهد أنّ إلهك لرفيق حليم كريم، وأنّك ترغّبني في دينك، قال: وودّعه الملك، فسار إبراهيم حتى نزل بأعلى الشامات، وخلّف لوطاً عليه السلام في أدنى الشامات.

ثم إنّ إبراهيم لمّا أبطأ عليه الولد قال لسارة: لو شئت لبعتيني هاجر، لعلّ اللّه أن يرزقنا منها ولداً، فيكون لنا خلفاً، فابتاع إبراهيم هاجر من سارة، فوقع عليها، فولدت اسماعيل عليه السلام[1].

٢ ـ وقد استجاب اللّه سبحانه وتعالى لإبراهيم دعاءه في طلب الذرية الصالحة، فولد له إسماعيل، كما يشير القرآن الكريم إلى ذلك في قصّة الذبيح من قوله تعالى في سورة الصافات: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنْ الصَّالِحِينَ * فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلاَمٍ حَلِيمٍ * فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللهُ مِنْ الصَّابِرِينَ * فَلَمَّا أَسْلَمَا

---

(١) الكافي ٨: ٣٧٣.

وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ * وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إبراهيم * قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلاَءُ الْمُبِينُ * وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ * وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الآخِرِينَ * سَلاَمٌ عَلَى إبراهيم * كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾(١).

ثم يقـول القـرآن الكريم: ﴿وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيّاً مِنْ الصَّالِحِينَ * وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَى إِسْحَاقَ﴾(٢).

ثمّ كانـت البشـارة الأخرى التي ذكرها القرآن الكريم في عدة مواضع، هي: البشـارة بولادة إسحاق من زوجه العقيم سارة، حيث جاءت رسل اللّه وملائكته إبراهـيم عـلى شكل ضيوف مكرمين، فقدّم لهم إبراهيم الطعام على شكل عجل سمـين، فلم يمدّوا أيديهم له، فاستغرب ذلك منهم، وأوجس خيفة، فذكروا أنّهم قد أرسـلوا إلى قـوم لوط، لينزلوا فيهم عذاب اللّه، وكانت امرأة إبراهيم حاضرة في هذه الحادثة، فتوجهوا إليها، وبشّروها بالولد إسحاق، وأنّه يولد لـه ذرية صالحة، وهـو يعقـوب، فتعجبـت مـن ذلـك؛ لأنّها عقيم قد بلغت سن اليأس، وأصبحت عجـوزاً، فقالـت: أألـد وأنـا عجـوز، وهـذا بعـلي إبراهيم شيخاً إن هذا لشيء عجيـب... قـالوا لهـا: أتعجبين من أمر اللّه سبحانه وتعالى في شأنكم، فإنّ رحمته وبـركاته علـيكم أهـل البيت إنّ اللّه حميد مجيد، قال تعالى: ﴿وَلَقَـدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إبراهيم بِالْبُشْرَى قَالُوا سَلاَماً قَالَ سَلاَمٌ فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ * فَلَمَّا رَأَى

---

(١) الصافات: ١٠٠ ـ ١١٠.

(٢) الصافات: ١١٢ ـ ١١٣. والقرآن الكريم وإن لم يسمّ الغلام الحليم باسمه، ومن ثمّ لا يصرّح باسم الذبيح، لكنّ التوراة تصرح في نصوصها بشكل واضح: أنّ إسماعيل قد ولد لإبراهيم قبل إسحاق بثلاث عشرة سنة، وسوف نبين أنّ الذبيح هو إسماعيل كما يفهم من هذه الآيات. ومن الروايات التي وردت عن أهل البيت عليهم السلام لمزيد من المعلومات راجع قصص الأنبياء للنجّار: ١٤٧ ـ ١٤٩، والميزان ٧: ٢٣٢ ـ ٢٣٤. منه قدس سره.

أيديَهُمْ لاَ تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لاَ تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ * وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ * قَالَتْ يَا وَيْلَتَا أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهذَا بَعْلِي شَيْخاً إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ * قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللهِ رَحْمَةُ اللهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ * فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إبراهيم الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ * إِنَّ إبراهيم لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ * يَا إبراهيم أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ﴾[1].

وقال تعالى: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إبراهيم الْمُكْرَمِينَ * إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلاَماً قَالَ سَلاَمٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ * فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ * فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلاَ تَأْكُلُونَ * فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لاَ تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلاَمٍ عَلِيمٍ * فَأَقْبَلَتْ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ * قَالُوا كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ * قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ * قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ * لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ طِينٍ * مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ﴾[2].

وقال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إبراهيم بِالْبُشْرَى قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُو أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ * قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطاً قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلاَّ امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ﴾[3].

---

(١) هود: ٦٩ ـ ٧٦.

(٢) الذاريات: ٢٤ ـ ٣٤.

(٣) العنكبوت: ٣١ ـ ٣٢.

٣ ـ ومـن الأحداث المهمة في هذة المرحلة هي: قصّة ذهاب لوط إلى أهل (سدوم)[١]؛ لدعوتهم إلى اللّه تعالى، وهدايتهم إلى طريق الصواب.

وتفصيل هذه القصّة يُتحدّث عنها عادة في قصّة لوط، ولكن الذي يهمنا من هذه القصّة في موضوع إبراهيم أمران:

أ ـ ذهـاب لوط إلى قوم سدوم لهدايتهم، بعد أن تعرضوا لانحراف أخلاقي فريد في تاريخ البشرية حتى ذلك الوقت، ويبدو من القرآن الكريم أنّ هذا الذهاب إلـيهم كـان إرسـالاً من إبراهيم لابن أخيه أو ابن أخته؛ للقيام بواجبات الرسالة والدعوة[٢]، فإنّ هجرتهما كانت في سبيل اللّه ومن أجل اللّه تعالى.

ب ـ إنّ رسـل اللّـه ـ الملائكـة ـ عـندما جاءوا لإنزال العذاب بقوم لوط جـاءوا لإبراهـيم أولاً ليخبروه بذلك، وإنّ إبراهيم يجادلهم في هذا الأمر، ويطلب مـنهم تأجيل العذاب؛ لأنّ فيها لوطاً، ولمّا أخبروه بأنّ الإرادة الإلهية اقتضت نجاة لـوط وأهلـه، أخـذ يجـادلهم في قوم لوط، ولكن الملائكة أخبروه بأنّ هذا القرار والإرادة نهائـية لا بـداء فـيها ولا تغيير[٣]، وهذا فيه إشارة ـ أيضاً ـ إلى ارتباط موضـوع لوط بإبراهيم عليه السلام، قال تعالى: ﴿جَاءَتْ رُسُلُنَا إبراهيم بِالْبُشْرَى قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُـو أَهْـلِ هَـذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ * قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطاً قَالُوا نَحْنُ

---

(١) هذا ما ذكرته التوراة في اسم المنطقة التي ذهب إليها لوط.

(٢) تذكر التوراة هنا تفاصيل حول ذهاب لوط ترتبط بموضوع معيشي: إذ اتخذ لوط هذه المنطقة للسكن وإدارة أموره الحياتية، كما تشير إلى ذلك التوراة في الاصحاح ١٢ و ١٣ من سفر التكوين، النجّار قصص الأنبياء: ١٣٤. منه قدس سره.

(٣) وتذكر التوراة صورة للمجادلة من إبراهيم والملائكة بشأن قوم لوط، راجع قصص الأنبياء للنجّار: ١٣٩، الهامش. منه قدس سره.

أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلاَّ امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ﴾[١].

وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إبراهيم الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ * إِنَّ إبراهيم لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ * يَا إبراهيم أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ﴾[٢].

٤ ـ ومن الأحداث المهمة في هذه المرحلة هي: قيام إبراهيم بإسكان إسماعيل وأمه هاجر في أرض مكة من الحجاز عند البيت الحرام الذي هو أول بيت وضع للناس[٣]، وكان في وادٍ غير ذي زرع بسبب قضية شاءت الحكمة الإلهية أن يستجيب فيها إبراهيم لطلب زوجته سارة في أن يبعد عنها زوجته هاجر وولدها إسماعيل، كما تذكر ذلك النصوص التوراتية والروايات الواردة عن أهل البيت عليهم السلام مع اختلاف بينها في بعض التفاصيل[٤]، ويذكر القرآن أصل القضية:

---

(١) العنكبوت: ٣١ ـ ٣٢.

(٢) هود: ٧٤ ـ ٧٦.

(٣) سوف نشير في هامش الخصيصة الثالثة من خصائص هذه المرحلة النص الذي يؤكّد هذا البعد التأريخي للبيت الحرام.

(٤) عن هشام، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «إنّ إبراهيم عليه السلام كان نازلاً في بادية الشام، فلما ولد له من هاجر إسماعيل اغتمت سارة من ذلك غمّاً شديداً؛ لأنه لم يكن له منها ولد، كانت تؤذي إبراهيم في هاجر وتغمه، فشكى إبراهيم ذلك إلى الله عز وجل، فأوحى الله إليه إنّما مثل المرأة مثل الضلع العوجاء إن تركتها استمتعتها، وإن أقمتها كسرتها. ثم أمره أن يخرج إسماعيل وأمّه، فحمل هاجر وإسماعيل، وكان إبراهيم لا يمر بموضع حسن فيه شجر ونخل وزرع إلاّ قال يا جبرائيل إلى ههنا إلى ههنا، فيقول لا أمض، امضِ حتى أتى مكة، فوضعه في موضع البيت، وقد كان إبراهيم عاهد سارة أن لا ينزل حتى يرجع إليها، فلما نزلوا في ذلك المكان كان فيه شجرة، فألقت هاجر على ذلك الشجر كساءً، وكان معها، فاستظلوا تحته، فلمّا سرحهم إبراهيم ووضعهم، وأراد الانصراف منهم إلى سارة قالت له هاجر: يا إبراهيم لم تدعنا في موضع ليس فيه أنيس ←

﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾[1].

وبذلك أصبح لإبراهيم امتداد وحضور عائلي واجتماعي جديد في قلب الجزيرة العربية، وفي هذا المكان المقدس في التأريخ الإنساني.

٥ ـ ومن الأحداث المهمة في هذه المرحلة تشريع الصلاة والزكاة، وبعض الأداب الاجتماعية والأخلاق التكاملية الإنسانية العالية التي أشار إليها القرآن الكريم، وذكرت تفاصيلها الروايات التي وردت عن النبي وأهل بيته، كما ذكرت بعضها النصوص التوراتية[2]: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى * وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى * بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى * إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى *

← ولا ماء ولا زرع؟ فقال إبراهيم: الله الذي أمرني أن أضعكم في هذا المكان حاضر عليكم، ثم انصرف عنهم، فلما بلغ كداء، وهو: جبل بذي طوى التفت إليهم إبراهيم فقال: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ ثمّ مضى، وبقيت هاجر، فلمّا ارتفع النهار عطش إسماعيل وطلب الماء، فقامت هاجر في الوادي في موضع المسعى ونادت هل في الوادي من أنيس؟ فغاب عنها إسماعيل، فصعدت على الصفا، ولمع لها السراب في الوادي، وظنت أنه ماء، فنزلت في بطن الوادي وسعت، فلما بلغت المسعى غاب عنها إسماعيل، ثمّ لمع لها السراب في ناحية الصفا، فهبطت إلى الوادي تطلب الماء، فلما غاب عنها إسماعيل عادت حتى بلغت الصفا، فنظرت حتى فعلت ذلك سبع مرات... الحديث» تفسير القمي ١: ٦٠ ـ ٦١.

(١) إبراهيم: ٣٧.

(٢) ورد في الروايات أنّ إبراهيم أوّل من أضاف الضيف (أمالي الطوسي: ٣٣٨)، كما ورد في تفسير علي بن إبراهيم: أنّ الحنيفيّة هي العشرة التي جاء بها إبراهيم: خمسة في الرأس، وخمسة في البدن، فالتي في الرأس قطم الشعر: وهو قصّه، وأخذ الشارب، وإعفاء اللحى، والسواك والخلال، وأمّا التي في البدن فالغسل من الجنابة، والطهور بالماء، وتقليم الأظافر، وحلق شعر البدن، والختان. وهذه لم تنسخ إلى يوم القيامة. تفسير القمي ١: ٥٩.

صُحُفِ إبراهيم وَمُوسَى﴾[١].

فقد أشير إلى ذلك بالصفات الخاصة المتميزة التي وصف بها القرآن الكريم إبراهيم بما لم يصف غيره من الأنبياء عدا نبينا محمّد صلى الله عليه وآله كما ذكر، كما أشير إليها بالابتلاء بالكلمات التي أشارت إليها الآية الكريمة، وشرحتها بعض الروايات[٢]: ﴿وإذ إبتَلَى إبراهيم ربّهُ بِكَلِمَات فَأتَمّهن﴾.

كما يمكن أن يكون المشار إليها بالحديث عن صحف إبراهيم الذي تذكر بعض الروايات عن رسول اللّه بأنّها عبارة عن أمثال ومفاهيم أخلاقية[٣].

٦ ـ ومن الأحداث المهمة في هذه المرحلة التي أشار اليها القرآن الكريم قضية طلب إبراهيم من ربّه أن يريه كيف يحيي الموتى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَ لَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءاً ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْياً وَاعْلَمْ أَنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[٤].

حيث ترسخ هذه القضية فكرة الدار الآخرة والبعث والنشور والحساب بشكل حسّي، وتتكامل بذلك العقيدة الإسلامية والملة الحقّة من خلال بلوغ درجة الاطمئنان، ولاسيّما أنّ هذه الفكرة لم تكن قد ترسّخت في العقل الإنساني حتى في الأوساط الدينية، وأنّ التصور العام كان هو نزول العقوبات على الذنوب والآثام، وحصول الأجر والثواب على الطاعة في المجتمع الإنساني في هذه الدنيا، كما حدث

---

(١) الأعلى: ١٤ ـ ١٩.

(٢) سوف يأتي شرح هذه (الكلمات) في خصائص المرحلة الرابعة من قصّة إبراهيم.

(٣) البحار ١٢: ٧١ عن الخصال ومعاني الأخبار للصدوق.

(٤) البقرة: ٢٦٠.

في الطوفان وعاد وثمود، وكما يدلّ عليه الخطاب الرسالي في سورة نوح.

٧ ـ ومـن الأحـداث المهمة في هذه المرحلة ـ لعلّ الحادث الآخير فيها كما تشـير إلى ذلـك بعـض الروايات ـ حادثة المنام الذي رأى فيه إبراهيم أنّه يذبح ولـده بعـد أن كـان قد بلغ مبلغ السعي والفتوة، وقيل: بلغ ثلاث عشرة سنة، كما قـيل: إنّـه بلغ مستوى العمل والعبادة للّه تعالى: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِـي الْمَـنَامِ أَنِّي أَذْبَحُـكَ فَانظُـرْ مَـاذَا تَـرَى قَـالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَـتَجِدُنِي إِنْ شَـاء اللهُ مِـنْ الصَّابِرِينَ * فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ * وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِـيمُ * قَـدْ صَـدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلاَءُ الْمُبِينُ * وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ * وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الآخِرِينَ﴾[1].

والـذي يـبدو مـن هـذه الآيات أنّ الامتحان والبلاء كان عظيماً لإبراهيم ولـده، الأمـر الـذي وصـل فـيه إبراهيم إلى الدرجة العالية التي أهلته إلى مقام الإمامة على ما تشير إلى ذلك بعض الروايات[2].

خصائص المرحلة الثالثة

يمكن أن نلاحظ في هذه المرحلة عدّة خصائص مهمة:

الأُولى: ظاهـرة التشريع، وسنّ الآداب والأخلاق في السلوك الشخصي وفي

---

(١) الصافات: ١٠٢ ـ ١٠٨.

(٢) روي عن الصادق: «أنّه ما ابتلاه اللّه به في نومه من ذبح ولده إسماعيل أبي العرب فأتمّها إبراهيم، وعزم عليها، وسلم لأمر اللّه، فلمّا عزم قال اللّه ثواباً له لما صدق وعمل بما أمره اللّه». مجمع البيان ١: ٣٧٣.

ولكن في رواية أخرى: أنّ الأمر بالذبح كان في أثناء تعليم جبرئيل لإبراهيم مناسك الحج، واللّه أعلم.

هيئة الإنسان وبدنه، وفي السلوك الاجتماعي والعلاقة مع الناس والله تعالى، والذي يشير إليها موضوع نزول الصحف على إبراهيم عليه السلام.

الثانية: تأسيس مبدأ الهجرة من أجل نشر الدعوة الإلهية والرسالة الإسلامية، هذا المبدأ الذي أصبح من المبادئ المهمة في تاريخ الرسالات الإلهية، ومنها الرسالة الخاتمة.

الثالثة: كان إبراهيم يعمل من أجل أن تكون هجرته إلى الله سبحانه وتعالى ذات بعد رسالي من خلال إبلاغ الرسالة ونشرها، وتأتي قصّة إرسال لوط إلى أهل سدوم وإسكان هاجر وابنها إسماعيل في مكة من أرض الحجاز كتعبير عن هذه المحاولات التي أشار إليها القرآن الكريم.

الرابعة: كانت رسالة إبراهيم لها امتداد حقيقي من خلال آله وأسرته، وتمثّل هذا الامتداد بإسماعيل، وإسحاق ومن ورائه يعقوب والأنبياء من بنيه. وكان ذلك تأسيساً لمبدأ جديد في الرسالات الإلهية يعتمد على اصطفاء الذرية الصالحة للأنبياء، وتأهيلهم للقيام بالأدوار الخاصة في تاريخ الرسالات الإلهية، كما حصل ذلك في آل عمران وآل محمد صلى الله عليه وآله بعد ذلك، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحاً وَآلَ إبراهيم وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ * ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[1].

وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾[2].

---

(١) آل عمران: ٣٣ ـ ٣٤.

(٢) الأحزاب: ٣٣.

الخامسة: تثبيت مبدأ المعاد ليس على مستوى النظرية والفكر الإلهي، بل على مستوى الحس والتطبيق، وهو ما يشير إليه القرآن في قصّة إحياء الطير وفي قصص أُخرى بعد ذلك، مثل: قصّة الذي أماته اللّه مائة عام وغيرها.

مرحلة الرابعة: مرحلة الإمامة وبناء الكعبة

لقد اختار اللّه سبحانه وتعالى إبراهيم في المرحلة الأخيرة من حياته إماماً للناس، كما تدل عليه الآية الكريمة: ﴿وَإِذْ ابْتَلَى إبراهيم رَبَّهُ بِكَلِمَات فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لاَ يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾[1].

وتشير الآية وتؤكد بعض الروايات أنّ هذه الإمامة كانت تمثل المرحلة الأخيرة من سيرته[2].

والقرآن الكريم لا يحدثنا عن تفاصيل هذه المرحلة شأنه في ذلك شأن المراحل السابقة أيضاً، ولكنّه يمكن أن نتصور بعض معالمها من خلال مجموعة الأحداث المهمة التي وقعت في هذه المرحلة على ما يبدو من القرآن الكريم، وتشير إليها بعض الروايات:

١ ـ نصب إبراهيم للإمامة بعد ابتلائه؛ إذ كان هذا الابتلاء بكلمة الإمامة ومنصبها، وهي: القيام بتدبير أمور الأُمّة وسياستها، وتأديب جُناتها وتولية ولاتها.

---

(١) البقرة: ١٢٤.

(٢) يمكن أن نفهم من هذه الإشارة أنّ هذه الآية وردت وكان لإبراهيم ذرية؛ ولذا طلب لهم من اللّه سبحانه وتعالى هذا المقام، وهذه الذرية إنّما كانت في المرحلة الأخيرة من حياته بعد شيخوخته وكبره. وقد مرّ علينا في الحديث عن الإمامة في شخصية إبراهيم أنّ اللّه سبحانه وتعالى قد اختاره للإمامة بعد أن اختاره عبداً ونبياً ورسولاً وخليلاً. منه ﷺ.

وإقامة الحدود على مستحقيها، ومحاربة من يكيدها ويعاديها، وعلى هذا المعنى لا يكون كلّ نبي إماماً[١].

وقد ورد في حديث عن أهل البيت أنّ هذه الكلمات كانت هي: الكلمات التي تلقّاها آدم من ربّه فتاب عليه بها، وهي: « يا رب أسألك بحق محمد وعلي وفاطمة والحسن والحسين إلاّ تبت عليّ »[٢].

ولكن الصدوق ذكر وجهاً آخر في الكلمات، وهي: الأمور التي ابتلى اللّه بها عبدة إبراهيم طيلة حياته؛ ليكون أهلاً ومستحقاً للإمامة، والتي أشار إليها القرآن الكريم، مثل: اليقين، والمعرفة، والشجاعة، والعلم، والسخاء، والعزلة عن المجتمع ـ بسبب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ـ والحكم، والانتماء إلى الصالحين والصبر، إلى غير ذلك من الصفات التي أشرنا إلى بعضها في شخصية إبراهيم، وإنّ الإمامة لا تصلح لمن عبد صنماً أو وثناً أو أشرك بالله طرفة عين، وإن أسلم بعد ذلك.

والظلم في قوله تعالى: ﴿لا يَنَالُ عَهْدِيَ الظَّالِمِينَ﴾ وضع الشيء في غير موضعه، وأعظم الظلم: الشرك، قال اللّه عزّ وجل: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾.

وكذلك لا يصلح للإمامة من ارتكب من المحارم شيئاً صغيراً كان أو كبيراً، وإن تاب بعد ذلك، وكذلك لا يقيم الحدّ مَنْ في جنبه حدّ.

إذن، فلا يكون الإمام إلاّ معصوماً، ولا تعلم عصمته إلاّ بنص اللّه عليه على لسان نبيه صلى الله عليه وآله؛ لأنّ العصمة ليست في ظاهر الخلقة فترى كالسواد والبياض

---

(١) البحار ١٢: ٥٨.

(٢) البحار ١٢: ٦٦، عن الخصال للصدوق، والحديث ضعيف.

وما أشبه ذلك، وإنما هي مغيّبة لا تُعرف إلاّ بتعريف علاّم الغيوب عزّ وجل[1].

٢ ـ تشريع ملّة الإسلام والتسمية به، حيث كان إبراهيم هو الذي أسّس هذه الملّة بوحي الله تعالى وإرادته، وهو الذي سمّاها بالإسلام، وسمّى أتباعها بالمسلمين، ووصّى بها بنيه وذريته، وطلب من ربّه أن يجعلهم أمّة مسلمة: ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إبراهيم هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا﴾[2]، وأن يعرّفهم مناسكهم وعباداتهم، وطلب من الله سبحانه وتعالى أن تتوارث ذريته هذا الصراط المستقيم حتى يبعث فيهم الرسول الذي يتلو عليهم آياته ويزكّيهم، ويعلّمهم الكتاب والحكمة.

كما أنه ﷺ سمّى هذه الأمّة من الناس بالمسلمين، وجعلهم ملّة تقتدي بها الأمم الآتية، ومنها النبي محمّد ﷺ وأمته وجماعته الذين سمّاهم المسلمين من قبل وفي عصره، قال تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إبراهيم الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ * رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً

---

(١) البحار ١٢: ٧٠، عن الخصال ومعاني الأخبار للصدوق، وهل تنصيب إبراهيم للإمامة كان في بداية هذه المرحلة؟ كما هو مقتضى طبيعة هذه الأمور الهامة التي سوف نشير إليها، وكما قد يُفهم من تسلسل ذكرها في القرآن الكريم من سورة البقرة؛ إذ ذكرت أولاً الإمامة، ثم جعل البيت وبناءه مثابة، ثمّ تشريع الإسلام ملّة ووصيته لبنيه، كما سوف نذكر ذلك.

أو هذه الإمامة كانت بعد قصّة الذبيح، كما تشير إلى ذلك بعض الروايات التي فسرت الكلمات بالأمر بالذبح لولده وإنّه بعد هذا الابتلاء كان جعله إماماً للناس، وقد أشرنا إلى ذلك في المرحلة الثالثة برقم ٧، (البحار١٢: ٥٦، عن الطوسي والقمي ٥٩) والأوّل هو الأظهر؛ لأنّه المستفاد من القرآن، وضعف الرواية إن لم نأوّلها. منه ﵀.

(٢) الحج: ٧٨.

مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ * رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمْ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ * وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إبراهيم إلاَّ مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدْ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الآخرة لَمِنْ الصَّالِحِينَ * إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ * وَوَصَّى بِهَا إبراهيم بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللهَ اصْطَفَى لَكُمْ الدِّينَ فَلاَ تَمُوتُنَّ إلاَّ وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ * أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إبراهيم وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهاً وَاحِداً وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ * تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلاَ تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُون﴾[١].

وقال تعالى: ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إبراهيم هُوَ سَمَّاكُمْ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلاَةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللهِ هُوَ مَوْلاَكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾[٢].

وقال تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إبراهيم حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنْ الْمُشْرِكِينَ﴾[٣].

وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * لاَ شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾[٤].

---

(١) البقرة: ١٢٧ ـ ١٣٤.

(٢) الحج: ٧٨.

(٣) النحل: ١٢٣.

(٤) الأنعام: ١٦٢ ـ ١٦٣.

ومضافاً إلى ذلك نجد أن إبراهيم عليه السلام يتخذ عدّة خطوات في تأسيس هذه الملّة الجديدة وتشخيص معالمها.

الخطوة الأُولى: يبدو من القرآن الكريم إن الخطوة الأولى التي كانت لتأسيس هذه الملّة والشريعة الجديدة هو: القرار بجعل منطقة مكّة ـ التي كان قد أسكن إبراهيم فيها زوجه هاجر، وذريّته إسماعيل ـ مثابة للناس وأمناً لهم يعبدون اللّه فيه، ويقيمون الصلاة للّه تعالى وحده، ويجتنبون فيه عبادة الأصنام التي كانت عبادة رائجة في كلّ مكان من العالم.

وكانت أرضية تنفيذ هذا القرار الإلهي مهيأة، من ناحية أنّ هذه الأرض هي الأرض التي كان قد بنى فيها آدم البيت الحرام، واتخذ الملائكة ـ بالأمر الإلهي ـ مكاناً فيه للعبادة، وجاء إبراهيم ليحيي هذه السنة التأريخية. وهذا الأثر الإلهي العظيم[1].

---

(١) ورد في روايات أهل البيت عليهم السلام ما يؤكد هذا البعد التأريخي الذي أشار إليه القرآن الكريم وشرحه. البحار ١٢: ٩٧ ـ ١٠٠، عن تفسير القمي. «فلما بلغ إسماعيل مبلغ الرجال أمر اللّه إبراهيم أن يبني البيت، فقال: يا ربّ في أي بقعة؟ قال: في البقعة التي أنزلت على آدم القبة فأضاء لها الحرم، فلم تزل القبة التي أنزلها اللّه على آدم قائمة حتى كان أيام الطوفان أيام نوح، فلمّا غرقت الدنيا رفع اللّه تلك القبة، وغرقت الدنيا إلاّ موضع البيت، فسميت البيت العتيق؛ لأنّه أعتق من الغرق، فلمّا أمر اللّه عزّ وجلّ إبراهيم أن يبني البيت، لم يدرِ في أي مكان يبنيه، فبعث اللّه جبرئيل عليه السلام فخط له موضع البيت، فأنزل اللّه عليه القواعد من الجنة، وكان الحجر الذي أنزله اللّه على آدم أشد بياضاً من الثلج، فلمّا مسته أيدي الكفار اسودّ، فبنى إبراهيم البيت، ونقل إسماعيل الحجر من ذي طوى، فرفعه في السماء تسعة أذرع، ثم دلّه على موضع الحجر، فاستخرجه إبراهيم ووضعه في موضعه الذي هو فيه الآن، وجعل له بابين: باب إلى المشرق، وباب إلى المغرب، والباب الذي إلى المغرب يُسمّى المستجار، ثم ألقى عليه الشجر والأذخر، وعلّقت هاجر على بابه كساءً كان معها، وكانوا يكنون تحته... ».

كما أنّ هذه الأرض كانت خالية من الناس في ذلك الوقت، فهي أرض بكر لا ماء فيها ولا كلأ ولا زرع ولا ثمر، ويمكن لإبراهيم أن يتصرف فيها كيف يشاء، ويُعدها وفق الملّة الجديدة، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إبراهيم رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِناً وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الأَصْنَامَ* رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيراً مِنْ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّيَ وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[1].

وقال تعالى: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لإبراهيم مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لاَ تُشْرِكْ بِي شَيْئاً وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾[2].

وقال تعالى:﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكاً وَهُدىً لِلْعَالَمِينَ﴾[3].

وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إبراهيم رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَداً آمِناً وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنْ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلاً ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾[4].

الخطوة الثانية: تشريع مناسك الحجّ للناس على ما يشير إلى ذلك القرآن الكريم، وتؤيده الروايات الواردة عن أهل البيت عليهم السلام، فقد ورد في القرآن الكريم من سورة الحج ـ بعد آية الأذان في الناس بالحجّ ـ بيان مجموعة من تشريعات الحج[5]،

---

(١) إبراهيم: ٣٥ ـ ٣٦.

(٢) الحج: ٢٦.

(٣) آل عمران: ٩٦.

(٤) البقرة: ١٢٦.

(٥) عن كلثوم بن عبد المؤمن الحرّاني، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «أمر الله عزّ وجلّ إبراهيم عليه السلام أن يحجّ ويحجّ إسماعيل معه ويسكنه الحرم، فحجّا على جمل أحمر، وما معهما إلاّ جبرئيل عليه السلام، ←

← فلمّا بلغا الحرم قال له جبرئيل: يا إبراهيم انزلا فاغتسلا قبل أن تدخلا الحرم، فنزلا فاغتسلا وأراهما كيف يتهيّئان للإحرام ففعلا، ثمّ أمرهما فأهلا بالحج، وأمرهما بالتلبيات الأربع التي لبّى بها المرسلون، ثمّ صار بهما إلى الصفا، فنزلا وقام جبرئيل بينهما، واستقبل البيت، فكبّر اللّه، وكبّرا، وهلّل اللّه وهلّلا، وحمد اللّه وحمدا، ومجّد اللّه ومجّدا، وأثنى عليه وفعلا مثل ذلك، وتقدم جبرئيل وتقدما يثنيان على اللّه عزّ وجلّ ويمجّدانه حتى انتهى بهما إلى موضع الحجر، فاستلم جبرئيل الحجر وأمرهما أن يستلما، وطاف بهما أسبوعاً، ثم قام بهما في موضع مقام إبراهيم ﷺ، فصلّى ركعتين، وصلّيا، ثم أراهما المناسك وما يعملان به، فلمّا قضيا مناسكهما أمر اللّه إبراهيم ﷺ بالانصراف، وأقام إسماعيل وحده ما معه أحد غير أمّه، فلمّا كان من قابل أذن اللّه لإبراهيم في الحجّ وبناء الكعبة، وكانت العرب تحجّ إليه، وإنّما كان ردماً إلاّ أن قواعده معروفة، فلمّا صدر الناس جمع إسماعيل الحجارة، وطرحها في جوف الكعبة، فلمّا أذن اللّه له في البناء قدم إبراهيم ﷺ فقال: يا بُنيّ قد أمرنا اللّه ببناء الكعبة، وكشفا عنها، فإذا هو حجر واحد أحمر، فأوحى اللّه عزّ وجلّ إليه ضع بناءها عليه، وأنزل اللّه عزّ وجلّ أربعة أملاك يجمعون إليه الحجارة، فكان إبراهيم وإسماعيل ﷺ يضعان الحجارة، والملائكة تناولهما حتى تمّت اثنا عشر ذراعاً، وهيّئا له بابين: باباً يدخل منه، وباباً يخرج منه، ووضعا عليه عتباً وشرجاً من حديد على أبوابه، وكانت الكعبة عريانة، فصدر إبراهيم، وقد سوى البيت، وأقام إسماعيل...

وكانت الكعبة ليست بمسقّفة، فوضع إسماعيل فيها أعمدة، مثل هذه الأعمدة التي ترون من خشب، وسقّفها إسماعيل بالجرائد، وسوّها بالطين، فجاءت العرب من الحول، فدخلوا الكعبة، ورأوا عمارتها، فقالوا: ينبغي لعامل هذا البيت أن يزاد، فلمّا كان من قابل جاءه الهدي، فلم يدري إسماعيل كيف يصنع، فأوحى اللّه عزّ وجلّ إليه أن انحره، وأطعمه الحاج، قال: وشكا إسماعيل إلى إبراهيم قلّة الماء، فأوحى اللّه عزّ وجلّ إلى إبراهيم أن احتفر بئراً يكون منها شراب الحاج، فنزل جبرئيل ﷺ، فاحتفر قليبهم، يعني: زمزم حتى ظهر ماؤها، ثم قال جبرئيل ﷺ: انزل يا إبراهيم، فنزل بعد جبرئيل فقال: يا إبراهيم اضرب في أربع زوايا، وقل: بسم اللّه، قال: فضرب إبراهيم ﷺ في الزاوية التي تلي البيت، وقال: بسم اللّه، فانفجرت عين، ثمّ ضرب في الزاوية الثانية، وقال: بسم اللّه فانفجرت عين، ثمّ ضرب في الثالثة، وقال: بسم اللّه، فانفجرت عين، ثم ضرب في الرابعة، وقال: بسم اللّه فانفجرت عين، وقال له جبرئيل: اشرب يا إبراهيم، وادع لولدك فيها بالبركة، وخرج إبراهيم ﷺ وجبرئيل جميعاً من البئر، فقال له: افض عليك يا إبراهيم، وطف ←

قال تعالى: ﴿لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ * ثُمَّ لِيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ * ذَلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الأَنْعَامُ إِلاَّ مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ * حُنَفَاءَ للهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ * ذَلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ * لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ * وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكاً لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللهِ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الأَنْعَامِ فَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ * الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلاَةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾(١).

الخطوة الثالثة: بناء البيت وإحياء هذا الأثر الديني التأريخي، بعد أن دلّه اللّه سبحانه وتعالى على موضع بنائه، وجعله بيتاً طاهراً من الدنس يعبد اللّه سبحانه وتعالى فيه وحده، ويتخذه المتعبدون مكاناً للطواف والاعتكاف به والصلاة فيه، والتي تتمثل بالركوع والسجود، وهي صلاة تجمع كلّ أشكال الخضوع والعبادة مع الطهارة والتوحيد للّه تعالى، قال تعالى: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْناً وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبراهيم مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَى إبراهيم وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ

← حول البيت، فهذه سقيا سقاها اللّه ولد إسماعيل. فسار إبراهيم وشيّعه إسماعيل حتى خرج من الحرم، فذهب إبراهيم، ورجع إسماعيل إلى الحرم». الكافي ٤: ٢٠٢ ـ ٢٠٥.

(١) الحج: ٢٨ ـ ٣٥.

لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾[1].

وقال تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إبراهيم الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾[2].

الخطوة الرابعة: الأذان في الناس بالحج الذي كان يعبّر عن أوسع نداء يوجهه إبراهيم عليه السلام في دعوته ورسالته على الإطلاق، كما يشير إليه القرآن الكريم، وتنص عليه الروايات بشكل واضح: ﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾[3].

وقد ورد بيان هذا النداء في رواية معتبرة عن الإمام الصادق عليه السلام، رواها الصدوق في العلل: أبي، عن سعد، عن ابن عيسى، عن الحسن بن علي بن فضّال، عن عبد اللّه بن سنان، عن أبي عبداللّه عليه السلام قال: « لمّا أمر اللّه عزّ وجلّ إبراهيم وإسماعيل ببنيان البيت وتمّ بناؤه، أمره أن يصعد ركناً ثم ينادي في الناس: ألا هلمّ الحجّ، فلو نادى هلمّوا إلى الحج لم يحجّ إلاّ من كان ـ يومئذ ـ إنسياً مخلوقاً، ولكن نادى هلمّ الحجّ، فلبّى الناس في أصلاب الرجال: لبّيك داعي اللّه لبّيك داعي اللّه، فمن لبّى عشراً حجّ عشراً، ومن لبّى خمساً حجّ خمساً، ومن لبّى أكثر فبعدد ذلك، ومن لبّى واحداً حجّ واحداً، ومن لم يلبّ لم يحجّ »[4].

---

(١) البقرة: ١٢٥.

(٢) البقرة: ١٢٧، يمكن أن نفهم التسلسل بين اتخاذ البلد آمناً وبناء البيت من هذه الآية والآية التي قبلها التي ذكرناها في الفقرة السابقة؛ إذ إن الآية ١٢٥ السابقة، وكذلك من آيات سورة إبراهيم المتقدّمة تشرح الهدف من ذلك.

(٣) الحج: ٢٧.

(٤) علل الشرائع ٢: ٤١٩، ح١.

خصائص المرحلة الرابعة

١ ـ بـناء وتأسيس مراكز العبادة للّه تعالى، بحيث تتحوّل من مركز خاص للتعـبد ـ كمـا هو الشأن في بعض الأماكن التي كان يتخذها العابدون لعبادتهم من الكهـوف، أو رؤوس الجـبال، أو الخلـوة باللّـه تعالى ـ إلى مراكز عامة يتعبد بها الناس بشكل جماعي لله تعالى، بصورة تصبح شعيرة من شعائر الدين.

وقـد كان بناء البيت الحرام هو أبرز مظاهر هذه السنة الإلهية، كما يفهم من القـرآن الكريم: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكاً وَهُدىً لِلْعَالَمِينَ * فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إبراهيم وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِناً وَلله عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنْ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللهَ غَنِيٌّ عَنْ الْعَالَمِينَ﴾[1].

وتشير نصوص التوراة وبعض النصوص التأريخية إلى أنّ إبراهيم عليه السلام كان قد اتخذ ـ عادة ـ أماكن للذبح والعبادة في فلسطين، ولكن لا يبدو فيها أنّها أماكن تتصف بهذه الصفة العامة.

٢ ـ تشـريع الأحكـام للمجـتمع الإنساني؛ إذ يشير القرآن الكريم إلى أهم أركـان هـذا التشـريع، وهـي: الأركـان الخمسـة التي بُني عليها الإسلام: الصلاة، والـزكاة، والحـج، والصـوم، والإمامـة، وقـد صرح القرآن الكريم بالصلاة والحجّ والإمامـة، وأشـار إلى الـزكاة بـالذبح، وكذلـك ما ورد في وصية إسماعيل لأهله بالصـلاة والـزكاة: ﴿وَكَـانَ يَأْمُـرُ أَهْلَهُ بِالصَّلاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا﴾[2] وإلى الصـوم بالاعتكاف: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْناً وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إبراهيم مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَى إبراهيم وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ

---

(١) آل عمران: ٩٦ ـ ٩٧.

(٢) مريم: ٥٥.

﴿وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾[١]، ويبدو من بعض الروايات أنّ هناك مجموعة من التشريعات الأخرى وضعها إبراهيم لأوّل مرة، مثل: الخمس، والجهاد في سبيل اللّه، وغيرها[٢].

٣ ـ وضع التسمية لدين التوحيد والملّة الجديدة؛ لتمييزها من الأديان والملل الأخرى، وتمييز المتدينين بها والمتعبدين للّه سبحانه وتعالى على صراطها، عن المتعبدين للأوثان أو المشركين باللّه سبحانه وتعالى عن ذلك علواً كبيراً.

ولذلك نجد القرآن الكريم يؤكّد هذا المفهوم في عدة مواضع له؛ لأهمية هذه الخصوصية، ولتأكيد ارتباط الإسلام بهذه الملة، كقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إبراهيم إلاَّ مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدْ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الآخرة لَمِنْ الصَّالِحِينَ﴾[٣].

وقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا كُونُوا هُوداً أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إبراهيم حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنْ الْمُشْرِكِينَ﴾[٤].

وقوله تعالى: ﴿قُلْ صَدَقَ اللهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إبراهيم حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنْ الْمُشْرِكِينَ﴾[٥].

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إبراهيم حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنْ الْمُشْرِكِينَ﴾[٦].

---

(١) البقرة: ١٢٥.

(٢) فقد روى السكوني عن الصادق عليه السلام: «كان إبراهيم أوّل الناس أضاف الضيف، وأوّل الناس اختتن، وأوّل من قاتل في سبيل اللّه، وأوّل من أخرج الخمس، وأوّل من اتخذ النعلين، وأوّل من اتخذ الرايات» مجمع البيان ١: ٣٧٤.

(٣) البقرة: ١٣٠.

(٤) البقرة: ١٣٥.

(٥) آل عمران: ٩٥.

(٦) النحل: ١٢٣.

وقولــه تعـالى: ﴿وَمَنْ أحْسَنُ دِيناً مِمَّنْ أسْلَمَ وَجْهَهُ لله وَهُوَ مُحْسِنٌ واتَّبَعَ مِلَّةَ إبراهيم حَنِيفاً واتَّخَذَ اللهُ إبراهيم خَلِيلاً﴾[1].

وقولــه تعـالى: ﴿قُـلْ إنّـنِي هَـدَانِي رَبِّيَ إلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيم دِيناً قِيَماً مِلَّةَ إبراهيم حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾[2].

وقولــه تعـالى: ﴿قَالَ لاَ يَأتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إلاَّ نَبَّأتُكُمَا بِتَأوِيلِهِ قَبْلَ أنْ يَأتِـيَكُمَا ذَلِكُمَـا مِمّـا عَلَّمَنِي رَبِّيَ إنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لاَ يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَهُمْ بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ * وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إبراهيم وَإسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أنْ نُشْرِكَ بِـاللهِ مِـنْ شَـيْءٍ ذَلِـكَ مِـنْ فَضْـلِ اللهِ عَلَيْـنَا وَعَلَـى النَّاسِ وَلَكِنَّ أكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَشْكُرُونَ﴾[3].

وقولــه تعـالى: ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِـي الدِّيـنِ مِـنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أبِيكُمْ إبراهيم هُوَ سَمّـاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِـيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأقِيمُوا الصَّلاَةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللهِ هُوَ مَوْلاَكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾[4].

بل يبدو من القرآن الكريم من خلال موارد استعمال كلمة (اللّه)، أنّ هذه الكلمة لم تعرف إلاّ بعد إبراهيم عليه السلام.

٤ ـ قيام مجتمع واستقراره من خلال إرساء معالمه بإقامة أركانه التي أشرنا إليها في النقطة الثانية، ومن خلال تمييزه بالتسمية التي أشير إليها في النقطة الثالثة،

---

(١) النساء: ١٢٥.

(٢) الأنعام: ١٦١.

(٣) يوسف: ٣٧ ـ ٣٨.

(٤) الحج: ٧٨.

ومـن خـلال إقامـة مؤسسـاته، وهـي: بناء البيت، كما أشرنا إلى ذلك في النقطة الأولى.

كمـا يمكن أن يفهم ذلك من طلب إبراهيم عليه السلام للإمامة في ذريته، فإنّ هذا الطلـب يشير إلى استقرار الوضع الاجتماعي؛ لأنّ الإمامة شأن من شؤون المجتمع الإنساني، على ما أشرنا إلى ذلك في تفسير الإمامة.

وسوف نتعرّف على ما يؤكّد هذا المعنى في الملاحظات العامة حول القصّة.

٥ ـ الاسـتقرار في خط التوحيد للّه سبحانه وتعالى في العبادة، وانتشاره في فلسـطين والحجـاز من خلال خط إسماعيل عليه السلام، ودعوة العرب والناس المحيطين بالبيـت الحـرام لـلحجّ والعبادة، ومن خلال خط إسحاق ويعقوب عليهما السلام وأبنائهما، ومن كان يؤمن بالإسلام من الناس في فلسطين.

وهـذا ممّـا يشـير إليه القرآن الكريم في موضوع وصية إبراهيم عليه السلام لبنيه بالإسـلام، ووصية يعقوب لبنيه بذلك ايضاً: ﴿وَوَصَّى بِهَا إبراهيم بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللهَ اصْطَفَى لَكُمْ الدِّينَ فَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾[1] وتؤكده الآيات التي بعدها حتى (آية ١٤١).

٦ ـ إن عهـد الإمامـة هـو أعظـم المقامـات الرسـالية الإلهية؛ إذ لا يمكن الوصـول إلـيه إلا من خلال الامتحان الصعب والأهلّية الكاملة، والعصمة المطلقة من الآثام والذنوب والظلم، ولذا استحقه إبراهيم عليه السلام في آخر أيام حياته بعد هذه المسيرة الطويلة من الامتحان والابتلاء.

وعـندما طلـبه لذريته كان شرط العصمة من الذنوب والظلم هو أوّل هذه الشروط التي تؤهل صاحبها لذلك.

---

(١) البقرة: ١٣٢.

٧ ـ استمرار الإمامة في ذرية إبراهيم عليه السلام حتى تصل إلى النبي الخاتم للأنبياء والمرسلين (محمّد) صلى الله عليه وآله؛ إذ بشر به إبراهيم عليه السلام من خلال دعائه وولده إسماعيل وهما يقيمان قواعد البيت الحرام: ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ * رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾[١].

---

(١) البقرة: ١٢٨ ـ ١٢٩


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی



الفصل الثالث

قصة موسى عليه السلام في القرآن


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

الإسرائيليون في المجتمع المصري[1]

لقد عاش الإسرائيليون في المجتمع المصري، وتكاثروا فيه منذ هجرة يوسف وأبيه يعقوب وبقية أولاده إلى مصر، وقد اضطهد الفراعنة الإسرائيليين في الفترة السابقة على ولادة موسى، وبلغ الاضطهاد درجة مريعة حين اتخذ الفراعنة قراراً بذبح أبناء الإسرائيليين، واستحياء نسائهم من أجل الخدمة والعمل. فأراد الله سبحانه وتعالى أن يتفضل على هؤلاء المستضعفين، وينقذهم من حالتهم هذه، فهيّأ لهم نبيه موسى، فعمل على إنقاذهم من الفراعنة[2] وهدايتهم من المجتمع الوثني إلى المجتمع التوحيدي.

ولادة موسى وإرضاعه

وحين ولد موسى عليه السلام أوحى الله سبحانه وتعالى إلى أمه أن تُرضعه، وحين تخاف عليه من الذبح العام فعليها أن تضعه فيما يشبه الصندوق وتلقيه في اليَمّ، وهكذا شاءت إرادة الله أن يلقيه اليَمّ إلى الساحل، وإذا بآل فرعون يلتقطونه، فيعرفون أنه من أولاد بني إسرائيل، فتتدخل امرأة فرعون في شأنه، وتطلب أن يتركوه لها على أن تتخذه خادماً أو ولداً تأنس به مع فرعون.

---

(١) نذكر من أحداث القصّة بمقدار ما تعرّض له القرآن الكريم.

(٢) الأعراف: ١٤١، إبراهيم: ٦، القصص: ٣ ـ ٦.

وقد عاشت والدة موسى لحظات حرجة من حين إلقائه في اليَمّ، فأمرت أخته أن تقصّ أثره، وتتبع سير الصندوق، فتتعرف على مصيره ففعلت، وحين عرض الطفل على المرضعات أبى أن يقبل واحدة منها، فانتهزت أخته هذه الفرصة، فعرضت على آل فرعون أن تدلّهم على امرأة مرضعة تتكفل رعايته وحضانته وإرضاعه، وكانت هذه المرأة بطبيعة الحال هي أم موسى، وهكذا رجع الطفل إلى أمه؛ ليطمئن قلبها، وتعلم أنّ ما وعدها الله سبحانه وتعالى من حفظه وإرجاعه إليها حقّ لاشك فيه، ولقد شب موسى في البلاط الفرعوني حتى إذا بلغ أشده وهبه الله سبحانه وتعالى العلم والحكمة[1].

خروج موسى من مصر

ودخل موسى المدينة في يوم ما: ﴿على حين غفلة من أهلها﴾ متنكراً فوجد فيها رجلاً من شيعته (من الإسرائيليين) يقاتل رجلاً آخر من أعدائه (الفرعونيين)، فاستغاثه الذي من شيعته على الذي من عدوه، فوكزه موسى فقضى عليه، ولم يكن ينتظر موسى أن تؤدي هذه الضربة إلى الموت، ولذلك ندم على هذا العمل الخطير الذى انساق إليه بسبب مشاعره النبيلة في الانتصار إلى المظلومين، فاستغفر ربه عليه.

وأصبح موسى في المدينة خائفاً يترقب أن ينكشف أمره فيؤخذ بدم الفرعوني، فينزل إلى المدينة مرة أخرى فإذا به يواجه قضية أخرى مشابهة، وإذا الذي استنصره بالأمس فنصره، يستصرخه اليوم أيضاً، فعاتبه موسى على عمله، ووصفه بأنّه غويّ مبينٌ يريد توريطه وإحراجه، ثم لمّا أراد أن يبطش بالذي هو

---

(١) القصص: ٧ ـ ١٤، طه: ٣٧ ـ ٤٠.

عدو لهما ـ موسى والإسرائيلي ـ ظن الإسرائيلي أنّ موسى يقصد البطش به لا بالفرعوني، فقال لموسى: ﴿أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْساً بِالأَمْسِ إِن تُرِيدُ إِلاَّ أَن تَكُونَ جَبَّاراً فِي الأَرْضِ﴾(١). وبذلك كشف الإسرائيلي عن هوية قاتل الفرعوني الأوّل، وفضح قتل موسى له، فعلم الملأ، وهمّ القوم بقتله بدم الفرعوني، وجاء رجل من أقصى المدينة وأعاليها مسرعاً؛ ليخبر موسى بالأمر ويقول له: ﴿إِنَّ الْمَلأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ﴾(٢) وطلب منه المبادرة إلى الخروج والهروب من الفرعونيين، فخرج موسى من المدينة خائفاً يترقب أن يوافيه الطلب أو تصل إليه أيدي الفرعونيين، فدعا ربّه أن ينجيه من القوم الظالمين.

موسى في أرض مدين

وانتهى السير بموسى إلى أرض مدين، فلمّا وصلها أحسّ بالأمن، وانتعش الأمل في نفسه، فقال: ﴿عَسَى رَبِّيَ أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ * وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ﴾ وهم الرعاة: ﴿يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ﴾ في حيرة من أمرهما تذودان الأغنام، وتجمعانها ولا تسقيان، فأخذه العطف عليهما، فقال لهما: ﴿مَا خَطْبُكُمَا﴾ ولماذا لا تسقيان؟ قالتا له: ﴿لاَ نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ﴾ وينتهون من السقي؛ لأننا امرأتان لا يمكننا أن نزاحم الرجال ﴿وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾ لا يتمكن من القيام بهذه المهمة الشاقة، فتولى موسى عنهما هذه المهمة، فسقى لهما، ثمّ انصرف إلى ناحية الظل وهو يشكو ألم الجوع والغربة والوحدة، فقال:

---

(١) القصص: ١٩.

(٢) القصص: ٢٠.

﴿رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾[١].

ولما رجعت الامرأتان إلى أبيهما الشيخ، وعرف منهما قصّة هذا الإنسان الغريب الذي سقى لهما، بعث إلى موسى إحداهما لتدعوه، فجاءته تمشي على استحياء فقالت: ﴿إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾ فأجاب موسى الدعوة، وحين انتهى إلى الشيخ طلب منه أن يخبره عن حاله، فقصّ موسى عليه قصّة هربه وسببها، وحينئذ آمنه الشيخ، وقال له: ﴿لاَ تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾[٢].

وقد طلبت إحدى ابنتي الشيخ من أبيها أن يستأجر موسى للعمل عنده، وليقوم عنهما ببعض المهام الملقاة على عاتقهما نتيجة عجز الشيخ وضعفه، وذلك نظراً لقوة موسى وقدرته على القيام بالعمل مع أمانته وشرف نفسه.

فقال له الشيخ: ﴿إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ﴾[٣] شريطة أن تأجرني نفسك ثماني حجج (سنين)، فإذا أتممتها عشراً فذلك من عندك، فوافق موسى على هذا الزواج وتمّ العقد بينهما.

بعثة موسى ﷺ ورجوعه إلى مصر

وبعد أن قضى موسى الأجل ـ السنوات العشر ـ بينه وبين صهره سار بأهله، فإذا به يشاهد ناراً من جانب الطور الأيمن، وهو: جبل صغير، وقد كان بحاجة إليها: ﴿فَقَالَ لأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَاراً لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ

---

(١) القصص: ٢٤.

(٢) القصص: ٢٥.

(٣) القصص: ٢٧.

عَلَى النَّارِ هُدىً﴾[١] فلمّا أتاها وجد شجرة، وجاء نداء الله سبحانه وتعالى من شاطئ الوادي الأيمن في البقعة المباركة من جانب الشجرة: ﴿إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِي الْمُقَدَّسِ طُوىً * وَأَنَا اخْتَرْتُكَ﴾ لوحيي ورسالتي ﴿فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى﴾[٢] إليك.

ثم قال الله له: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى * قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى﴾ قال الله له: ﴿أَلْقِهَا يَا مُوسَى﴾ فإذا هي تتحول إلى: ﴿حَيَّةٌ تَسْعَى﴾[٣]، ﴿فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى﴾ هارباً: ﴿وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾ فناداه الله: ﴿يَا مُوسَى أَقْبِلْ وَلاَ تَخَفْ إِنَّكَ مِنْ الآمِنِينَ﴾[٤]، ﴿إِنِّي لا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ﴾[٥] ﴿سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الأُولَى﴾[٦].

ثم قال له: ﴿أدخِل يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرجْ بَيْضَاء مِنْ غَيرِ سوء﴾[٧] ومرض، فأدخل يده وإذا بها تخرج بيضاء، ثمّ ردها فعادت كما كانت.

وبعد ذلك أمره الله سبحانه وتعالى أن يذهب بهاتين الآيتين المعجزتين إلى فرعون وقومه؛ ليدعوهم إلى الله سبحانه وتعالى، فخاف موسى من تحمّل هذه المهمة، فقال: ﴿رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْساً فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ * وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَاناً فَأَرْسِلْهُ مَعِي﴾ وذلك من أجل أن: ﴿يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ﴾.

---

(١) طه: ١٠.

(٢) طه: ١٢ ـ ١٣.

(٣) طه: ١٧ ـ ٢٠.

(٤) القصص: ٣١.

(٥) النمل: ١٠.

(٦) طه: ٢١.

(٧) النمل: ١٢.

قال الله له: ﴿سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَاناً فَلاَ يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا﴾[1]. ﴿فأتياه﴾ (فرعون) ﴿فَقُولاَ إِنَّا رَسُولاَ رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلاَ تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكَ﴾[2].

وحينما عاد موسى إلى مصر توجه مع أخيه هارون إلى فرعون، فقالا له: ﴿إِنَّا رَسُولاَ رَبِّكَ﴾ رب العالمين، ولا يمكن أن نقول على الله غير الحقّ الذي أرسلنا به، وقد جئناك ببينة من ربك: ﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ وارفع عنهم العذاب الذي تنزله فيهم، وقد قالا له ذلك بشكل لين وبأسلوب استعطافي هادئ.

وكأنّ فرعون قد استغرب هذه الرسالة من موسى وأخيه؛ لأنّه كان يعرف أنّ موسى قد تربّى وعاش بينهم، ولم يكن لديه شيء من هذه الأقوال والأحوال، فقال لموسى: ﴿أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيداً وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ﴾ ثم بعد ذلك: ﴿وفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ﴾ بأن قتلت رجلاً من الفرعونيين؟ فأجابه موسى: نعم لقد فعلت ذلك، ولكنّي لمّا خفتكم على نفسي فررت منكم: ﴿فَوَهَبَ لِي رَبِّيَ حُكْماً وَجَعَلَنِي مِنْ الْمُرْسَلِينَ﴾[3].

فرعون يجادل موسى في ربوبية الله

وبعد أن رأى فرعون إصرار موسى وهارون على الرسالة: ﴿قَال فَمَنْ رَبُّكُمَا﴾ قال له موسى: ﴿رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾ وهو ربّ السماوات والأرضين وَمَا بَيْنَهُما وَمَا تَحْتَ الثرى. قال فرعون: ﴿فَمَا بَالُ الْقُرُونِ

---

(١) القصص: ٣٢ ـ ٣٥.

(٢) طـه: ٤٧.

(٣) الشعراء: ١٨ ـ ٢١.

الأُولَى﴾ ومـا هـو مصيرها؟ فأجابه موسى: ﴿عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّيَ فِي كِتَابٍ لاَ يَضِلُّ رَبِّيَ وَلاَ يَنسَى﴾، وهـو ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الأرض مَهْداً وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلاً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِنْ نَبَاتٍ شَتَّى﴾[1] مختلف ألوانه وأشكاله.

وقد استنكر فرعون هذه الدعوة الجديدة وهو يعتقد بنفسه الأُلوهية، فتوجه لمـن حولـه مسـتنكراً وقـال: ﴿ألا تَسْتَمِعُونَ﴾[2] ؟ ولمّا رأى الإصرار من موسى وأخـيه اتهـم موسـى بالجـنون، وهـدده بالسجن إذا اتخذ إلهاً غيره، ولم يستسلم موسى وأخوه أمام هذه التهمة والتهديد، وإنّما حاولا أن يسلكا إلى فرعون طريقاً آخـر، وهـو إقامـة الحجّـة علـيه؛ لإقناعه أو إحراجه، وذلك من خلال استثمار السـلاح الذي وضعه الله بيد موسى ـ معجزة العصا واليد ـ فقال موسى لفرعون: إنّـي قـد جئتك من ربي بآية تبين لك الحق الذي أنا عليه، قال فرعون: إذا كنت صـادقاً فائـت بهـذه الآيـة والحجّة ﴿فَأَلْقَى مُوسَى عَصَاهُ﴾[3]. ﴿فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ * وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ﴾[4]. ولم يتمالك فرعون وملـؤه أنفسـهم أمـام هـذه الآية الواضحة والموقف المحرج إلاّ أنّ اتهموه بالسحر والشـعوذة، وأنّـه إنّما جاء بهذا السحر من أجل أن يخرجهم من أرضهم ويجلوهم عنها[5].

---

(١) طـه: ٤٩ ـ ٥٣.

(٢) الشعراء: ٢٥.

(٣) الشعراء: ٤٥.

(٤) الشعراء: ٣٢ ـ ٣٣.

(٥) الأعراف: ١٠٩ ـ ١١٠، الشعراء: ٣٠ ـ ٣٥، يونس: ٧٥ ـ ٧٨.

مباراة موسى مع السحرة

وقد أشار قوم فرعون وخاصته عليه أن يواجه السحر الذي اتهم به موسى بالسحرة من بلاده، فيجمعهم في يوم يشهده الناس جميعاً ليتباروا، وسوف يغلبونه وهم كثيرون، فيفتضح أمره وتترك دعوته، وعمل فرعون بهذه النصيحة، فطلب من موسى وأخيه أن يعطياه مهلة إلى وقت معين؛ لمواجهة السحرة.

وجمع فرعون كيده، وحشد جميع السحرة من بلادهم، وعرض عليهم الموقف، وطلب منهم أن يحرجوا موسى ويغلبوه، وجمع الناس لهذه المباراة ظناً منه أنه سوف ينتصر، وقد شجعه على ذلك تأكيد السحرة أنهم سوف يغلبون موسى، وما طلبه منه السحرة من أجر وعطاءات إذا كانوا هم الغالبين.

وحين اجتمع موسى بالسحرة خيّروه بين أن يلقي قبلهم، أو يكونوا هم الملقين قبله، فاختار أن يكونوا هم الملقين، فألقى السحرة: ﴿حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ﴾ وإذا بها تبدو لأعين الناس ـ من سحرهم ـ كأنها تسعى كالحيات، وعندئذ أوجس موسى في نفسه خيفة إذ لم يكن ينتظر أن يواجه بالأسلوب الذي اتبعه في معجزته مع فرعون، فيكون ذلك سبباً لإضلال النّاس، وعدم وضوح حجته أمامهم، فأوحى الله سبحانه وتعالى له أن لا تخف، فإنك أنت الذي سوف تنتصر عليهم، وإنّما عليك أن تلقي عصاك ـ وحينئذ ـ تتحول إلى حية حقيقية تلقف جميع ما صنعوا؛ لأنّ ما صنعوه ليس إلاّ: ﴿كَيْدُ سَاحِرٍ وَلاَ يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى﴾[1].

وعندما رأى السحرة هذا الصنع من موسى انكشفت لهم الحقيقة التي أرسل بها، وأنّ هذا العمل ليس عمل ساحر، وإنّما هو معجزة إلهية، فآمنوا: ﴿قَالُوا آمَنَّا

---

(١) طـه: ٦٩.

بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى﴾[١].

وأمام هذا الموقف الرائع من السحرة في هذا المشهد العظيم من الناس وجد فرعون نفسه في وضع مخزٍ ومحرج، الأمر الذي اضطره لأن يلجأ إلى أساليب الطغاة عند انقطاع حجتهم، وهو الإنذار والوعيد والتهديد باستخدام أساليب القمع والإرهاب، فقال للسحرة: ﴿آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى﴾[٢]. ولم يكن موقف السحرة ـ بعد أن انكشفت لهم الحقيقة وهدى الله إليها ـ إلاّ ليزدادوا صلابة وثباتاً واستسلاماً لله رجاء مغفرته ورحمته.

إصرار فرعون وقومه على الكفر ومجيء موسى بالآيات

وقد أصر فرعون وقومه على الكفر، وصمّموا على مواصلة خط اضطهاد بني إسرائيل وتعذيبهم: إذ: ﴿وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ﴾ فلا يخضعون لك ولا يتعبدون لها: ﴿قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ﴾[٣].

وازداد العذاب والبلاء والأذى على بني إسرائيل، فاستغاثوا بموسى عليه السلام، فأوصاهم أن يستعينوا باللّه، ويصبروا على البلاء والمحنة، فإنّ: ﴿الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ * قَالُوا أُوذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا

---

(١) طه: ٧٠.

(٢) طه: ٧١.

(٣) الأعراف: ١٢٧.

وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾[١].

وهكذا واجه موسى وبنو إسرائيل ذلك بالصبر والثبات انتظاراً للوقت الذي يحقّق الله سبحانه وتعالى فيه وعده لهم بوراثة الأرض.

وقد أمر اللّه سبحانه وتعالى موسى أن يخبر فرعون وقومه بأنّ العذاب سوف ينزل بهم عقاباً على تكذيبهم له، وتعذيبهم لبني إسرائيل، وامتناعهم عن إطلاقهم وإرسالهم، فجاءت الآيات السماوية يتلو بعضها بعضاً، فأصابهم الله بالجدب، ونقص الثمرات، والطوفان، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم، وكانوا كلمّا وقع عليهم العذاب والرجز: ﴿قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ * فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلَى أَجَلٍ هُمْ بَالِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ﴾[٢].

الائتمار بقتل موسى ﷺ وطغيان فرعون

وأمام هذه الآيات المتتاليات التي جاء بها موسى لم يجد فرعون وقومه أسلوباً يعالج به الموقف غير الائتمار بقتل موسى، وادعاء القدرة على مواجهة آلهته، فنجد أن فرعون يأمر هامان بأن يتّخذ له صرحاً، ليطلع منه على أسباب السماوات، ويتعرف على حقيقة إله موسى.

ولكنّ فرعون يفشل في كلا الجانبين، فلم يتمكن من أن يحقّق غايته من وراء بناء الصرح، كما لم تصل يده إلى موسى؛ لأنّ أحد المؤمنين من آل فرعون

---

(١) الأعراف: ١٢٨ ـ ١٢٩.

(٢) الأعراف: ١٣٤ ـ ١٣٥.

يقف فيعظهم ويؤنبهم على موقفهم من موسى، ويبادر إلى إخبار موسى بنبأ المؤامرة، فينجو موسى منها[1].

خروج موسى عليه السلام ببني إسرائيل من مصر

وحين واجه موسى محاولة اغتياله، ورأى إصرار فرعون وقومه على اضطهاد بني إسرائيل وتعذيبهم، ووجد أنّه لم تنفع بهم الآيات والمواعظ، صمّم على الخروج ببني إسرائيل من مصر والعبور بهم إلى جهة الأرض المقدسة، وقد نفّذ موسى هذه العملية، وسار ببني إسرائيل متجهاً إلى سيناء.

ولم يقف فرعون ـ وقومه معه ـ أمام هذه الهجرة مكتوف اليدين، بل جمع جنده من جميع المدائن، وقرر ملاحقة موسى وبني إسرائيل وإرجاعهم إلى عبوديته بالقوة.

ووجد موسى وبنو إسرائيل ـ نتيجة هذه المطاردة ـ أنفسهم محاصرين، فالبحر من أمامهم وفرعون وجنوده من خلفهم، وارتاع بنو إسرائيل من هذا المشهد والموقف، وكادوا أن يكذّبوا بما وعدهم به موسى من الخلاص، ولكنّ موسى بإيمانه الوطيد أخبرهم أنّ الله سبحانه وتعالى سوف يهديه طريق النجاة حيث لا يخلف اللّـه وعده، وتحقّق ذلك ـ فعلاً ـ إذ أوحى الله إلى موسى: ﴿أَنْ اضْرِب بِعَصَاكَ الْبَحْرَ﴾[2] وإذا به ينفلق كلّ فرق كالطود العظيم، ويظهر بينهما طريق يبس يعبر من خلاله بنو إسرائيل، ويحاول فرعون وجنوده أنّ يتبعوهم من هذا الطريق أيضاً، وإذا بجانبي البحر يلتقيان فيغرق فرعون مع جنده.

---

(١) غافر: ٢٨ ـ ٤٦.

(٢) الشعراء: ٦٣.

موسى عليه السلام مع بني إسرائيل

وتتوالى بعد ذلك الأحداث على موسى، وإذا به يواجه المشاكل الداخلية منفرداً مع قومه بني إسرائيل. فيسمع طلبهم وهم يمرون على قوم يعبدون الأصنام بأن يتخذ لهم أصناماً يعبدونها كما أنّ لهؤلاء أصناماً. فينكر عليهم ذلك، ويسفّه عمل هؤلاء الوثنيين.

ثمّ بعد ذلك يتفضل الله سبحانه وتعالى على بني إسرائيل عندما استسقى موسى قومه، فيأمره بضرب الحجر فتتفجر منه العيون بعدد الأسباط الاثني عشر، كما ينزل عليهم المن والسلوى، ثمّ يبدلهم عنه ببعض المآكل الأخرى بعد أن يطلبوا منه ذلك.

ويواجه موسى بعد ذلك أقسى وأشدّ حادثة في حياته، وهي ردّة بني إسرائيل عند ذهابه لميقات ربه؛ لتلقي الشريعة في ألواح التوراة، فيخبره الله سبحانه وتعالى بعبادتهم للعجل الذي صنعه السامري، فيرجع إلى قومه: ﴿غضباناً أسِفاً﴾[1] ويعتب بقسوة على أخيه هارون؛ إذ كان قد استخلفه عليهم فترة ذهابه، فيأخذ برأسه ولحيته تعبيراً عن غضبه لهذا العمل الشنيع، ويطرد السامري، ويفرض عليه عقوبة المقاطعة، ويحرق العجل وينسفه ويرميه في اليَمّ، ثمّ يتوب الله على بني إسرائيل بعد أن فرض عليهم عقاباً صارماً، وهو القتل لأنفسهم.

وعلى هذا المنوال يذكر لنا القرآن الكريم أحداثاً مختلفة عن حياة موسى مع بني إسرائيل، كقضية البقرة ونتق الجبل، وامتناعهم عن تلبية الدعوة للدخول إلى الأرض المقدسة، وما كتب اللّه عليهم من التيه مدّة أربعين سنة، وذهابهم للمواعدة

---

(١) طه: ٨٦.

من أجل التوبة، فإذا بهم يطلبون رؤية اللّه جهرة، فأخذتهم الرجفة، وقصّة قارون وتآمره على موسى، وفي بعض هذه الأحداث لا نجد القرآن الكريم يحدّد المتقدّم منها على الأحداث الأُخرى بشكل واضح. وبهذا القدر نكتفي من سرد القصّة حسب تسلسلها الزمني[1].

دراسة مختصرة لقصة موسى عليه السلام

بعد أن ذكرنا بحث قصة موسى بحسب ذكرها في القرآن الكريم[2] وعرضها بتسلسلها التأريخي يجدر بنا أن ندرسها بحسب المنهج الاجتماعي، وذلك من جانبين:

الجانب الأوّل: ملاحظة المراحل العامة التي مرّ بها موسى في حياته وميزاتها وخصائصها.

الجانب الثاني: ملاحظة الموضوعات التي تحدّثت عنها القصّة بشكل عام.

الجانب الأوّل: مراحل حياة موسى عليه السلام

وبصدد الجانب الأوّل نجد أن موسى عليه السلام قد مرّ بمراحل ثلاث رئيسية خلال حياته؛ إذ تبدأ المرحلة الأُولى بولادته وتنتهي ببعثته إلى فرعون وقومه، وتبدأ الثانية من البعثة وتنتهي بالعبور، وتبدأ الثالثة بالخروج وتنتهي بنهاية حياته.

ويعتمد هذا التحديد في المراحل الثلاث على المقدار الذي تحدث القرآن

---

(١) تراجع (قصص الأنبياء) لعبد الوهاب النجار بصدد الأحداث التي وقعت لموسى مع قومه بني إسرائيل، وإن كنا ربما لا نتفق معه في بعض الخصوصيات التي يسردها. منه رحمه الله.

(٢) الفصل الرابع من القسم الأوّل.

الكريم فيه عن حياة موسى ﷺ.

وتتمثل المرحلة الأُولى من حياة موسى في دورين:

الأول: ينتهي بخروجه من مصر خائفاً.

الثاني: ينتهي برؤيته النار عند بعثته.

وحين نلاحظ الظواهر العامة في هذين الدورين يبرز لنا موسى في شخصيته ذلك الإنسان الذي يريد الله سبحانه وتعالى أن يعدّه لأعباء مهمة تخليص بني إسرائيل من الظلم الاجتماعي الذي حاق بهم، وتخليص شعب مصر من عبودية الأوثان وهدايتهم لوحدانية الله سبحانه وتعالى.

وتتلخص هذه الظواهر بميزات ثلاث لها دور كبير في شخصية الإنسان القائد، وهي كالتالي:

الأُولى: المركز الاجتماعي الذي كان يتمتع به موسى دون بني إسرائيل نتيجة تبني العائلة المالكة في مصر تربيته ورعايته.

وهذا المركز الاجتماعي الفريد وإن كان قد فقد تأثيره ـ إلى حد كبير ـ بعد هروب موسى من مصر بسبب قتله الفرعوني، ولكنّنا يمكن أن نتصوره عاملاً مهماً في إظهار موسى ـ في المجتمع بشكل عام والإسرائيلي بشكل خاص ـ شخصيةً تتبنى قضية الدفاع عن بني إسرائيل وتعمل من أجلها.

ولعل ضياع هذا المركز الاجتماعي المهم بسبب قتل الفرعوني هو الذي يفسر لنا نظرة موسى إلى قتل الفرعوني ـ نظرته ـ إلى ذنب يستحق الاستغفار والتوبة منه إلى الله تعالى؛ إذ ضيّع موسى بهذا العمل الارتجالي ـ الذي صدر منه بدوافع نبيلة وصحيحة ـ فرصة ثمينة كان من الممكن استثمارها في سبيل استنقاذ الشعب الإسرائيلي، خصوصاً إذا أخذنا بنظر الاعتبار أنّ موسى كان يتصف بالعلم والحكمة في هذه المرحلة كما وصفه القرآن الكريم.

الثانية: الشعور الإنساني والحس النبيل الذي كان يحس به موسى بوصفه إنساناً يتحلى بالأخلاق الكاملة، ويتمثل لنا هذا الخلق الإنساني في ثلاثة مواقف لموسى جاءت ضمن هذه المرحلة من حياته، وهي: قتله الفرعوني، ومحاولته لضرب الفرعوني الآخر، وتبرعه بمعاونة ابنتي الشيخ الذي أصبح صهراً له بعد ذلك، وما يشعر به وصف ابنة الشيخ له بأنّه قوي أمين.

فإن هذه المواقف تعبّر عن المحتوى الداخلي والشعور الإنساني الذي كان يعيشه موسى عليه السلام، فهو يبادر لنجدة المظلوم بالرغم من تربيته في البيت الفرعوني المالك، هذه التربية التي كان من الممكن أن تعطيه الشعور بالتميز الطبقي الذي يختلف عن عمله الإنساني هذا، ثمّ لا يكتفي بأن يرتكب ذلك مصادفة، بل يندفع ليقوم بنفس العمل حين يجد من يستصرخه إليه مع شعوره بحراجة موقفه الاجتماعي نتيجة لهذا العمل.

وفي موقفه من ابنتي الشيخ نجد أن موسى تدفعه ذاته الخيّرة النبيلة للسؤال عن تلكئهما في السقاية، ويعرض المعاونة عليهما في حالة الحاجة إليها، ونجده يخفّ إلى تنفيذ ذلك دون أن ينتظر منهما أجراً أو مثوبة مادية، على الرغم من ظروفه الموضوعية الخاصة الصعبة.

الثالثة: القوة البدنية والشجاعة التي كان يتمتع بها موسى، ويكشف لنا عن ذلك موقفه من الفرعوني وقضاؤه عليه بوكزة واحدة، والالتزام الذي أخذه على نفسه بأن لا يكون ظهيراً للمجرمين حتى بعد قتله الفرعوني الأوّل، وشعوره بحراجة موقفه، ووصف ابنة الشيخ له بأنه قوي، خصوصاً إذا أخذنا بالتفسير الذي يقول: إنّ موسى حين سقى لابنتي الشيخ طرد السقاة عن البئر من أجل أن يعجل بالسقاية لهما.

وهذه الميزات الثلاث تحقّق شروطاً ضرورية لحمل أعباء الرسالة التي أراد

الله سبحانه وتعالى لنبيه موسى القيام بها، ولعلّ في الإمداد الإلهي في قصّة مولده ونجاته من الذبح عاملاً جديداً في خلق الأجواء النفسية والاجتماعية والروحية والظروف المناسبة لتأهيل هذا الإنسان لقيادة شعبه المضطهد.

وتمثل المرحلة الثانية مسؤوليتين:

إحداهما: هداية قوم فرعون إلى وحدانية الله والإيمان بربوبيته.

والأُخرى: دعوة بني إسرائيل للخلاص من الاضطهاد والظلم الذي كانوا يعانونه في مصر.

وقد توسّل موسى من أجل تحقيق هذين الهدفين البارزين في مسيرة دعوته بأساليب مختلفة ومتعدّدة، كانت تبتدئ بالمناقشة الهادئة، والكلام اللين، والحجة التي تعتمد على المنطق والعقل، وتنتهي بالعذاب والرجز الذي أنزله الله سبحانه وتعالى عليهم في آيات عديدة.

كما أنّه من جانب آخر كان يدعو بني إسرائيل إلى الاستعانة بالله، والصبر على المكاره، ومواصلة الطريق من أجل الخلاص.

والقرآن الكريم وإن كان لا يتحدّث عن المدّة التي عاشها موسى من أجل تحقيق ذلك، ولكن من الممكن أن نتبين أنّ هذه المدّة كانت طويلة نسبياً، خصوصاً إذا لاحظنا الآيات القرآنية التي تشير إلى المعجزات التي جاءت على يد موسى، وأنّها كانت في سنين متعددة.

كما يؤيد ذلك ـ أيضاً ـ أمر الله سبحانه وتعالى لموسى بأن يتخذ بيوتاً مع قومه، ويجعلها قبلة تنطلق منها الدعوة.

ويبدو أنّ موسى لم يصل إلى نتيجة واضحة بصدد تحقيق الهدف الأوّل مع فرعون وقومه، لذا قرر الهجرة ببني إسرائيل، والعبور بهم إلى الجانب الآخر من البحر.

ولا يشير القرآن بشكل قاطع إلى أنّ هذه الحركة في بدايتها كانت برضا فرعون بعد أن شاهد هذه المعجزات وآيات العذاب، أو أنّها كانت بدون رضاه، ولكن قد يكون في قصّة مطاردة فرعون بجنوده لموسى وبني إسرائيل دلالة على أنّ الحركة كانت رغماً على فرعون وبدون رضاه.

ويمكن أن نلاحظ في هذه المرحلة أموراً ثلاثة:

الأوّل: أنّ بني إسرائيل كانوا يلتفون حول موسى دون أن يكون هناك خلاف في صفوفهم، أو دون أن يبرز هذا الخلاف إلى السطح الاجتماعي، والقرآن وإن كان لا يصرّح بشيء من ذلك، ولكن تدعونا إلى هذا الحكم طبيعة الأشياء؛ إذ كان الإسرائيليون بالأصل أهل كتاب ونبوّات، كما أنّهم كانوا يتعرضون لأشدّ ألوان العذاب، وبذلك فهم ينشدون الخلاص، إضافة إلى سكوت القرآن عن إبراز أي خلاف بين بني إسرائيل وبين موسى في هذه المرحلة، واستجابة بني إسرائيل إلى متابعة موسى في هذه الهجرة من مصر.

نعم، يشير القرآن إلى نقطتين قد يفهم الخلاف منهما، هما: قلة الأشخاص الذين آمنوا بموسى من قومه، واعتراضهم عليه بنزول الأذى فيهم قبل موسى وبعده.

الثاني: أنّ موسى كان يعمل بوسائل شتى من أجل إنجاح دعوته، فكان يتوصل إلى ذلك بالمناقشات الهادئة مرّة، وبالمعاجز والآيات ذات الطابع الانتقامي الشديد ثانية، وبالصبر والصمود والانتظار ثالثة.

وقد توصل نتيجة لذلك إلى تحقيق بعض أهدافه، حيث نجد أن الدعوة تحقق نجاحاً في صفوف بعض الفرعونيين أيضاً، كإيمان السحرة له، ووجود ظاهرة مؤمن آل فرعون، وإيمان زوجة فرعون.

الثالث: أنّ موسى كان يعتمد ـ للحماية من الغضب والانتقام الفرعوني ـ على جهات متعدّدة يمكن أن نلحظ منها: التفاف بني إسرائيل حوله، وهم يمثلون

أمـة كـبيرة مـن الناس وإن كانت مضطهدة، ومركزه الاجتماعي السابق في البيت الفـرعوني المتمـيز، واستجابة بعض الفرعونيين لدعوته وخصوصاً زوجة فرعون؛ ولعـلّ موقف مؤمن آل فرعون من الائتمار بموسى لقتله يشير إلى العنصر الأخير مـن الحمايـة، وكذلك قبول فرعون بالدخول معه في مناقشة ومباراة تمثل العنصر الثاني، إضافة إلى قضية الآيات والمعاجز وإ يمان السحرة به.

وتمـثل المـرحلة الثالـثة: جانـب استقلال الجماعة والحكم وما يستتبعه من مضـاعفات وخلافات؛ ذلك لأنّ الدعوة في مرحلتها الأُولى تعمل من أجل تحقيق أهداف عامة وترفع شعارات معينة، وفي هذه الأهداف والشعارات قد تلتقي آمال الشـعب كلّـه وتـتجمع تدريجياً، وأمّا حين يأتي دور تحديد هذه الأهداف في صيغ معيـنة وطريقة خاصة، وتطبيق هذه الشعارات في نهج وأسلوب خاص وتجسيدها عملـياً، فقد نجد بعض الأعضاء في المجموعة لا يلتقي مع هذا التحديد والتطبيق في مصالحه الخاصة، أو أفكاره وعقليته الاجتماعية، بل قد تتعارض المصالح الخاصة، أو المنافع التي يحصل عليها الإنسان في مسيرة عمله، أو المواقع التي ينتهي إليها مع هـذه الأهداف والشعارات؛ إذ إنّ الأهداف والشعارات الإلهية الرسالية تنطلق من المـبادئ ومتبنـيات الفطـرة الإنسانية التي أودعها الله سبحانه وتعالى في الإنسان، وهـي في البداية لا تبدو أنّها متناقضة مع رغبات الإنسان وميوله، بل هي محبوبة وحـسنة في نظر الإنسان خصوصاً المظلومين من الناس.

وأمّـا في دور التطبـيق والتجسـيد حيـث تـتحول هـذه المـبادئ إلى واقع خـارجي، وحـدود وقـيود لهذه الحركة، أو ذلك الموقف أو لتلك المصلحة، فعندئذ تتـناقض مـع الهـوى والشهوات والطموحات الذاتية للإنسان، ولذلك نجد في هذه المـرحلة بـوادر الخلاف تبدو في الشعب الإسرائيلي، وتطفو على السطح اتجاهات شتى: فكرية، ومصلحية، ونفسية و... حتى إنّها تتحول ـ أحياناً ـ إلى المروق عن

الدين، أو إلى التمرد على الجماعة والنظام.

ففي جانب الفكر والعقيدة ـ مثلاً ـ نجد تأثيرات المجتمع الوثني على الإسرائيليين تظهر بشكل واضح؛ لأنّهم يطلبون من موسى ـ عندما مرّوا على جماعة يعبدون الأوثان ـ أن يتخذ لهم أصناماً وآلهة كما لهؤلاء القوم آلهة، مع أنّ الإسرائيليين بالأصل هم ذرية إبراهيم وإسحاق ويعقوب الذين حملوا رسالة التوحيد ورفضوا الوثنية والأصنام، كما تبرز هذه الرواسب والمخلّفات مرة أخرى عندما اتخذوا العجل إلهاً؛ لمجرد أنّهم رأوا فيه ظاهرة غير طبيعية، وفي موقفهم في الميقات عند الاستغفار أيضاً حينما طلبوا أن يروا الله جهرة.

وفي جانب المصالح نجد موقف قارون وجماعته وإيذائهم موسى وتمردهم على أوامره، وغير ذلك من الإشارات القرآنية التي تشير إلى عوامل النفاق والمعارضة.

وفي جانب الواقع الروحي والنفسي تشير قصّة الدخول إلى الأرض المقدسة وغيرها من الإشارات القرآنية إلى رواسب الضعف والاستخذاء[1] والخوف.

فالميزة الرئيسية لهذه المرحلة هي ظهور هذه الخلافات المتعدّدة، ومعاناة النبي موسى منها على اختلاف اتجاهاتها ودوافعها، وهذه الظواهر هي من مستلزمات المجتمع الذي تتحكم فيه عقيدة جديدة ونظام جديد.

ونجد أن موسى في كلّ هذه الخلافات مثال القائد الحكيم، والنبيّ العطوف الذي يأخذ قومه بالشدّة في مروقهم عن الدين، كما في قضية العجل، وباللين في جوانب أخرى فيدعو الله سبحانه وتعالى لهم بالرحمة والمغفرة، كما في قضية الميقات.

---

(١) الخضوع والانقياد والذلة. لسان العرب ١: ٦٤.

الجانب الثاني: موضوعات القصة

وبصدد الجانب الثاني من دراسة القصّة، نجد القصّة تحدّثت عن ستة موضوعات رئيسية، وهي كالتالي:

١ ـ بعثة موسى ومعاجزه.

٢ ـ أساليب الدعوة وأدلتها.

٣ ـ مواجهة الكافرين له من فرعون وأتباعه.

٤ ـ التحريفية في العبادة.

٥ ـ الحياة الشخصية لموسى.

٦ ـ الأوضاع العامة للشعب الإسرائيلي.

وقد جاءت هذه الموضوعات الرئيسية المتعدّدة في مواضع من القرآن مختلفة ومتفرقة، ويجدر بنا أن نشير إلى الأهداف العامة التي توخاها القرآن الكريم من وراء الإشارة إلى هذه الموضوعات أو التأكيد عليها مع بيان المهم منها.

١. بعثة موسى ومعاجزه

لاشك أنّ من الأهداف الرئيسية التي توخاها القرآن الكريم هو ربط الإنسان بعالم الغيب، وتأكيد إيمانه وتوجيه فطرته الأصيلة ـ التي فطره الله سبحانه وتعالى على الإيمان به ـ وجهة صحيحة؛ لأنّ الإنسان بدأ من الغيب ـ كما أشارت إلى ذلك قصة آدم عليه السلام ـ وينتهي بعالم الآخرة الذي هو غيب، فلابدّ أن يبقى مرتبطاً ومتفاعلاً من الناحية الواقعية مع الغيب في كلّ أدوار حياته الدنيوية وشؤونها.

ومن أجل هذا الهدف الرئيسي نجد القرآن يتحدّث في مواضع كثيرة عن عالم الغيب وجوانبه المتعدّدة، وبعض القوانين العامة التي تتحكم فيه، والعلاقات

الـتي تسـوده، بالإضافة إلى طرحه لمفاهيم معينة عن هذا العالم ربّمـا لا يكون لها أثر كبير في حياته الدنيوية غير هذا الربط الذي يهدف إليه القرآن الكريم، كما هو الحـال في طـرح مفاهـيم اللوح والقلم والكرسي والعرش[1]، وعلى هذا الأساس يمكن أن نرى أنّ هذا الهدف مما استهدفه القران من قصة موسى عندما تعرض إلى ذكر هذا القدر من المعاجز والتأكيد عليها.

ولعـلّ في هـذا مـا يـبرّر الاهتمام القرآني في تكرار هذا الموضوع وإعطاء تفصـيلات كـثيرة عـنه في القصّـة، وإذا أردنـا أن نقـارن بين الآيات التي جاءت تتحدّث عن هذا الموضوع والآيات التي تحدّثت عن بقية الموضوعات الأُخرى في القصّـة لوجدنا هذا الموضوع يكاد يطغى على بقية الموضوعات، من حيث ما ذكر فـيه من تفصيلات. فقد وجدنا أنّ هذا الموضوع يشار إليه في مواطن عديدة منها: كيفـية نجـاة موسـى من الذبح عند ولادته، وكيفية بعثة موسى وخطابه من وراء الشـجرة الـتي تشـتعل نـاراً، وفي معجـزة العصـا والـيد، وفي توالي الآيات على الفرعونـيين: مـن الـدم والجـراد والقمـل والطوفان ونقص السنين والثمرات، وفي انفـلاق الـبحر لبني إسرائيل، وفي موت الأشخاص الذين اختارهم موسى لميقات ربه ثمّ بعثهم، وفي قضية قارون وخسف الأرض به، وفي نتق الجبل في قصّة البقرة، وغيرها من الآيات الأُخرى، ويكاد أن تستوعب هذه الأمور أكثر قصّة موسى.

مضـافاً إلى هذا الهدف القرآني العام لاحظنا في دراستنا في القسم الأوّل وجود أهداف ثانوية أُخرى لهذا الموضوع فرضها السياق القرآني، وكان من أهمّها إيضاح فكـرة أنّ صـدود الكافـرين عن الدعوة وعدم انخراطهم فيها لم يكن نتيجة سبب

---

(١) تناولنا هذا الموضوع بشيء من التوضيح في بحث المحكم والمتشابه، وبحث التفسير في علوم القرآن عندما تعرضنا لبيان الحكمة من المتشابه.

موضـوعي مرتـبط بـالدعوة نفسها، مثل: عدم استكمالها للحجج والبراهين، والمعاجز الغيبـية، أو شخصـية النبي وعدم لياقته، أو بذله للجهد الكافي، وإنّما يكون بسبب الظروف النفسية والاجتماعية التي يعيشها الكافرون أنفسهم، حيث تتحول المواقف السـلبية اليومـية مـن خلال الصراع أو العادات والتقاليد الموروثة، أو الانحرافات الجزئـية، إلى حالـة نفسـية تغلـف القلب والعقل وتختم عليه، فيصبح الجحود هو الموقـف العـام دون أن يستخدم الإنسان عقله أو فطرته، بل قد يتمسّك بالجحود حتى مع تسليمه بالحقيقة من خلال أدلّتها، كما أشار القرآن الكريم إلى ذلك.

وبذلـك يكـون طرح هذا الموضوع لـه تأثير كبير في تربية الإنسان المسلم عـلى الإيمان بالغيب من ناحية، كما أن إيضاح هذا القانون الاجتماعي لـه علاقة بالدعوة والموقف منها من ناحية ثانية، كما يكون له تأثير كبير على فهم المواجهة بين المسلمين والكافرين أيام النبي محمّد ﷺ وما بعدها من ناحية ثالثة.

ويمكـن أن نضـيف إلى ذلـك هدفـاً آخـر، وهو: أنّ الإشارة إلى تفاصيل الآيـات بشـكل خـاص في عصـر موسـى وغيره يبين بوضوح المبرر لعدم مجيء الآيـات في عهـد رسـول الله ﷺ الـتي كان يطالب المشركون بنزولها أحياناً، أو يـتوقع المسلمون نزولها بالمشركين أحياناً أُخرى، كما أشار القرآن الكريم إلى هذا الهـدف؛ إذ يصـبح مـن الواضـحات أنّ الأنبـياء السابقين بالرغم من أنّهم جاءوا بالآيـات العديـدة، ولكنهم لم يتمكنوا من خلالها أن يكسروا هذا الحاجز النفسي، ويـرفعوا هذا الغلاف القلبي، وأنّ هذه الآيات إنّما جاءت للعذاب والانتقام، وهذا لا يتناسـب مع الرسالة الخاتمة والتطور الإنساني لها: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾[1].

---

(١) الأنفال: ٣٣.

٢. أساليب الدعوة وأدلتها

لاشك أنّ العقيدة في الدعوة الإلهية تمثل جانبين:

أحدهما: الجانب الإلهي فيها، وهو الإيمان بوجود الله تعالى ووحدانيته وصفاته، وهذا جانب يمكن أن يُعتمد في معرفته على العقل والدليل والبرهان.

والآخر: الجانب الذي يعبّر عن ارتباط الداعية ـ الرسول ـ بالله سبحانه وصدوره عن أمره تعالى، وهذا الجانب ربّما لا يمكن إثباته مبدئياً إلا عن طريق المعجزة[1]، فالمعجزة تعبير عن الاستجابة إلى الحاجة في هذا الجانب من الدعوة ـ كما شرحنا ذلك في بحث المعجزة ـ بخلاف الجانب الأوّل الذي يمكن فيه الاعتماد على أسلوب الادلة والبراهين المنطقية والوجدانية.

وعلى هذا الأساس من الفهم نجد الأنبياء لم يكتفوا في دعوتهم ورسالتهم بالأدلة المنطقية وحدها، كما لم يكتفوا بالمعجزة وحدها، فلم يترك الأنبياء هذه الأدلة المنطقية والوجدانية في مخاطبتهم للناس بالدعوة إلى الله وتوحيد الإله، ولم يكتفوا بالإتيان بالمعجزات على أساس أنّها الدليل الوحيد لإثبات ذلك، وإن كنا لا ننكر ما للمعجزة من تأثير كبير في الجانب الأوّل من العقيدة أيضاً.

وفي قصّة موسى نجد في الموضوعات التي تحدّثت عنها القصّة هذه الأساليب والأدلة، وأكّدتها في مواضع عديدة، حيث تناولت بعض الأدلة والبراهين التي

---

(١) قد يكون إخبار النبي بالوحي والرسالة ـ وهو إنسان عاقل معروف بالصدق والأمانة، وعلى مستوى عالٍ من الكمالات النفسية والأخلاقية ـ كافياً في تصديقه والإيمان به، ولكن هذا الأمر لا يمكن أن يكون عاماً لجميع النّاس الذين يدعوهم النبي إلى الايمان برسالته، وإنّما هو لمن يعرف ذلك فيه، وأمّا الآخرون فقد يتهمونه عناداً أو جهلاً بشخصيته، فيحتاج النبي إلى المعجزة عندئذ. منه قدّس سرّه.

اعتمدها موسى في مخاطبة فرعون بالإضافة إلى المعجزات.

بل نجد أنّ هذه المخاطبة ـ مخاطبة العقل والوجدان ـ جاءت قبل أن يستند موسى إلى دليل آخر من الآيات والمعجزات؛ لأنّ التسلسل المنطقي للتفكير والانفعال كان يفرض ذلك، فالنبي يخاطب العقل والوجدان في بداية الأمر، ثمّ يعمل بعد ذلك على كسر الحواجز النفسية والروحية التي تمنع العقل والوجدان من الإدراك والفهم.

كما نجد أن موسى في هذه المخاطبة يتبع الأساليب المختلفة التي كانت تتصف باللين والرفق تنفيذاً لأمر ربه، فكان يتوسل إلى فرعون أحياناً، ويتحدّث إليه بالقول اللين ويذكّره بآيات الله أحياناً أخرى، كما قد يشير إلى عذاب الآخرة وعاقبة الإصرار على الكفر والطغيان ثالثة. كلّ ذلك من أجل أن يحقّق النبيّ غاياته التي يرمي إليها، وهي: هداية الناس إلى الله سبحانه وسعادتهم في الدنيا والآخرة.

ويهدف القرآن الكريم من تناول هذا الموضوع في القصّة وغيرها إلى هدف من أهدافه الرئيسية، وهو: تأكيد أنّ مسألة الإيمان بالله سبحانه وتعالى ليست مسألة غريبة في حياة الإنسان غرابة المعاجز والآيات، وإنّما هي شيء فطري ينبع من ذات الإنسان ويهديه إليها عقله وحسه ووجدانه. ولذلك اعتمد الأنبياء مخاطبة الناس عن هذا الطريق قبل أن يخاطبوهم عن طريق المعجزة والآية.

كما أنّه يهدف ـ أيضاً ـ إلى أن الرسول ﷺ حين يدعو الناس إلى الله لا يكتفي بطرح الفكرة فحسب، ويطلب منهم الإيمان المقلد الساذج نتيجة لوجود المعجزة، وإنّما يحاول أن يصل إليهم ويتوسل إلى إيمانهم عن طريق الدليل والبرهان العقلي والمخاطبة الوجدانية؛ لتحقّق القناعة والاطمئنان بذلك.

مضافاً إلى الأدلة والبراهين نجد في القصّة إشارات إلى عدّة قضايا مهمة

ترتبط بنجاح الدعوة الإلهية وتحقيق أهدافها:

الأُولى: قضية أخلاق الحركة والرسالة، مثل: الصبر، والصمود، والأمل بالمستقبل، والثقة بالله، والتوكل عليه.

الثانية: قضية الطاعة للقيادة والنظم في العمل.

الثالثة: قضية الاطلاع على مواقف الأعداء وحركتهم، كما يظهر ذلك من قضية مؤمن آل فرعون، ومجيء الرجل من أقصى المدينة.

٣. مواجهة الكافرين والمنافقين

يعطينا القرآن الكريم صوراً وألواناً من المواجهة التي تحصل بين النبي وجماعته من جانب، والكافرين بدعوته أو أولئك المنافقين المتظاهرين بقبولها ولكنّهم يعادونها في مواقفهم وأعمالهم من جانب آخر.

وتتخذ هذه المواجهة صوراً وألواناً مختلفة ومتفاوتة على اختلاف مدى نجاح النبي في الدعوة، وسعة أهدافه، ومقدار معارضته للمفاهيم الاجتماعية السائدة، والتحوّل الذي يسعى لإيجاده، وتكاد أن تكون هذه المواجهة شيئاً طبيعياً نتيجة الصراع الذي يدور بين الفكرة الجديدة وأنصارها والفكرة السائدة في المجتمع وحماتها.

والقرآن الكريم حين يعرض هذا الموضوع في قصّة موسى يريد أن يؤكّد هذا المفهوم الاجتماعي والسّنة التأريخية في الصراع، ولاسيّما إذا كان صراعاً شاملاً وإخراجاً للنّاس من الظلمات إلى النور وأن هذه المعارضة القوية من المشركين وغيرهم التي حصلت للنبي محمّد صلى الله عليه وآله ليست بدعاً في التأريخ، وإنّما هي النتيجة الطبيعية للصراع الفكري والأخلاقي والسياسي والاجتماعي، كما أنّنا نجد في هذا العرض للموضوع في القصّة إيضاحاً للأعباء التي يتحملها النبي في

سبيل الدعوة، وأنّها ليست أعباء عادية يتمكن كلّ واحد من الناس أن يتحملها، وإنّما هي تحتاج إلى إرادة قوية وعزم شديد وتصميم عميق الجذور على السير في خط الدعوة حتى في أشدّ الظروف الموضوعية قسوة وأبعدها ملائمة، ويتعرض فيها الرسول إلى ألوان من العذاب النفسي والجسدي والأخطار التي ترتبط بحياته وسمعته وشخصيته، بل قد ينتهي الأمر بأن يتعرض النبي إلى القتل والاغتيال نتيجة لذلك.

وهذه الآلام قد تكون بسبب الموقف الخارجي للأعداء الظاهرين العلنيين، وقد تكون من مرضى القلوب والنفوس، والأعداء الداخليين المنافقين، وقد تكون من ضعفاء الإيمان والبسطاء والجهال من الناس.

وحين يشير القرآن إلى ألوان المواجهة وأساليبها في هذه القصّة نجد أنفسنا أمام الواقع الاجتماعي الذي كان يواجه به النبي ﷺ في دعوته وأمام الأساليب والألوان نفسها، فكأنّ قصّة موسى عليه السلام إنّما هي تعبير عن مسيرة دعوة النبي وآلامه، ولعلّ هذا هو أحد الأسباب المهمة الذي يفسر لنا مجيء قصّة موسى بهذا القدر من التفصيل في القرآن الكريم.

٤. الجانب التحريفي في العبادة

من الموضوعات الهامة التي تعرضت لها القصّة هو الجانب التحريفي في العبادة، فإنّ بني إسرائيل وغيرهم ـ كما يبدو من انقيادهم لموسى ـ آمنوا به وبدعوته، ولكن هذا الإيمان بالشعارات العامة التي كان يرفعها موسى لا يعني أنّهم كانوا يعرفون محتواها الأصيل بأدق معانيه وجميع أبعاده، الأمر الذي لو حصل كان من الممكن أن يصدهم عن الانسياق وراء أفكار وثنية أخرى، لذلك نجدهم ـ وهم قد خلصوا من عذاب فرعون ومطاردته، وتحرّروا من طغيانه ـ تطفو على

أفكـارهم ومشـاعرهم الكـثير مـن الرواسب الوثنية ذات المدلول المنحرف، هذه الرواسب التي كانوا قد تأثروا فيها بالمجتمع الفرعوني الذي كانوا يعيشون فيه.

وهـي حـين تطفو على السطح لا يعني أنّهم كانوا قد تنازلوا عن شعاراتهم السـابقة ومدلولاتهـا أو تخلّـوا عـن عقـيدة التوحيد، وإنّما يعني ذلك: أنّهم كانوا يفهمـون مدلـول الشعارات بصورة سطحية وساذجة بحيث ينسجم مع هذا العمل المنحرف، فالعجل في نظرهم هو تجسيد للإله الذي دعا إليه موسى، والأصنام ـ أن يـتخذها هـم موسـى للعبادة ـ هي الوسائط المادية للتعبير عن العبادة للإله الذي دعا إليه موسى... وهكذا.

ولعلّ القرآن الكريم يهدف في هذه الإشارة إلى ناحيتين:

الأولى: مناقشة أفكار الجاهليين المعاصرين لنزول القرآن حين كانوا يقولون في أصـنامهم ويـبرّرون عبادتهم لها: إنّهم اتخذوها واسطة وزلفى إلى الله: ﴿أَلاَ لِلَّهِ الدِّيـنُ الْخَـالِصُ وَالَّذِيـنَ اتَّخَـذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللهِ زُلْفَى إِنَّ اللهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾[1].

الثانـية: إنّ الإنسـان حـين يؤمن بالله وبالرسول ويحظى بصحبته ويستمع إليه لا يعني أنّه قد تجرد دفعة واحدة عن جميع محتوياته الداخلية، وقضى على كلّ الرواسـب الـتي لا تلـتقي في واقعهـا مـع أصالة الرسالة والدعوة التي يدعو إليها الرسول، وإنّما غاية ما يدل عليه ذلك هو الإيمان بالمدلول الحرفي للشعار والفكرة، الأمـر الـذي قـد يـؤدي إلى التحريف والخطأ في التطبيق، والوصول إلى الدرجة العالية من الإيمان يحتاج إلى ممارسة واقعية وعملية في الالتزام والطاعة، وإلى فهم وتدبّـر في المفاهـيم والأفكار، وهذا ممّا أشار إليه القرآن في بعض الموارد حين ميّز

---

(١) الزمر: ٣.

بين ادعاء الإسلام والإيمان: ﴿قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾[1].

وهذه المظاهر من أخطر الظواهر التي واجهت الأديان الإلهية حين تعرّضت للتحريف في العبادة والعلاقة مع الله تعالى مع الاحتفاظ بنفس المفاهيم والشعارات الأصلية، ووجد المحرفون دائماً المبررات والذرائع والعناوين التي يوجهون فيها هذه الانحرافات.

ومن أجل ذلك تبنى الإسلام مبدأ التوقيفية في العبادة والتزم بأنّها منهج معين يضعه الله سبحانه وتعالى للإنسان ليصوغ به غريزة التدين وإحساسه بالدين، ويحدد فيه شكل العلاقة بالله تعالى وصيغتها، ولا يصح للإنسان أن يتصرف في هذا الأمر بحسب ميوله أو اجتهاده للتعبير عن هذه العلاقة. والسر في ذلك كله هو: أنّ طبيعة العلاقة بين الله سبحانه وتعالى والإنسان إنّما هي علاقة غيبية، لأنّ طرفها الآخر هو الله تعالى، ولا يمكن للإنسان ـ وهو موجود مادي ـ أن يدرك الطريق الذي يوصله للتقرب إلى الله تعالى بنفسه، فلابدّ له من أجل تحقيق ذلك أن يشخص الله سبحانه وتعالى له هذا الطريق، فقد يكون ما يتصوره الإنسان مقرباً نحو الله مبعداً عنه، كما جاء ذلك في بعض النصوص التي وردت عن أهل البيت عليهم السلام[2].

---

(١) الحجرات: ١٤.

(٢) وقد ورد عن الإمام الصادق لمّا سئل عن العبادة: قال: «حسن النية بالطاعة من الوجوه التي يطاع الله منها». كما ورد عن أبي جعفر عليه السلام قال: «قال رسول الله ألا إنّ لكلّ عبادة شِرّةً (الرغبة الشديدة) ثمّ تصير إلى فترة، فمن صارت شِرّةُ عبادته إلى سنتي فقد اهتدى، ومن خالف سنتي فقد ضلّ، وكان عمله في تبار». الكافي ٢: ٨٣ و ٨٥.

٥ـ الحياة الشخصية لموسى

لقد تناولت المواضع السابقة من قصّة موسى بعض التفاصيل عن الحياة والسيرة الشخصية له، خصوصاً فترة ما قبل بعثته عليه السلام، ولعلّ القرآن الكريم استهدف من وراء عرض هذا الموضوع في قصّة موسى هدفين:

الأوّل: ما أشرنا إليه سابقاً في تحليلنا لمقاطع القصّة من سورة القصص: من أنّ هذه التفصيلات قد تدلّ على جانب من إعجاز القرآن؛ إذ يدل الاطلاع عليها على مدلول يختلف عن مدلول الاطلاع على أحوال موسى (الرسول)؛ لأنّ أحوال موسى (الرسول) كانت تتحرك في المجتمع العام، وبذلك تكون معروفة بشكل طبيعي ويتناقلها التأريخ، على خلاف أحوال موسى (الرسول) قبل البعثة خصوصاً إذا كانت هذه التفاصيل ممّا ينفرد به القرآن الكريم عن الكتب السماوية الأُخرى.

الثاني: ما أشرنا إليه في بحث مراحل الدعوة: من أنّ هذا الجانب يبرز لنا موسى في صورة الإنسان الذي قد أعدّه الله سبحانه وتعالى للقيام بأعباء الرسالة، وأنّه يتمكن بما يتمتع به من خلق وعاطفة وجرأة ومكانة من تحمل أعبائها.

ويمكن أن نضيف إلى ذلك أمراً ثالثاً هو: أنّه من خلال التعرّف على حياة موسى الشخصية سوف تتكشف لنا بعض الأوضاع الاجتماعية السائدة حينذاك في المجتمع الفرعوني، ومستوى الظلم الذي كان يعاني منه الإسرائيليون، واستسلامهم لهذا الواقع المرير، وما أنعم الله سبحانه وتعالى به على بني إسرائيل عامة، وموسى بشكل خاص من نعم وألطاف.

٦ـ الأوضاع العامة للشعب الإسرائيلي

لقد تناول القرآن الكريم بعض الأوضاع والصفات العامة للشعب الإسرائيلي، وأشرنا إلى بعضها عند دراستنا للمرحلة الثالثة من دعوة موسى، ويمكن أن

نلخص ما تكشف عنه هذه الأوضاع والصفات التي تناولها القرآن، وهي:

أولاً: إنّ الشعب الإسرائيلي كان يتصف بازدواجية فضيعة نتيجة لمختلف الظروف التأريخية والاجتماعية التي مرّ بها، والتي تراكمت آثارها المتنوعة والعميقة في سلوكه الاجتماعي ومحتواه النفسي والروحي.

وكانت تتمثل هذه الازدواجية في الشعور بالعظمة والامتياز والقربى من الله بوحي من تأريخه المجيد الذي عاشه آباؤه وأجداده، كتأريخ النبوّات والمقام الاجتماعي المتميز الذي كان ليوسف ﷺ وإنقاذه للمجتمع من الكوارث الطبيعية، والتخطيط الاقتصادي الرائع الذي قام به من ناحية، ونجد أن هذا الشعب في الوقت نفسه قد قاسى حياة طويلة من الاضطهاد والاستعباد ورزح في ظل مستلزماتها من جهل وفقر وانحطاط خلقي ونفسي واجتماعي من ناحية أخرى.

ولعلّ هذه الازدواجية هي التي تفسر لنا تململ الإسرائيليين، وعدم تحملهم لأعباء الرسالة وعملية الخلاص والإنقاذ من ناحية، وتماديهم في الطلبات، وكثرة تمنياتهم على موسى، وعدم استجابتهم للخط الذي رسمه لهم لإنقاذهم، وهو خط الجهاد لتحرير الأرض المقدسة من ناحية أخرى، وقد صنعوا كلّ ذلك على الرغم ممّا يتمتع به موسى من مكانة عظيمة عندهم، لأنّه كان مخلّصهم ومنقذهم من الظلم الفرعوني وضحى من أجلهم بموقعه الاجتماعي وحياته الهنيئة.

وقد استهدف القرآن من وراء إعطاء هذه الصورة للشعب الإسرائيلي تسليط الأضواء على واقع اليهود الذين كانوا يعايشون المسلمين، وكان ينظر إليهم العرب قبل ظهور الإسلام على أنهم أهل الكتاب والمعرفة بالأديان وبكلّ ما يتصل بعالم الغيب. وحيث تتكشف هذه الصورة الواقعية (الازدواجية) لهذا الشعب وتتضح معالمها سوف يظهر للمسلمين مدى إمكان الثقة باليهود وعدم صحة نظرتهم للأشياء، ويتضح تفسير موقفهم السلبي من الرسالة والنبي ﷺ،

وأنّه موقف نفسي وأخلاقي فاسد.

كما يمكن أن نلاحظ ـ أيضاً ـ مدى الأثر الذي تركته سنوات الاضطهاد والظلم على الأوضاع النفسية والروحية للإسرائيليين، والشعور بالضعف والحذر، ومعاناة موسى عليه السلام في محاولة التغلّب على ذلك، حيث يظهر هذا الأمر بصورة واضحة في قضية دعوة موسى قومه للدخول إلى الأرض المقدسة التي كانت هدفهم وأملهم، خصوصاً أنّ هذه الدعوة جاءت بعد الانتصارات العظيمة التي حققها لهم موسى والاستقلال والعزة والكرامة الإنسانية، ومع ذلك رفضوا هذه الدعوة بسبب الخوف.

ويبدو هذا الأمر واضحاً ـ بالمقارنة ـ مع دعوة النبي محمّد صلى الله عليه وآله للمسلمين إلى قتال الروم في معركة (تبوك)؛ إذ استجاب عامة المسلمين لذلك باستثناء نفر منهم كانوا يشعرون بهذا اللون من الخوف والضعف.


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی



الفصل الرابع

قصة عيسى عليه السلام في القرآن


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

عيسى وقصّته

عيسى عليه السلام هو ابن مريم ابنة عمران على ما ذكره القرآن الكريم، وهو آخر الأنبياء الذين ذكرهم القرآن الكريم بالاسم قبل نبيّنا محمّد صلى الله عليه وآله، وهو رابع أنبياء أولي العزم الذين تحدثنا عنهم.

وقد جاءت قصته في الأناجيل الأربعة المعروفة (متي، ومرقس، ولوقا، ويوحنا) التي يعترف بها المسيحيون بشكل عام، كما جاءت في الإنجيل الخامس (إنجيل برنابا)، ولكنّها جاءت في هذه الأناجيل مع اختلاف كبير بينها في التفاصيل، بحيث لا يمكن الجمع بينها كما سوف نعرف.

وهي في الوقت نفسه مختلفة عمّا جاءت في القرآن الكريم في بعض الجهات.

ولم يرد ذكر هذه القصّة في التوراة بطبيعة الحال؛ لأنّها أقدم من وجوده، إلاّ أنّ الغريب أنّه لم يرد ذكر لعيسى عليه السلام في التأريخ اليهودي والإنساني العام، ولا في تاريخ اليهود وجماعتهم إلاّ في وقت متأخر نسبياً، الأمر الذي جعل بعض المؤرخين يذهبون إلى إنكار وجوده، وادعاء أنّ قصّته هي من الأساطير التأريخية التي تشبه قصص بعض الأبطال الأسطوريين، مثل: كرشنا، واوزديس، واتيس، واونيس، وديونش، ومتراس[1].

---

(١) راجع كتاب قصّة الحضارة ١١: ٢٠٢ ـ ٢٠٦.

ولذلك يعتبر تأكيد القرآن الكريم وجوده وذكر قصّته من أهمّ الأدلة وأوضحها على وجود هذا النبي العظيم.

وقد ورد ذكره في القرآن الكريم باسمه الشريف (عيسى) خمساً وعشرين مرّة، كما ورد اسمه باسم المسيح إحدى عشرة مرّة، ثلاث منها مقرونة باسمه الشريف، وورد ذكره تحت عنوان (ابن مريم) بشكل مستقل مرّتين، فيكون مجموع الموارد التي ذكر فيها في القرآن الكريم خمساً وثلاثين مرّة.

كما أنّ قصّته وردت في القرآن الكريم متفرقة ومتناثرة ـ أحياناً ـ ضمن قصّة والدته مريم ﷺ التي تعتبر من مقدمات وشؤون قصّته.

وأكثر الموارد تفصيلاً ما ورد في سور آل عمران، والمائدة، ومريم[1]، وبعد ذلك في سورتي النساء، والصف[2].

ولم ترد القصّة كاملة ولو على نحو الإجمال إلاّ في موضع واحد، وهو في سورة آل عمران، كما أنّها جاءت في هذه المواضع مختلفة اللفظ والهدف بحسب السياق الذي جاءت فيه القصّة، وإن كانت للقصّة أهداف خاصة كما سوف نشير إلى ذلك في الملاحظات العامة حول القصّة إن شاء اللّه.

وتتلخص قصّة عيسى ﷺ في الجوانب الثلاثة الآتية:

الجانب الأوّل: قوم عيسى ﷺ

قد يظهر من القرآن الكريم أنّ قوم عيسى ﷺ هم بنو إسرائيل؛ لأنّه جاء الحديث في القرآن عن إرسال عيسى ﷺ إلى بني إسرائيل: ﴿وَرَسُولاً إِلَى بَنِي

---

(١) آل عمران: ٣٢ ـ ٦٢، والمائدة: ٧٢ ـ ٨٦، و ١١٠ ـ ١١٩، ومريم: ١٦ ـ ٣٧.

(٢) النساء: ١٥٥ ـ ١٥٩، و ١٧١ ـ ١٧٣، والصف: الآيات ٦ ـ ٨، و ١٤.

إسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْراً بِإِذْنِ اللهِ﴾[1].

كما أنّه في سياق الحديث عن بني إسرائيل يقول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لاَ تَهْوَى أَنفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقاً كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقاً تَقْتُلُونَ﴾[2]. وهكذا نجد ذلك في (الآية ١٥٦) من سورة النساء.

وجاء في بعض الموارد حديث عيسى عليه السلام مخاطباً بني إسرائيل، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّراً بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾[3].

وقوله تعالى: ﴿ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ﴾[4]. كما يظهر ذلك ممّا يذكره القرآن عن نتائج الرسالة من موقف بني إسرائيل تجاه عيسى وموقفه تجاههم في قوله تعالى: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ * كَانُوا لاَ يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾[5].

وقوله تعالى: ﴿ وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنْكَ إِذْ جِئْتَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ

---

(١) آل عمران: ٤٩.

(٢) البقرة: ٨٧.

(٣) الصف: ٦.

(٤) المائدة: ٧٢.

(٥) المائدة: ٧٨ ـ ٧٩.

كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُبِينٌ﴾[١].

وكـلّ هذه الآيات الكريمة وما يشبهها يظهر منه أنّ قوم عيسى ﷺ هم بنو إسرائيل.

بل قد يبدو ولأوّل وهلة أنّ عيسى ﷺ كانت دعوته مختصة ببني إسرائيل، كما قد يبدو ذلك في موسى ﷺ أيضاً، إلاّ أنّنا سوف نذكر في الحديث عن مراحل حياة عيسى ﷺ أنّ دعوته لم تكن مختصة ببني إسرائيل، ولكنّ قومه الذين عاش بينهم وتحدّث إليهم هم بنو إسرائيل.

وإنطلاقاً من هذا الفهم يمكن أن نحدّد معالم هؤلاء القوم ممّا تحدّث عنه القرآن الكريم من مواصفات عامة لهذه الجماعة، وكذلك ممّا أشار إليه من مواصفات لهم في إطار الحديث عن عيسى ﷺ في أيام حضوره معهم أو بعده، حيث يلاحظ أنّ القرآن قد تحدّث عن قوم عيسى في أيام حضوره ببعض المواصفات، وبعد وفاته ورفعه ببعض المواصفات الأخرى تتناول عدّة أبعاد:

أ. البعد العقائدي

١ ـ كان الإسرائيليون يؤمنون بالله والوحي الإلهي والرسالات، ويؤمنون بالتوراة والزبور، ولكنّهم في الوقت نفسه كانوا قد حرفوا هذه العقائد، فقالوا في الله: إن له ولد: ﴿وَقَالَتْ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللهِ وَقَالَتْ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَاتَلَهُمْ اللهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾[٢].

---

(١) المائدة: ١١٠.

(٢) التوبة: ٣٠.

٢ ـ كما أنّهم في الوقت نفسه كانوا قد اختلفوا في تفسير التوراة إلى حدّ كبير، بحيث أصبح يمثل ذلك مشكلة مستعصية انتهت بهم ـ أحياناً ـ إلى الكفر بآيات اللّه؛ ولذا كان من أهداف رسالة عيسى عليه السلام هو حل مشكلة هذا الاختلاف وبيان الحقيقة: ﴿وَلَمَّا جَاءَ عِيسَى بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُونِ﴾[1].

٣ ـ وبسبب تحريف التوراة والاختلاف في تفسيرها والكفر بآيات اللّه التي يأتيهم بها أنبياؤهم كانوا يقتلون هؤلاء الأنبياء أحياناً، كما تشير إلى ذلك الآيات القرآنية بشكل إجمالي، كقوله تعالى: ﴿أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقاً كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقاً تَقْتُلُونَ﴾[2].

وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾[3].

وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾[4].

وقوله تعالى: ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الأنبياء بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾[5].

وقوله تعالى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِمْ بِآيَاتِ اللهِ وَقَتْلِهِمُ الأنبياء بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلاً *

---

(١) الزخرف: ٦٣.

(٢) البقرة: ٨٧.

(٣) الصف: ٦.

(٤) البقرة: ٦١، وكذلك الآية ٢١ من سورة آل عمران.

(٥) آل عمران: ١٨١.

وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَاناً عَظِيماً * وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ﴾[1].

وقد جاء في النصوص أنهم قد قتلوا زكريا وابنه يحيى عليهما السلام، ويذكر القرآن الكريم محاولتهم لقتل المسيح وادعاءهم قتله[2].

ب. البعد الاجتماعي

لقد كانت العلاقات الاجتماعية بين الإسرائيليين عند ولادة عيسى عليه السلام تدور على محور الهوى، وحب الدنيا وزينتها: من الأولاد والنساء، والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة: ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ وَاللهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾[3].

ولذلك شاع بينهم الاختلاف إلى حدّ الاقتتال والأسر والاستعباد، كما شاع بينهم الإثم والعدوان، والتمرد على الأحكام والقوانين (العصيان)، والسكوت عن المنكرات، واتباع الهوى في الأخذ من التوراة أو رفضها، فيؤمنون بما تهواه أنفسهم منها، ويكفرون ببعضه الآخر الذي لا يتفق مع هوى النفس والمصالح الخاصة، والولاء للكافرين دون المؤمنين: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لاَ تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلاَ

---

(١) النساء: ١٥٥ ـ ١٥٧.

(٢) قصص الأنبياء للراوندي: ٢١٩، عن الكامل لابن الأثير: (إنّ يحيى عليه السلام لمّا قتل وسمع أبوه بقتله فرّ هارباً، فدخل بستاناً عند بيت المقدس فيه أشجار، فأرسل الملك في طلبه، فدخل في باطن شجرة، وقطعوا الشجرة وشقوها بالمنشار فمات زكريا عليه السلام...). الكامل في التاريخ ١: ٣٠٦.

(٣) البقرة: ٩٦.

تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ * ثُمَّ أَنتُمْ هَؤُلاَءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقاً مِنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِمْ بِالإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِنْ يَأْتُوكُمْ أُسَارَى تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلاَّ خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ * أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالآخِرَةِ فَلاَ يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلاَ هُمْ يُنصَرُونَ * وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لاَ تَهْوَى أَنفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقاً كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقاً تَقْتُلُونَ﴾[1].

وبهذا يمكن أن نفهم صدور اللعن عليهم على لسان داود وعيسى بن مريم: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ * كَانُوا لاَ يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ * تَرَى كَثِيراً مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ﴾[2].

كما يمكن بهذا أن نفسّر النتائج التي وصل إليها الإسرائيليون، وأشار إليها القرآن الكريم: من الذلّة والمسكنة والغضب الإلهي الذي باءوا به، وقد أكّدت النصوص التأريخية سيطرة الكفّار الرومان عليهم، ثم ما تعرّضوا له من إبادة وتشريد وتخريب على يد (بخت نصر) الحاكم البابلي عندما غزى الأرض

(١) البقرة: ٨٤ ـ ٨٧.

(٢) المائدة: ٧٨ ـ ٨٠.

المقدّسة[١]: ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا إِلاَّ بِحَبْلٍ مِنَ اللهِ وَحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللهِ وَيَقْتُلُونَ الأنبياء بِغَيْرِ حَقٍّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوا وكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾[٢].

ج. البعد السياسي

وعلى مستوى العلاقات السياسية نجد بني إسرائيل قد وضعوا أمور حياتهم وشؤونهم الاجتماعية والسياسية بيد أحبارهم ورهبانهم الذين حرفوا التوراة والكتب الإلهية، فاتخذوا هؤلاء الأحبار أرباباً لهم من دون اللّه يسمعونهم ويطيعونهم، ولا يسمعون كلام اللّه ولا يطيعونه.

وكان هؤلاء الأحبار قد تحولوا إلى الدنيا والرئاسة ـ وأصبحوا يمثلون علماء السوء في المصطلح الإسلامي ـ حتى أصبحت الدنيا مبلغ همهم، وتحولت هذه المقامات من مواقع للهداية والإصلاح إلى مناصب لأكل أموال الناس بالباطل يجمعونها ويكنزونها، ولا ينفقونها في سبيل اللّه، بل أخذوا من خلال هذه المواقع يصدون عن سبيل اللّه، ويمنعون الناس من سماع كلمة الحق والهدى أو اتباعه خوفاً منهم على مواقعهم وسلطانهم[٣]، قال تعالى: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ

---

(١) وقد ورد في بعض النصوص عن أهل البيت عليهم السلام: أنّ نتائج هذا اللعن هو: أنهم مسخوا قردة في عهد عيسى عليه السلام. راجع البحار ١٤: ٢٣٥ عن العياشي في تفسيره. وفي نص آخر في كمال الدين: أنهم مسخوا شياطين. كمال الدين: ٢٥٥.

(٢) آل عمران: ١١٢.

(٣) تشبه هذه الحالة التي يصفها القرآن ما وصلت إليه حالة الكنيسة الكاثوليكية والأرثوذكسية في بلاد أوروبا في القرون الوسطى؛ إذ كانت الكنيسة تقوم بهذا الدور حتى وقعت الثورة في بريطانيا وفرنسا بعد ذلك، وسقطت سلطة الكنيسة كلياً أو جزئياً، ثم تحولت إلى جهاز تابع للسلطة الاستعمارية.

وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا إِلَهاً وَاحِداً لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾(١).

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيراً مِنَ الأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلاَ يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ * يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ﴾(٢).

كلّ ذلك وهم يعيشون تحت سلطة الرومان، وقد ضربت عليهم الذلة والمسكنة بذلك، كما ذكرنا.

وقد سرت هذه الحالة بعد ذلك في النصارى من أتباع عيسى عليه السلام بعده، كما يشير القرآن الكريم إلى ذلك.

د . البعد الأخلاقي

لقد تحدّث القرآن الكريم عن جوانب من البعد الأخلاقي لبني إسرائيل بشيء من التفصيل لم يتحدّث به عن الأقوام الآخرين، والسبب في ذلك يرجع إلى:

أولاً: يمثل البعد الأخلاقي القاعدة الأساسية للمجتمع الإنساني بعد العقيدة والإيمان بالله تعالى.

ثانياً: إنّ أصل المشكلة في جماعة بني إسرائيل ترتبط بالبعد الأخلاقي، ويمكن أن تكون بقية الأبعاد نتائج له، كما يفهم ذلك من القرآن الكريم ـ كما

---

(١) التوبة: ٣١.

(٢) التوبة: ٣٤ ـ ٣٥.

شـرحنا ذلك في أبحاث تفسير القرآن الكريم ـ وبقيت هذه المشكلة قائمة ومؤثرة إلى حد كبير في هذه الجماعة حتى نزول القرآن الكريم.

ويمكـن تلخـيص أهـم الجوانب الأخلاقية لهذه الجماعة التي أكّدها القرآن الكريم بالأمور التالية:

١ ـ قسـوة القلـب إلى حـدّ الطبع والختم عليه، وهذا ماكانوا يتحدّثون به عندما يقولون: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ لَعَنَهُمُ اللّه بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلاً ما يُؤمِنُونَ﴾[١].

وقـال تعـالى: ﴿لَقَـدْ أَخَذْنَـا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رُسُلاً كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُـولٌ بِمَـا لاَ تَهْـوَى أَنفُسُهُمْ فَرِيقاً كَذَّبُوا وَفَرِيقاً يَقْتُلُونَ * وَحَسِبُوا أَلاَّ تَكُـونَ فِتْـنَةٌ فَعَمُـوا وَصَـمُّوا ثُمَّ تَابَ اللهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا وَصَمُّوا كَثِيرٌ مِنْهُمْ وَاللهُ بَصِـيرٌ بِمَـا يَعْمَلُـونَ * لَقَـدْ كَفَرَ الَّذِيـنَ قَالُوا إِنَّ اللهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾[٢].

وقال تعالى: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِـنْ الْحِجَـارَةِ لَمَـا يَـتَفَجَّرُ مِنْهُ الأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللهِ وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾[٣].

٢ ـ نقـض الميـثاق والعهد، وهي صفة عامة أكّدها القرآن في بني إسرائيل، وهـي أحـد الأسـباب الأخلاقـية والنفسـية التي تنتهي إلى قسوة القلب ثمّ الطبع والختم وقتل الأنبياء.

وقـد تقدمـت الآيات (١٥٥ ـ ١٥٧) من سورة النساء في البعد العقائدي

---

(١) البقرة: ٨٨.

(٢) المائدة: ٧٠ ـ ٧٢.

(٣) البقرة: ٧٤.

التي تربط بين نقض الميثاق وغلف القلوب وقتل الأنبياء.

٣ ـ العناد والجحود، حيث أكّد القرآن هذه الصفة فيهم في عدّة موارد من خلال ما أشار إليه من تكذيبهم لعيسى بن مريم عليه السلام بعد أن جاءهم بالبينات، وقولهم بشأنه: إنّه ﴿هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾[١].

٤ ـ المكر والخديعة، إذ صرح القرآن الكريم بذلك بشأن قصّة عيسى عندما مكروا به في محاولتهم لقتله وصلبه: ﴿وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللهُ وَاللهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ * إِذْ قَالَ اللهُ يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنْ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾[٢].

٥ ـ البهتان والكذب والقول بغير علم، كما يشير إلى ذلك القرآن الكريم في بهتانهم العظيم لمريم عليها السلام وادعائهم قتل المسيح مع أنهم لم يعرفوا ذلك باليقين، وقد تقدّم ذلك: ﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقاً يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُمْ بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنْ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنْ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾[٣].

٦ ـ الغرور والشعور بالامتياز على الآخرين والاختصاص باللّه تعالى، وإنّهم أحباء اللّه وأولياؤه، وإنّ الدار الآخرة مختصة بهم من دون الناس، وإنّ اللّه سبحانه وتعالى إذا كان يعذّبهم بعصيانهم فإنّما هو لأيام معدودة، قال تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ للهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾[٤].

---

(١) الصف: ٦.

(٢) آل عمران: ٥٤ ـ ٥٥.

(٣) آل عمران: ٧٨، وكذلك الآيات ١٥٦ ـ ١٥٧ من سورة النساء.

(٤) الجمعة: ٦.

وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمْ الدَّارُ الآخرة عِنْدَ اللهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾[١].

وقال تعالى: ﴿وَقَالَتْ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ﴾[٢].

وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَار إِلاَّ أَيَّاماً مَعْدُودَةً﴾[٣].

ووصل بهم الغرور والجرأة على اللّه سبحانه وتعالى حداً أن ادعوا أنّهم هم الأغنياء واللّه هو الفقير: ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمْ الأنبياء بِغَيْرِ حَقّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾[٤].

ومن هذا المنطلق الأخلاقي المتردّي وجدوا لأنفسهم الحق في استباحة أموال ودماء الناس الآخرين من غير بني إسرائيل، كما تحدّث عنهم القرآن الكريم: ﴿وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِقِنطَار يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِدِينَار لاَ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلاَّ مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِماً ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾[٥].

وقد تحدّث القرآن الكريم عن قوم عيسى ﷺ بعده أيضاً، فأشار إلى كثير من الانحرافات التي كان عليها الإسرائيليون أيام عيسى ﷺ، مضافاً إلى نقطتين مهمتين:

---

(١) البقرة: ٩٤.

(٢) المائدة: ١٨.

(٣) البقرة: ٨٠.

(٤) آل عمران: ١٨١.

(٥) آل عمران: ٧٥.

الأولى: وجود الاختلاف بين المسيحيين في عيسى عليه السلام حتى أصبحوا أحزاباً وجماعات بشأنه: ﴿فَاخْتَلَفَ الأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾[1].

الثانية: وجود من يقول بالغلو في عيسى عليه السلام بحيث يصعد به إلى درجة الألوهية فيقول: إنّه ثالث ثلاثة أو إنّه هو اللّه تعالى، وكذلك في أمّه، قال تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لاَ تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلاَ تَقُولُوا عَلَى اللهِ إِلاَّ الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَآمِنُوا بِاللهِ وَرُسُلِهِ وَلاَ تَقُولُوا ثَلاَثَةٌ انتَهُوا خَيْراً لَكُمْ إِنَّمَا اللهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَكَفَى بِاللهِ وَكِيلاً﴾[2].

وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ اللهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلاَ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ﴾[3].

ومع كل ذلك فقد كانت لرسالة عيسى عليه السلام ودعوته نتائج إيجابية مهمة سوف نشير إليها في الملاحظات العامة حول القصّة إن شاء اللّه تعالى.

شخصية عيسى عليه السلام

لقد ذكر العلاّمة الطباطبائي تحت عنوان: (منزلة عيسى عند اللّه تعالى

---

(١) الزخرف: ٦٥.

(٢) النساء: ١٧١.

(٣) المائدة: ١١٦.

وموقفه في نفسه): أنّ عيسى عليه السلام كان عبداً للّه وكان نبياً، ورسولاً إلى بني إسرائيل، وكان واحداً من الخمسة أُولي العزم صاحب شرع وكتاب، وهو: الإنجيل.

كما أنّ اللّه سبحانه وتعالى سمّاه بالمسيح عيسى، وكان كلمة اللّه وروحاً منه، وكان إماماً ومن شهداء الأعمال، وكان مبشراً برسول اللّه صلى الله عليه وآله، وكان وجيهاً في الدنيا والآخرة ومن المقربين، وكان من المصطفين، وكان من المجتبين وكان من الصالحين، وكان مباركاً أينما كان وكان زكياً، وكان آية للناس ورحمة من اللّه وبراً بوالدته، وكان مسلّماً عليه، وكان ممّن علّمه اللّه الكتاب والحكمة.

فهذه اثنتان وعشرون خصلة من مقامات الولاية، هي مجمل ما وصف اللّه سبحانه وتعالى به هذا النبي المكرم، ورفع بها قدره، وهي على قسمين: اكتسابية كالعبودية، والقرب، والصلاح، واختصاصية...[1].

وهذه الصفات ـ على الأكثر ـ هي مشتركه بينه وبين سائر أنبياء أُولي العزم الذين سبقوه وإن كان بعضها يختص به عليه السلام.

وهنا نحاول أن نقسّم هذه الصفات على الأبعاد الأربعة التي قسّمنا بها صفات إبراهيم عليه السلام، كما نضيف إليه خصالاً وخصائص أُخرى أشار إليها القرآن الكريم، ونتحدّث قليلاً عن الصفات التي اختص بها عيسى عليه السلام:

الأوّل: البعد الرسالي

وهي الصفات التي تشير إلى موقع عيسى عليه السلام من الرسالة الإلهية:

أ ـ الإمامة: وهي وإن لم يصرّح بها القرآن الكريم كما في إبراهيم وموسى عليهما السلام ولكن يمكن أن نستنبطها من آية سورة الأحزاب التي تحدّثت عن

---

(١) الميزان ٣: ٢٨١ ـ ٢٨٢ وقد وضع أمام كلّ صفة رقم الآية التي يشير إليها.

أخذ الميثاق الغليظ من الأنبياء؛ إذ يُذكر عيسى عليه السلام في سياق الخمسة أولي العزم: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا﴾[١].

كما أنّ القدر المتيقن من الذرية التي استجاب اللّه دعاء إبراهيم فيهم هو: عيسى عليه السلام فإنّه أفضل من إسحاق ويعقوب الذين يصرّح القرآن فيهما بعنوان الإمامة.

ب ـ النبوّة والرسالة على مستوى أولي العزم، كما أشرنا إلى ذلك في إبراهيم عليه السلام، وهذا ما يؤكّده القرآن الكريم عندما يذكر عن عيسى أن الله سبحانه وتعالى قد آتاه الإنجيل، وعلّمه الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل؛ إذ يفصل بذلك بيان هذه الشريعة: ﴿وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ﴾[٢]؛ لأنّ القرآن يصرح في سياق آية سورة المائدة بوجود الشريعة والمنهاج المستقل: ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِم بِعَيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَآتَيْنَاهُ الإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾[٣].

ج ـ الاصطفاء والاجتباء كما في إبراهيم عليه السلام وغيره من الأنبياء، بل يبدو من القرآن الكريم أن هذا الاصطفاء كان لجده وأمه أيضاً: ﴿إِنَّ اللّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ * ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِن بَعْضٍ وَاللّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[٤].

---

(١) الأحزاب: ٧.

(٢) آل عمران: ٤٨.

(٣) المائدة: ٤٦.

(٤) آل عمران: ٣٣ ـ ٣٤.

د ـ التصديق بالتوراة والتبشير برسول الله ﷺ، وبهذا يكون عيسى ﷺ صلة الوصل وحلقة التكامل للرسالة السابقة عليه والمُمهد للرسالة الخاتمة لنبينا محمّد ﷺ. وهو بهذا وإن كان لا يختلف عن موسى ﷺ الذي كان مصدّقاً لصحف إبراهيم ﷺ ووصايا يعقوب ومبشراً برسول الله ﷺ، ولكنّ القرآن الكريم يصرّح هنا في عيسى بكلا الأمرين بشكل يجعل ذلك صفة بارزة من صفاته، ولا سيما التصريح بالاسم الشريف للرسول (أحمد): ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّراً بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾[1].

ولعلّ هذا التأكيد منه ﷺ على هذا الدور؛ لأنّه كان يواجه التكذيب والشك بذلك في أوساط بني إسرائيل، وهذا على خلاف موسى الذي لم يكن يواجه مشكلة في هذا المجال.

هـ ـ آية للناس: ﴿وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً﴾[2]، فكان وجوده الشريف بنفسه، وولادة أمّه له من دون أب، وتكليمه للناس في المهد آيات إلهيّة ومعاجز ربانية تثبت له هذا المقام الرسالي، قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾[3] وقال تعالى: ﴿وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْراً مَقْضِيّاً﴾[4].

---

(١) الصف: ٦.

(٢) آل عمران: ٤٦.

(٣) المؤمنون: ٥٠.

(٤) مريم: ٢١.

وهـذه الصـفة والخصلة من المقامات الرسالية التي اختص بها عيسى عليه السلام: ﴿إنّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾[1].

وبذلـك كـان عليه السلام كـلمة مـن اللّه سبحانه وتعالى وروح منه، وآية للناس بـنفس وجوده الشريف وكلامه في المهد: ﴿إنّ اللهَ يُبَشّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَـى ابْـنُ مَـرْيَمَ وَجِـيهاً فِي الدّنْيَا وَالآخرة وَمِنْ الْمُقَرّبِينَ * وَيُكَلِّمُ النّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً وَمِنْ الصّالِحِينَ﴾[2].

و ـ نـزول المعجـزات الخاصـة عـلى يديـه، بحيـث اختص بهذا النوع من المعجـزات عـن بقـية الأنبـياء الذين سبقوه في ذكر القرآن لهم، فهو يحيي الموتى، ويبرئ الأكمه والأبرص، ويجعل لهم كهيئة الطير فينفخ فيه، فيكون طيراً بإذن اللّه تعـالى، ويخـبرهم بما يدخرون في بيوتهم من الطعام والشراب وغيرهما من المتاع؛ ولـذا جاء تأكيد القرآن الكريم لذلك أكثر من مرّة: ﴿أني قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبّكُمْ أنّي أخْلُـقُ لَكُـمْ مِـنْ الطّـينِ كَهَيْـئَةِ الطّيْرِ فَانفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْراً بِإذْنِ اللهِ وَأبْرِءُ الأكْمَـهَ وَالأبْـرَصَ وَأحْيِي الْمَوْتَى بِإذْنِ اللهِ وَأنَبّئُكُمْ بِمَا تَأكُلُونَ وَمَا تَدّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إنّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لَكُمْ إنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾[3].

الثاني: العلاقة باللّه تعالى

وهـي الصـفات الـتي تـتحدّث عـن نـوع ومستوى العلاقة بين اللّه تعالى وعيسـى عليه السلام. وهـنا نلاحـظ أنّ القرآن الكريم يتحدّث في هذا البعد عن الخصال

---

(١) آل عمران: ٥٩.

(٢) آل عمران: ٤٥ ـ ٤٦.

(٣) آل عمران: ٤٩.

التي تعبّر عن موقف العناية والرحمة الإلهية بعيسى عليه السلام في تصوير هذه العلاقة، بدل الصفات التي تعبّر عن موقف عيسى عليه السلام من اللّه باستثناء صفة واحدة، وهي صفة العبودية، فهو:

أ ـ عبد اللّه: ﴿قَال إنّي عَبْدُ اللّه آتَانِيَ الكِتَاب وجَعَلَنِي نَبِيّا﴾[١]، والعبودية المطلقة تشتمل على كل صفات التسليم والقنوت والشكر للّه تعالى التي تحدث عنها القرآن الكريم في وصف إبراهيم عليه السلام.

ب ـ أنعم اللّه عليه بنعم كثيرة، هي كل المقامات السابقة التي حصل عليها عيسى عليه السلام: ﴿إذْ قَالَ اللهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلى وَالِدَتِكَ إِذْ أَيّدتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النّاسَ فِي الْمَهْدِ وكَهْلاً وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنْ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْراً بِإِذْنِي وَتُبْرِءُ الأَكْمَهَ وَالأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَى بِإِذْنِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنْكَ إِذْ جِئْتَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُبِينٌ﴾[٢]، وهي نعم قد اختُص بها عيسى عليه السلام.

ج ـ وجيه عند اللّه ومن المقربين لديه، وهي صفة اختص بها عيسى عليه السلام وموسى في القرآن الكريم.

د ـ مسلَّمٌ عليه من قبل اللّه تعالى: ﴿وَالسّلامُ عليَّ يَوْمَ وُلِدتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيّاً﴾[٣]، وهي صيغة من السلام ذكرت ليحيى عليه السلام، كما أنّ السلام ذُكر لنوح، وإبراهيم، وعلى موسى وهارون، وعلى آل ياسين، وعلى المرسلين.

---

(١) مريم: ٣٠.

(٢) المائدة: ١١٠.

(٣) مريم: ٣٣.

هـ ـ كان عيسى عليه السلام مؤيداً بروح القدس؛ إذ ذُكر ذلك من جملة النعم التي أنعم اللّه بها عليه، وقد أكّد القرآن ذلك في عدّة مواضع: ﴿وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾[1]، وكذلك (الآية ٢٥٣) من البقرة، و(الآية ١١٠) من المائدة ولم تُذكر هذه الصفة والخصلة إلاّ له ولنبينا محمّد صلى الله عليه وسلم في سورة النحل (آية ١٠٢).

و ـ رفعه اللّه إليه بعد الوفاة، وطهّره من الكافرين، وهي من الصفات التي اختص بها اللّه سبحانه وتعالى رسوله عيسى عليه السلام، قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾[2].

وقال تعالى: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلاَّ اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِيناً * بَلْ رَفَعَهُ اللهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللهُ عَزِيزاً حَكِيماً﴾[3].

الثالث: العلاقة بالناس

لقد ذكر القرآن الكريم نوعاً آخر من الصفات لعيسى عليه السلام توضح طبيعة العلاقة بينه وبين الناس بصورة عامة، أو مع والدته وقومه من بني إسرائيل بصورة خاصة، وهي:

أ ـ رحمة من اللّه تعالى للناس، فعلاقته مع الناس علاقة رأفة وخير وهدى وصلاح ومحبة وإحسان: ﴿وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْراً مَقْضِيّاً﴾[4].

---

(١) البقرة: ٨٧.

(٢) آل عمران: ٥٥.

(٣) النساء: ١٥٧ ـ ١٥٨.

(٤) مريم: ٢١.

كما أنّ القرآن الكريم يصوّر هذا الموقف من الرأفة والرحمة في عيسى عليه السلام عندما يتحدّث عنه عليه السلام وعن موقف قومه منه في يوم القيامة: ﴿وَإِذْ قَالَ اللهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِن دُونِ اللهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ﴾[1]، ثم يعقب القرآن الكريم بعد ذلك فيذكر موقف الرأفة والرحمة في عيسى في قوله: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾[2].

ب ـ الشاهد عند اللّه على أعمال الناس والرقيب على سلوكهم في أقوالهم وأفعالهم، قال تعالى: ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلاَّ لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً﴾[3].

وقال تعالى: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلاَّ مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾[4].

ج ـ الوجيه في الدنيا، حيث كان له الجاه عند اللّه في الآخرة ـ كما ذكرنا ـ ولكنّه مع وجاهته عند اللّه فهو وجيه بين الناس؛ لموقع بيته العظيم الذي اصطفاه اللّه سبحانه وتعالى من بين الناس والآل ولولادته المتميزة، وللآيات والمعاجز التي جاء بها، ثم لسلوكه وأخلاقه الخاصة التي جعلته وجيهاً عندهم مع تواضعه وزهده في هذه الدنيا: ﴿وَجِيهاً فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾[5]، فهو يشبه من هذه

---

(١) المائدة: ١١٦.

(٢) المائدة: ١١٨.

(٣) النساء: ١٥٩.

(٤) المائدة: ١١٧.

(٥) آل عمران: ٤٥.

الصفة نبينا محمّد صلى الله عليه وآله الذي كانت لديه هذه الوجاهة عند الناس أيضاً.

د ـ البر بوالدته والإحسان إليها والاحترام والوفاء والتقدير لها: ﴿وَبَرّاً بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّاراً شَقِيّاً﴾[١].

معالم الشخصية

ذكر القرآن الكريم إلى جانب الصفات السابقة بُعداً رابعاً في شخصية عيسى عليه السلام يرتبط بمعالم شخصيته الذاتية الرفيعة:

أ ـ كان عليه السلام إنساناً مباركاً من اللّه تعالى، ولا يستبعد العلاّمة الطباطبائي أنّ تسميته بالمسيح في البشارة الإلهية: ﴿إِنَّ اللهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ﴾[٢]، إنّما هو بمعنى المبارك؛ لأنّ الملك منهم إذا قام بأمر المُلك مسحته الكهنة بالدهن المقدس ليبارك له في ملكه، فكان يسمّى (مشيحا)، ومعرب هذه الكلمة (مسيح) فمعناه المبارك[٣]: ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللهِ آتَانِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيّاً * وَجَعَلَنِي مُبَارَكاً أَيْنَ مَا كُنتُ﴾[٤].

والمبارك ما يكون فيه الخير والنماء، والمسيح كان كذلك؛ إذ كان يصحبه الخير أينما كان.

ب ـ كان عليه السلام صالحاً شأنه شأن الأنبياء السابقين عليه: ﴿وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِنْ الصَّالِحِينَ﴾[٥].

---

(١) مريم: ٣٢.

(٢) آل عمران: ٤٥.

(٣) الميزان ٣: ١٩٤ والنقل كان بالمعنى.

(٤) مريم: ٣٠ ـ ٣١.

(٥) الأنعام: ٨٥.

وقد كان هذا إخباره عن نفسه منذ ولادته عندما تحدّث في المهد مع بني إسرائيل عن نفسه فقال: ﴿وَبَراً بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّاراً شَقِيّاً﴾[1].

ج ـ كان عليه السلام مطيعاً لله تعالى مسلّماً لأمره يعمل بالعدل والإحسان؛ إذ لم يجعله: ﴿جَبَّاراً شَقِيّاً﴾ والجبار هو: المتمرد العاتي المفسد في الأرض بالظلم والعدوان.

د ـ كان عليه السلام زكياً طاهراً نقياً في ولادته وفي نفسه وعمله، وورد وصفه بذلك في قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لأَهَبَ لَكِ غُلاماً زَكِياً﴾[2]، ولمزيد من الفائدة نذكر ما ورد على لسان أمير المؤمنين علي عليه السلام في وصف زهد المسيح عليه السلام وسلوكه العام: « وإن شئت قلت في عيسى ابن مريم عليه السلام، فلقد كان يتوسّد الحجر، ويلبس الخشن، ويأكل الجشب، وكان إدامه الجوع، وسراجه بالليل القمر، وظلاله في الشتاء مشارق الأرض ومغاربها، وفاكهته وريحانه ما تنبت الأرض للبهائم، ولم تكن له زوجة تفتنه، ولا ولد يحزنه، ولا مال يلفته، ولا طمع يذله، دابته رجلاه، وخادمه يداه ! »[3].

وقد ورد في وصفه عليه السلام، عن الرضا عليه السلام أنه قال: « كان عيسى عليه السلام يبكي ويضحك، وكان يحيى عليه السلام يبكي ولا يضحك، وكان الذي يفعل عيسى عليه السلام أفضل »[4].

---

(١) مريم: ٣٢.

(٢) مريم: ١٩.

(٣) نهج البلاغة ٢: الخطبة ١٦٠.

(٤) البحار ١٤: ٢٤٩ عن قصص الراوندي.

حياة عيسى عليه السلام

يمكن تقسيم قصّة عيسى ومراحل حياته من خلال ما عرضه القرآن الكريم منها في مواضع متعدّدة إلى مراحل، وهي:

١ ـ مرحلة الولادة والنبوة.

٢ ـ مرحلة الدعوة والرسالة.

٣ ـ مرحلة الانتشار والتنظيم.

٤ ـ مرحلة الوفاة والاختلاف.

المرحلة الاولى: الولادة والنبوة

أ: الاعداد للولادة

لقد كانت ولادة عيسى عليه السلام حالة استثنائية في تاريخ البشرية، لم يعرف لها مثيلاً إلاّ في خلق آدم عليه السلام، ومع ذلك فإنّ آدم خُلق من طين وتراب ابتداءً بكلمة اللّـه تعالى ومن دون أب وأم، وأمّا المسيح فقد خُلق بهذه الكلمة، لكن كان خلقه في رحم امرأة صالحة مصطفاة، هي: مريم ابنة عمران.

ولما كانت هذه الحالة استثنائية اقتضت الحكمة الإلهية أن يكون هناك إعداد نفسي وروحي واجتماعي في محيط هذه الولادة؛ من أجل قبولها ودفع الشبهات عنها؛ ومن هنا يقصّ علينا القرآن الكريم هذا الإعداد في خطوات وحلقات مترابطة بعضها مع بعض؛ لتكوّن هذا الوضع النفسي والروحي في داخل الدائرة الخاصة المحيطة بمريم عليها السلام، ولإيجاد الوضع الاجتماعي والحصانة المعنوية والمادية التي تحقّق هذا الهدف الإلهي:

الخطوة الأُولى: القرار الإلهي باصطفاء آل عمران واجتبائهم من بين بني إسرائيل: ليكونوا الشجرة الطيبة التي تؤتي هذه الثمرة الزكية: ﴿إِنَّ اللهَ اصْطَفَى

آدَمَ وَنُوحاً وَآلَ إبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ * ذُرِّيَّة بَعْضُهَا مِنْ بَعْض وَاللّهُ سَمِيعٌ عَلِيم﴾[1].

وتؤكّد بعض النصوص ما تشير إليه هذه الآية الكريمة: من أنّ عمران كان نبياً من أنبياء اللّه[2]، إذ أوحى اللّه سبحانه وتعالى إلى عمران أنّي واهب لك ذكراً مباركاً يبرئ الأكمه والأبرص، ويحيي الموتى بإذني، وجاعله رسولاً إلى بني إسرائيل، فحدّث امرأته (حنّة) بذلك، وهي: أم مريم، فلمّا حملت بها كان حملها عند نفسها غلاماً، فنذرت أن يكون مولودها محرراً إلى المسجد ومكان العبادة: إذ يختص بالمسجد ليعبد اللّه ويخدم فيه، فلمّا وضعت مولودها أنثى قالت: ربّ إنّي وضعتها أنثى وليس الذكر كالأنثى؛ لأنّ البنت لا تكون رسولاً، وإنّي سميتها (مريم) ـ قيل: إنّ معنى مريم: الخادمة ـ فكانت التسمية متناسبة مع النذر، وقد استعاذت باللّه فيها وفي ذريتها من الشيطان الرجيم، فلما وهب اللّه لمريم عيسى عليه السلام كان هو الذي بشّر اللّه به عمران ووعده إياه[3].

الخطوة الثانية: وضع مريم عليها السلام في المسجد؛ لتنبت نباتاً حسناً في جوّ العبادة والصلاة، والخدمة للعُبّاد والصالحين، وفي رعاية زكريا النبي عليه السلام ؛ إذ كان يتنافس على رعايتها العبّاد والصالحون من الكهنة، فساهموا عليها بأقلامهم[4]، فكانت من

---

(١) آل عمران: ٣٣ ـ ٣٤.

(٢) البحار ١٤: ٢٠٢ عن قصص الأنبياء للراوندي.

(٣) البحار ١٤: ١٩٩، عن تفسير علي بن إبراهيم، بتصرف.

(٤) ورد في بعض النصوص: أنّ من سوهم عليه مريم بنت عمران، وكانت السهام ستة. البحار ١٤: ١٩٨، عن الخصال ومن لا يحضره الفقيه مرسلاً، كما ورد في بعض النصوص: أنّ مريم ابنة أخت زوجة زكريا يكون زوج خالتها.

نصيب زكريا عليه السلام في هذه الرعاية.

الخطوة الثالثة: الكرامات التي كان يشاهدها زكريا عند مريم مضافاً إلى عبادتها وصلاحها؛ لأنّه كان يرى عندها رزقاً حسناً كلّما دخل عليها المحراب، فيسألها عن مصدره، فتخبره أنّه يأتيها من عند اللّه تعالى[1]، وهي كرامة إلهيّة غيبية لمريم عليها السلام أثارت في نفس زكريا عليه السلام مشاعر التقدير والتقديس لها، وفتحت في نفسه الأمل في شموله بهذه الكرامة، فيدعو ربه أن يتفضل عليه بكرامة أُخرى خارقة للعادة، ويهب له ذُرية طيبة؛ لأنّه شيخ كبير وامرأته عاقر لا تلد: ﴿إِذْ قَالَتْ امْرَأَةُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّراً فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ * فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَى وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالأُنْثَى وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنْ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ * فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتاً حَسَناً وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقاً قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ * هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾[2].

وقال تعالى: ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾[3].

الخطوة الرابعة: استجابة اللّه سبحانه وتعالى لدعاء زكريا، وقد كان يخاف

---

(١) البحار ١٤: ٢٠٣، ورد في النصوص: أنّ هذا الرزق الحسن كان هو فاكهة الشتاء في الصيف، وفاكهة الصيف في الشتاء، الأمر الذي كان يثير السؤال.

(٢) آل عمران: ٣٥ ـ ٣٨.

(٣) آل عمران: ٤٤.

الموالي من ورائه على وراثته؛ لأنهم ربّما لا يحسنون الصنع في إرثه وخلافته، فبشّره اللّه سبحانه وتعالى بمولود ذكر يكون سيداً وحصوراً قد أحصن فرجه ونفسه، ونبياً من الصالحين اسمه يحيى لم يجعل اللّه له من قبل سمياً. قال تعالى: ﴿كهيعص * ذِكْرُ رَحْمَةِ رَبِّكَ عبدة زَكَرِيَّا* إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيّاً * قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْباً وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيّاً * وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتْ امْرَأَتِي عَاقِراً فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيّاً * يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيّاً * يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيّاً * قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتْ امْرَأَتِي عَاقِراً وَقَدْ بَلَغْتُ مِنْ الْكِبَرِ عِتِيّاً * قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُنْ شَيْئاً * قَالَ رَبِّ اجْعَل لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلاَّ تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلاَثَ لَيَالٍ سَوِيّاً * فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنْ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيّاً﴾[١].

وقال تعالى: ﴿فَنَادَتْهُ الْمَلاَئِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقاً بِكَلِمَةٍ مِنْ اللهِ وَسَيِّداً وَحَصُوراً وَنَبِيّاً مِنْ الصَّالِحِينَ * قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلاَمٌ وَقَدْ بَلَغَنِي الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ * قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلاَّ تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلاَثَةَ أَيَّامٍ إِلاَّ رَمْزاً وَاذْكُرْ رَبَّكَ كَثِيراً وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالإِبْكَارِ﴾[٢].

---

(١) مريم: ١ ـ ١١.

(٢) آل عمران: ٣٩ ـ ٤١.

الخطوة الخامسة: أن آتى اللّه سبحانه وتعالى يحيى الحكم وهو النبوّة ـ على رأي بعض المفسرين، أو الحكمة وفصل النزاعات على رأي آخر ـ في صباه، وكان مثالاً وقدوة للصفات التي أراد اللّه سبحانه وتعالى أن يتصف بها عيسى؛ ليكون بوجوده الشريف حجّة ودليلاً على هذا النبي الجديد المصطفى[1]: ﴿يَا يَحْيَى خُذْ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيّاً * وَحَنَاناً مِنْ لَدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيّاً * وَبَرّاً بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ جَبَّاراً عَصِيّاً * وَسَلاَمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيّاً﴾[2].

الخطوة السادسة: الاصطفاء والاجتباء لمريم لهذه المهمّة الصعبة، وهي: حمل وولادة عيسى عليه السلام من غير أب؛ لأنها تحتاج إلى طهارة ونقاء وصبر وتحمل وارتقاء في درجات الكمالات الإلهية من خلال القنوت للّه تعالى والصلاة والدعاء: ﴿وَإِذْ قَالَتْ الْمَلاَئِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ * يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾[3].

وبهذا تصبح البتول مريم عليها السلام قد أُعدّت إعداداً إلهيّاً غيبياً وبشرياً لهذه الولادة الفريدة في تاريخ البشرية.

وقد تظافرت النصوص عن طريق أهل البيت عليهم السلام وطريق الجمهور

---

(١) بهذا يمكن تفسير هذا الاقتران في عرض شخصية يحيى وعيسى عليهما السلام في سورة مريم، ثمّ التشابه في الصفات بينهما في هذا العرض وذكر قصّة ولادته وصفاته قبل ذكر قصّة عيسى عليه السلام، خصوصاً أنّ القرآن الكريم هنا يقرن بين الولادتين دون تمهيد ودون ربط بينهما في الحديث غير السياق، ويختم كلاً من القصتين بالسلام عليهما.

(٢) مريم : ١٢ ـ ١٥.

(٣) آل عمران: ٤٢ ـ ٤٣.

وبأسناد صحيحة عندهم، عن رسول الله ﷺ: « إنّ أفضل نساء الجنّة أربع: خديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمّد، ومريم بنت عمران، وآسية بنت مزاحم امرأة فرعون »[١]. وفي رواية أُخرى تقديم اسم فاطمة على الجميع.

ب: الحمل. الولادة. النبوة

١ ـ الخلوة: لقد اختَتَلَت[٢] مريم وانتبذت ـ في وقت من الأوقات ـ من أهلها إلى مكان شرقي كانت قد اتخذت فيه حجاباً من دونهم يسترها عنهم، ولم يحدّد القرآن الكريم هذا المكان الشرقيّ، فقيل فيه: إنّه شرقيّ المعبد الذي كانت تتخذه للعبادة، حيث كانت قد اعتزلت فيه إلى مكان شرقيّ، واتخذت فيه حجاباً، حيث كان لا يدخل عليها فيه إلاّ زكريا ﷺ.

وقيل فيه: إنّها كانت تقيم في المعبد فإذا حاضت خرجت منه، وأقامت في بيت زكريا حتى إذا طهرت عادت إلى المسجد، فبينما هي في (مشرقة) لها في ناحية الدار وقد ضربت بينها وبين أهلها حجاباً تتستر به للغسل، إذ أرسل الله جبرئيل ﷺ[٣]، فدخل عليها، فتمثل لها في حواسها أنّه شاب سويّ الخَلق، فكان دخول هذا البشر السوي عليها في خلوتها مفاجأة لامرأة عذراء منقطعة إلى الله

---

(١) راجع البحار ١٤: ٢٠١ عن الخصال، وقصص القرآن لابن كثير ٢: ٣٧٧.

(٢) ختل: الختل: تخادع عن غفلة، ويقال لرجل إذا تسمّع لسرّ قوم: قد اختتل. لسان العرب، مادة ختل، والمقصود: أنها خرجت خفية وسراً.

(٣) يذكر العلاّمة الطباطبائي قرائن من الآيات القرآنية على أنّ المقصود من الروح هنا هو: جبرئيل، وإنّه ظهر في حواس مريم ﷺ في صورة البشر؛ إذ إنّ القرآن يعبّر عن جبرئيل بالروح المرسل من الله تعالى. راجع الميزان ١٤: ٣٥، ونسبة الحديث إلى الملائكة في سورة آل عمران من باب نسبة قول الواحد إلى الجماعة، وهو أسلوب شائع ومتبع في القرآن.

تعـالى هـزّتها مـن الأعمـاق، فقالت: ﴿إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيّاً﴾[1] حيث تستنجد بالله، وتحاول أن تثير في هذا الغريب مشاعر التقوى الذي تمنعه من ارتكاب المعصية والانسياق مع الشهوات.

فكـان جوابه: ﴿إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لأَهَبَ لَكِ غُلاَماً زَكِيّاً﴾[2] يبشرك الله بكـلمة مـنه اسمه المسيح عيسى ابن مريم، وسوف يكون وجيهاً في الدنيا والآخرة ومـن المقـربين، فتسـأله مـريم مستنكرة في صراحة المرأة التي تريد أن تدافع عن نفسـها وهي في حالة العجب والاستغراب من فكرة هذا الرسول الإلهي؛ ذلك لأنّ الغـلام في نظـرها لا يولد إلاّ من مس البشر المشروع، وهو الزواج، أو البغيّ غير المشـروع: ﴿قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلاَمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيّاً﴾[3] وهنا أوضح لها الرسول أنّ الولادة وإن كانت خارقة للعادة؛ لأنّها لم تكن بمس بشر ولا بغي، ولكنّها هي أمر هيّن على الله سبحانه وتعالى الذي خلق الناس من قبل أن يكونوا شيئاً، وهو قادر على أن يخلق ما يشاء، وإذا قضى أمراً فإنّما يقول لـه كن فيكون، كلّ ذلك من أجل أن يتحقّق هدف إلهي من هذه الولادة، وهي: أن يكون هذا المولود آية للناس ورحمة لهم من الله تعالى.

وسوف يعلّمه الله سبحانه وتعالى الحكمة والتوراة والإنجيل، ويبعثه رسولاً إلى بني إسرائيل، وإنّ هذا قرار إلهي لا مردّ له من الله تعالى، قال تعالى: ﴿وَاذْكُرْ فِـي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَاناً شَرْقِيّاً * فَاتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَاباً فَأَرْسَـلْنَا إِلَـيْهَا رُوحَـنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَراً سَوِيّاً * قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنكَ إِن

---

(١) مريم: ١٨.

(٢) مريم: ١٩.

(٣) مريم: ٢٠.

كُنتَ تَقِيّاً* قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لأَهَبَ لَكِ غُلاَماً زَكِيّاً * قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلاَمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُنْ بَغِيّاً * قَالَ كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْراً مَقْضِيّاً﴾[1].

وقال تعالى: ﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهاً فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ * وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً وَمِنَ الصَّالِحِينَ * قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكِ اللهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَى أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ * وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنْجِيلَ﴾[2].

٢ ـ النفخ: وهنا نفخ اللّه سبحانه وتعالى بواسطة الرسول في مريم، كما نفخ من روحه في آدم، فكان الحمل بعيسى ﷺ، قال تعالى: ﴿وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ﴾[3].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾[4].

ولا يحدّثنا القرآن الكريم عن كيفية الحمل ولا مدته، ولكن تذكر بعض النصوص أنّ الحمل كان لستة أشهر[5]، وبعضها الآخر يقول لتسع ساعات[1] ولكن

---

(١) مريم: ١٦ ـ ٢١.

(٢) آل عمران: ٤٥ ـ ٤٨.

(٣) التحريم: ١٢.

(٤) آل عمران: ٥٩.

(٥) البحار ١٤: ٢٠٧ عن الكافي والعلل. والحديثان ضعيفان سنداً.

يذكـر القـرآن الكريم أنّ مريم عليها السلام بعد الحمل اعتزلت قومها إلى مكان قصي بعيد عـنهم، ولا يذكـر القـرآن الكـريم هـذا المكان بالتحديد، وإنّما ورد في النصوص المعتـبرة عـن أهـل البيـت عليهم السلام [٢] إنّ مكـان الولادة كان في بيت لحم، وهو محل ولادتهـا المعروف عند النصارى الآن [٣]، فإذا كان مكان ولادتها هو مكان اعتزالها فذلك يعني: أنّ مريم عليها السلام كانت قد رجعت إلى بيت لحم بعد الحمل؛ لأنّها تتعبد في بيـت المقـدس مـا هـو المعروف، ثمّ اعتزلت الناس في بلدها بسبب قلقها من هذا الحمـل الغريـب، وخوفها من الإفك والبهتان من الناس بشأنه: ﴿فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَاناً قَصِيّاً﴾[٤].

ويمكـن للخـيال أن يتصـور حـال مريم في هذا المكان المعزول عن الناس البعـيد عـنهم المنبوذ منهم، والمدة التي قضتها في هذا الحال من القلق والاضطراب والانتظار والخوف.

٣ ـ المخـاض: ثمّ يفاجئها المخاض، فيلجئها إلى جذع نخلة؛ لتستند إليها في مخاضها؛ إذ اعتادت النساء في حالات الوضع والمخاض أن تستند إلى أذرع نساء الأهـل والقـابلات المولـدات، وأن يجدن الرعاية والعطف والسلوة في خضم آلام المخـاض العنـيفة، أمّـا هـذه العذراء البتول التي لم يمسسها بشر، ولم تعرف الحمل

---

(١) ذكر ذلك القمي في تفسيره دون إسناد. البحار ١٤: ٢٠٨ وقد حاول بعضهم أن يستفيد هذا المعنى من الآيات الكريمة في سورة مريم؛ إذ استخدم القرآن في العطف حرف (الفاء) وهو يدل على الفوريّة.

(٢) البحار ١٤: ٢٠٨ عن تفسير القمي.

(٣) ورد في عدة نصوص أخرى عن أهل البيت عليهم السلام: أنّ ولادتها كانت في العراق على نهر الفرات في الكوفة. وفي بعضها الآخر في كربلاء أو براثا. راجع البحار ١٤: ٢١١ ـ ٢١٢ و ٢١٦ ـ ٢١٧.

(٤) مريم: ٢٢.

والـولادة مـن قـبل لا في نفسها ولا في أهلها، فليس لها من سند ولا معتمد تلجأ إليه إلاّ هذه النخلة التي وردت بعض النصوص في أنّها كانت نخلة يابسة، وهو ممّا توحي به الآية الكريمة عندما تتحدّث عن المكان القصي المنبوذ[1].

عـندئذ يـبلغ الألم النفسـي فيها مبلغه والمحنة غايتها، وتشعر بالانقطاع عن هـذه الدنـيا وكل ما فيها من حياة؛ لأنّ الكرامة والسمعة الحسنة هي أعزّ ما لدى الإنســان الصــالح في هــذه الحياة، فتعبّر عن ألمها ومحنتها ومشاعرها بأن تتمنى أن تكـون في هـذه الدنـيا خرقة بالية متروكة لا يهتم بها أحد من الناس، أو يلتفت إليها: ﴿فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنتُ نَسْياً مَّنسِيّاً﴾[2]، وفي قمّة المحنة وشدّة الألم يأتيها اليسر بعد العسر، والفرج بعد الكرب، والـرخاء بعـد الشـدّة، وهـذا هو القانون الإلهي، والسنة الربانية: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً * إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً﴾[3]. فتحقق الولادة الميسورة لآلامها، وانفراج النفس لكربتها، والطمأنينة والسكينة لنفسها حيث تضع مولودها الموعود.

٤ ـ الـنداء: ويأتـيها الـنداء المطمـئن مـن تحـتها، وهـل كـان الـنداء من عيسـى عليه السلام مولودهـا الموعـود الجديـد؟ أو من الروح الذي أرسله اللّه إليها من تحـت الأكمـة؟ حيث يتحدّث إليها حديث العارف بحالها، ويقدّم لها العلاج والحل لكلّ آلامها ومشاكلها:

---

(١) مضافاً إلى ما يذكره العلاّمة الطباطبائي: من أنّ نسبة الهز إلى الجذع والمساقطة إلى النخلة لا تخلو من إشعار بأن النخلة كانت يابسة، وإنّما اخضرّت وأورقت وأثمرت رطباً جنيّاً لساعتها. الميزان ١٤: ٤٢.

(٢) مريم: ٢٣.

(٣) الشرح : ٥ ـ ٦.

أ ـ فيطلب منها أن تتخلى عن الحزن والكرب؛ لأنّ اللّه سبحانه وتعالى قد جعل تحتها ولداً رفيعاً في الشرف (سرياً)[١] ووجيهاً في الدنيا والآخرة ومن المقربين، وهذه كرامة من اللّه سبحانه وتعالى لها ما بعدها كرامة.

ب ـ كما طلب منها أن تهزّ جذع النخلة إليها؛ ليتساقط عليها الرطب الجني، فيسدّ جوعها وحاجتها إلى الغذاء الجيد الذي يدرّ عليها ـ أيضاً ـ اللبن والغذاء لولدها.

ج ـ ثمّ يطلب منها أن تداري نفسها بالأكل والشراب، وتطمئن إلى حالها، وتستقر من القلق والاضطراب وتقر عينها، فتسرّ لهذه الولادة الكريمة.

د ـ ثم يذكر لها ما تعالج به المشكلة الرئيسية، وهو: خوفها من حديث الناس وإفكهم وبهتانهم ـ إذ يكون التفسير البَدْوي لظاهرة هذه الولادة في نظر هؤلاء العامة هو: إتهامها بالزنا والإثم ـ وذلك بأن تمتنع عن الحديث مع الناس، وتقول لهم بالإشارة: إنّها قد نذرت للرحمن صوماً عن الحديث والكلام[٢] بأن تنوي لساعتها وتنذره للّه على نفسها: ﴿فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلاّ تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيّاً * وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَباً جَنِيّاً * فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْناً فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَداً فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمنِ صَوْماً

---

(١) ورد في تفسير (السري): أنه الشريف الرفيع، فهو صفة للمولود الذي أصبح شريفاً من خلال الوضع والولادة، كما ورد في تفسير (السري) ـ أيضاً ـ أنه النهر الجاري، فيكون إشارة إلى ما منحها اللّه سبحانه وتعالى ورزقها من شراب وغذاء تسدّ به حاجاتها الفعلية المادية. وهو يناسب ما ورد في الآية ٢٦ من السورة.

(٢) هذا الصوم يعرف بصوم زكريا حيث يشير القرآن الكريم في سورة مريم في سياق قصّة مريم وعيسى عليهما السلام إلى هذا الصوم، الذي جُعل آية لزكريا عليه السلام: ﴿قَالَ آيَتُكَ أَنْ لا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلاثَ لَيَالٍ سَوِيّاً﴾، حيث أصبح هذا الصوم عبادة معروفة بينهم.

فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيّاً﴾[١].

٥ ـ المواجهة: بعد هذا النداء والحديث المطمئِن للنفس، المطيّب للخاطر، المقرون بالعناية والكرامات الإلهية الواضحة، جاءت مريم بولدها الذي كان الله سبحانه وتعالى قد سمّاه بالمسيح عيسى، تحمله إلى قومها، فكان التعجب والاستغراب والاستنكار من قومها: امرأة لها سابقة الزهد والعبادة والالتزام بالمسجد، والاحتجاب عن الناس، والرعاية الصالحة من زكريا، وابنة البيت المصطفى من الله آل عمران لم يكن أبوها امرأ سوء، ولا كانت أُمّها بغياً، إذا بها تأتي بمولود لها تحمله على يدها دون زواج أو سابقة سوء في تاريخها، ولا بغي وإثم في سلوكها!! فهذا شيء فري عظيم الابتداع، ومنكر قبيح لا ينسجم وحالها، ويخالف للواقع الذي كانت تعيشه هذه المرأة: ﴿فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ﴾ أنى لَكِ هذا ؟ ! ﴿لَقَدْ جِئْتِ شَيْئاً فَرِيّاً * يَا أُخْتَ هَارُونَ[٢] مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيّاً﴾[٣].

---

(١) مريم: ٢٤ ـ ٢٦.

(٢) ورد في تفسير تسمية قومها لها بـ (أخت هارون) احتمالات أربعة:

أحداها: أنّ هارون هذا كان رجلاً صالحاً في بني إسرائيل يُنسب إليه كلّ من عرف بالصلاح، وقيل: إنّه لمّا مات شيع جنازته أربعون ألفاً كلّهم يُسمّى هارون، فقولهم: يا أخت هارون معناه: يا شبيهة هارون في الصلاح ما كان هذا معروفا منك.

ثانيها: أنّ هارون أخو موسى عليه السلام، فنسبت إليه؛ لأنّها من ولده كما يقال: يا أخا تميم.

ثالثها: أنّ هارون كان أخاها لأبيها ليس من أمها، وكان معروفاً بحسن الطريقة.

رابعها: أنّه كان رجلاً فاسقاً مشهوراً بالعهر والفساد، فنسبت إليه، وقيل لها: يا شبيهته في قبح فعله. مجمع البيان ٦: ٤١٩.

(٣) مريم: ٢٧ ـ ٢٨.

قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحاً وَآلَ إبراهيم وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى العَالَمِين﴾[1].

لقد كانت حجّة قومها في ظاهر الحال قوية لا سبيل لمريم في الدفاع عن نفسها، فكيف يمكن توضيح هذه الحقيقة الغيبية بالبيانات الإنسانية العادية؟! لذا كان السكوت هو الموقف الطبيعي لمريم عليها السلام، ولابدّ لتوضيح هذه الحقيقة من معجزة إلهية وحجّة غيبية.

٦ ـ النبوّة: وقد كان الملك والروح قد أخبرها عند بشارتها بالمسيح عيسى عليه السلام: أنه: ﴿يُكَلِّمُ النَّاسَ فِي المَهْدِ وَكَهْلاً وَمِنَ الصَّالِحِين﴾[2]، ومن هنا أشارت مريم عليها السلام إلى وليدها وهي ملتزمة بنذرها، فكان ذلك سبباً آخر للإثارة والاستغراب والاستنكار: ﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيّاً﴾[3]؟!

وعندما بلغ الاستنكار مداه، وظواهر الاستغراب أقصاها كانت المفاجأة، وكانت الآية، وكانت المعجزة الإلهية التي يجسدها القرآن الكريم: ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيّاً * وَجَعَلَنِي مُبَارَكاً أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلاَةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيّاً * وَبَرّاً بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّاراً شَقِيّاً * وَالسَّلامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيّاً﴾[4].

كلام كلّه غيب وأخبار عن الكمالات الإلهية التي أودعها اللّه سبحانه

---

(١) آل عمران: ٣٣.

(٢) آل عمران: ٤٦.

(٣) مريم: ٢٩.

(٤) مريم: ٣٠ ـ ٣٣.

وتعـالى في عيســى عليه السلام، تـتحدث عـن صفات وأعمال ومقامات لا يمكن لهؤلاء الناس أن يدركوها بحواسهم، أو يعرفوا حقيقتها في وقت سماعها، ولكنّه في الوقت نفســه كـلام مقـرون بـأبلغ حجّـة على صحته، وأوضح آية ودليل وبرهان على واقعيته هو: أنّ الذي ينطق بهذا الكلام هو هذا الصبي الصغير حديث الولادة الذي لا زال يلازم المهد.

إذن، فوجـوده ـ بغير أب ـ من أم طاهرة زكية مصطفاة، وفي بيت طاهر، هـو أمـر غـيبي وبـتدخل إلهي مباشر، وهذا ما فهمه القوم، فعرفوا طهارة الولادة وحقيقـتها ونـبوّة المولـود الجديد، فانقطعت الحجة الظاهرة لهؤلاء القوم، ولم يكن أمامهم إلاّ الخضوع لقبول هذه الحقيقة[1].

خصائص المرحلة الأولى

امتازت هذه المرحلة من حياة عيسى عليه السلام بعدة ميّزات:

الأولى: تصوير قضية الاصطفاء لعيسى عليه السلام في أصولها وجذورها الإنسانية المعنوية من خلال ربط هذا الاصطفاء بسلسلة الاصطفاء الإلهي للإنسان: في آدم، والاصـطفاء الإلهـي للأنبياء من بني الإنسان في نوح، والاصطفاء للآل، والبيوتات

---

(١) في الحديث ورد أنّ السّلام في هذه المواطن لأنّها أشد المواطن على الإنسـان، عن ياسر الخادم قال: سمعت الرضا عليه السلام يقول: « إنّ أوحش ما يكون هذا الخلق في ثلاثة مواطن: يوم يولد فيخرج من بطن أمّه فيرى الدنيا، ويوم يموت فيعاين الآخرة وأهلها، ويوم يبعث فيرى أحكاماً لم يرها في دار الدنيا، وقد سلّم الله على يحيى عليه السلام في هذه الثلاثة المواطن، وآمن روعته فقال: ﴿وسلام عليه يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حيًا﴾ وقد سلّم عيسى ابن مريم على نفسه في هذه الثلاثة المواطن فقال: ﴿ والسلام عليّ يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حيًا﴾ ». البحار ١٤: ٢٤٦، حديث ٢٦.

من الناس في آل إبراهيم، ومن ثمّ آل عمران.

فالاصطفاء قانون إلهي يسير وفق نظام غيبي في هذا الكون، وقد يكون للنوع وقد يكون للفرد، وقد يكون للآل والبيت، وقد تكون للإرادة الإنسانية ـ أيضاً ـ دور في تهيئة وإعداد مقدماته، ولكنّه يبقى الاصطفاء قراراً وتوفيقاً إلهيّاً.

وكذلك من خلال بيان الاصطفاء في مسيرته الأرضية من خلال رؤيا عمران ونذر امرأته للّه سبحانه وتعالى في إخلاصها، ورعاية زكريا عليه السلام في حبه وصفائه وعبادة وطهارة مريم، وخلوصها لباريها، واحتجابها عن الأهل والخلق. وانصرافها عن الدنيا، وصبرها وتحملها لهذه الآلام، والامتحان العسير.

الثانية: إنّ القرآن يفصّل أحداث هذه المرحلة، مع أنه لم يفصّل أحداث أي مرحلة أخرى من مراحل حياة عيسى عليه السلام ؛ لأنّ الهدف الرئيسي من قصّة عيسى عليه السلام ـ كما سوف نعرف ـ يرتبط بهذا التفصيل، وهذا الهدف هو: معالجة الفكرة العقائدية المركزية في انحراف النصارى؛ ولذلك نجد القرآن الكريم يختم كلاًّ من المقطعين الرئيسيين اللذين يتحدثان عن هذه المرحلة، وهما: مقطع سورة آل عمران وسورة مريم بتأكيد هذه الحقيقة، قال تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ * الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلاَ تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾[1].

وقال تعالى: ﴿ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ * مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَى أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾[2].

---

(١) آل عمران: ٥٩ ـ ٦٠.

(٢) مريم: ٣٤ ـ ٣٥.

الثالثة: إنّ الإسرائيليين لم يتناولوا مريم عليها السلام بالاتهام بعد أن تكلّم عيسى في المهد، حيث لا ينسب القرآن الكريم لهم في الحديث عن قصّة عيسى الاصرار على ذلك، بل يكتفي بالإشارة إلى البهتان عليها، وتسرعهم بذلك قبل حديث عيسى عليه السلام: ﴿وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَاناً عَظِيماً﴾[1]، ويؤكد ذلك ما تحدّث عنه القرآن الكريم، ويشير إليه الواقع التأريخي الذي تحدّث عنه القرآن في وصف عيسى عليه السلام: من أنه كان وجيهاً في الدنيا، الأمر الذى يؤكد فكرة عصمة الأنبياء فى جميع خصائصهم ومواصفاتهم، ومنها أن يكونوا على طهارة المولد في الواقع والظاهر؛ ليتمكنوا من أداء رسالتهم ومسؤوليتهم بشكل طبيعي.

والأناجيل لا تشير من قريب ولا بعيد إلى هذه التهمة أو المواجهة مع بني إسرائيل، وإنّما تكتفي بذكر قصّة يوسف النجار (عشيرها)، الأمر الذي يعطي تفسيراً للسكوت عنها وعدم تهمتها، وبهذا نعرف كذب الرواية الإنجيلية عن قصّة يوسف النجار[2].

الرابعة: وجود الارتباط بين قصّة زكريا ويحيى عليهما السلام، بل ومريم عليها السلام، وقصّة عيسى عليه السلام في هذه المرحلة بالذات، ولذا جاءت قصتهما في القرآن الكريم مقرونة بهذه المرحلة، وإن كان ذكرهما أوسع من ذلك، الأمر الذي يعني: أنّ الهدف من

---

(١) النساء: ١٥٦.

(٢) قارن بين ما ذكرنا وما ورد في قصص الأنبياء للنجار: ٥١٣ ـ ٥١٧، فإنّه حاول أن يكتفي بادعاء سكوت القرآن عن هذه القصّة، مع أنّ حديث القرآن واضح في تكذيب هذه القصّة، أولاً: بما ذكره من أنّ مريم كانت محررة للمسجد بنذرها أمها، وإنّها كانت تتعبد فيه، وثانياً: الاتهام الذي واجهها به قومها، وكذلك شعورها بالحرج والخوف من التهمة، مع أنّ قصّة يوسف لو صحت لكانت كافية في أن تدفع عنها التهمة.

قصّتهما هو: التمهيد لهذه المرحلة وتوضيح الهدف منها.

الخامسة: الظاهر من القرآن الكريم: أنّ هذه المرحلة كانت تتصف ـ أيضاً ـ وتتميّز بالنبوة والكتاب، وهو ممّا يتميّز به عيسى عليه السلام من بقية الأنبياء، فإنّه عليه السلام كما امتاز من بقية البشر بهذه الولادة الفريدة كذلك امتاز من بقية الأنبياء: بأن كانت نبوته وإتيانه الكتاب عند ولادته؛ لأنّ ظاهر قوله تعالى على لسان عيسى وهو يتكلم في المهد: ﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيّاً﴾ أنّ هذه الصفات كانت ثابتة له في الحال لا في الاستقبال، ومن الواضح: أنّ ثبوت النبوة لهذا المولود ليس عزيزاً على اللّه سبحانه وتعالى وعلى قدرته، كما أنّ المصلحة والهدف من ذلك واضح من القرآن الكريم؛ إذ جعله مثلاً لبني إسرائيل كما جعله وأمه آية لهم[1].

---

(١) عن يزيد الكناسي قال: «سألت أبا جعفر عليه السلام أكان عيسى بن مريم عليه السلام حين تكلم في المهد حجّة اللّه على أهل زمانه؟ فقال: كان ـ يومئذ ـ نبياً حجّة اللّه غير مرسل، أما تسمع لقوله حين قال: ﴿ إني عبداللّه آتاني الكتاب وجعلني نبيّا وجعلني مباركاً أينما كنت وأوصاني بالصلاة والزكاة ما دمت حيّا﴾ »؟! قلت: فكان ـ يومئذ ـ حجّة للّه على زكريّا في تلك الحال وهو في المهد؟ فقال: كان عيسى في تلك الحال آية للنّاس ورحمة من اللّه لمريم حين تكلّم فعبّر عنها، وكان نبياً حجّة على من سمع كلامه في تلك الحال، ثمّ صمت فلم يتكلّم حتّى مضت له سنتان، وكان زكريّا الحجّة للّه عزّ وجلّ على الناس بعد صمت عيسى بسنتين، ثمّ مات زكريّا، فورثه ابنه يحيى الكتاب والحكمة وهو صبيّ صغيرٌ، أما تسمع لقوله عزّ وجلّ: ﴿ يا يحيى خذ الكتاب بقوّة وآتيناه الحكم صبيّاً﴾ ؟! فلمّا بلغ عيسى عليه السلام سبع سنين تكلّم بالنبوة والرسالة حين أوحى اللّه سبحانه وتعالى إليه، فكان عيسى الحجّة على يحيى وعلى الناس أجمعين، وليس تبقى الأرض يا أبا خالد يوماً واحداً بغير حجّة للّه على الناس منذ يوم خلق اللّه آدم عليه السلام وأسكنه الأرض. فقلت: جعلت فداك أكان عليّ عليه السلام حجّة من اللّه ورسوله على هذه الأمّة في حياة رسول اللّه صلى الله عليه وآله ؟ فقال: نعم، يوم أقامه للناس ونصّبه علماً، ودعاهم إلى ولايته، وأمرهم بطاعته. قلت: وكانت طاعة عليّ عليه السلام واجبة على الناس في حياة رسول اللّه صلى الله عليه وآله وبعد وفاته؟ فقال: نعم، ولكنّه صمت فلم يتكلّم مع ←

المرحلة الثانية: الدعوة والرسالة

١ ـ لم يحدِّد القرآن الكريم الوقت الذي بدأ عيسى عليه السلام بإبلاغ دعوته ورسالته إلى بني إسرائيل، وإن كان عليه السلام قد أخبرهم بهذه (الحقيقة) عندما كان في المهد، ولكن بعض النصوص عن أهل البيت عليهم السلام التي سبقت الإشارة إليها ذكرت بأنّ ذلك كان بعد سبع سنين من ولادته أو ثلاث سنين منها[١].

وقد علّمه الله سبحانه وتعالى في هذه النبوة والرسالة: الكتاب، والحكمة، والتوراة، والإنجيل؛ إذ تُشعر بعض الآيات الكريمة بوجود التسلسل بين هذه الأمور في التعليم، وذُكر هذا التسلسل في آيتين مختلفتي السياق: إحداهما تتحدّث عن المستقبل، والأخرى تتحدّث عن الماضي، قال تعالى: ﴿وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾[٢].

← رسول الله صلى الله عليه وآله وكانت الطاعة لرسول الله صلى الله عليه وآله على أمته وعلى علي عليه السلام في حياة رسول الله، وكانت الطاعة من الله ومن رسوله على الناس كلّهم لعلي عليه السلام بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله، وكان عليٌ عليه السلام حكيماً عالماً ».

عن صفوان بن يحيى قال: «قلت للرّضا عليه السلام: قد كنّا نسألك قبل أن يهب الله لك أبا جعفر عليه السلام فكنت تقول: يهب الله لي غلاماً، فقد وهب الله لك فقرّ عيوننا، فلا أرانا الله يومك، فإن كان كونٌ فإلى من؟ فأشار بيده إلى أبي جعفر عليه السلام وهو قائمٌ بين يديه، فقلت جعلت فداك هذا ابن ثلاث سنين؟! قال: وما يضره من ذلك شيء، قد قام عيسى عليه السلام بالحجّة وهو ابن ثلاث سنين ». أصول الكافي ١: ٣٨٢ ـ ٣٨٣، والرواية الثانية معتبرة، وتفسّرها الرواية الأولى عن البحار ١٤: ٢٥٥ ـ ٢٥٦.

(١) راجع هامش الخصيصة الخامسة من المرحلة الأولى، كما يؤكد ذلك ـ أيضاً ـ خبر الخيراني عن أبيه الذي رواه الكليني في الكافي ١: ٣٨٤، البحار ١٤: ٢٥٦.

(٢) آل عمران: ٤٨.

وقال تعالى: ﴿وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الكِتَابَ وَالحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنْجِيلَ﴾[1].

٢ ـ ويبدو من القرآن الكريم أنّ المضمون الرسالي الذي طرحه عيسى عليه السلام في رسالته ودعوته لبني إسرائيل كان بهذا التسلسل:

أ ـ الآيات والمعجزات التي كانت تثبت نبوته ورسالته وارتباطه الوثيق باللّه تعالى، مثل: خلق الطير بإذن اللّه تعالى بعد أن يتخذ منه مثالاً من الطين، فينفخ فيه فيكون طيراً بإذن اللّه، وكذلك إبراء الأكمه والأبرص بإذن اللّه، وإحياء الموتى وإخراجهم من قبورهم بإذن اللّه، وإخبار الناس بما كانوا يأكلون ويدّخرون في بيوتهم، إلى غير ذلك من الآيات والمعجزات التي يذكر بعض تفاصيلها ما ورد في الإنجيل أو النصوص الدينية الأخرى.

ب ـ التصديق لما جاء قبله في التوراة من شريعة وأحكام ومفاهيم وعقائد، وهذا يفسر لنا عدم تفصيل القرآن لشريعة عيسى عليه السلام، وإنّما اكتفى بالإشارة إلى التوصية بالصلاة، والزكاة، وبرّ الوالدين، والجهاد في سبيل اللّه، وتقوى اللّه.

ج ـ التخفيف من الإصر والأغلال والالتزامات والمحرمات التي كانت مفروضة عليهم، إمّا من قبل الشريعة السابقة، أو من قبل الأحبار الذين كانوا يفرضون الضرائب، ويلزمون الناس بالنذور لجمع الأموال، كما تشير إليه الآيات الكريمة، وتنصّ عليه الروايات... أو غير ذلك من الفروض.

د ـ بيان الحق والحكم به فيما كانوا يختلفون فيه من الدين والشريعة؛ إذ كانوا قد تفرقوا أحزاباً وشيعاً.

هـ ـ الدعوة إلى الإخلاص في العبودية للّه تعالى وعبادته، وتنزيهها من الشرك أو عبادة الدنيا وشهواتها وزينتها، أو عبادة الأحبار والرهبان من دون اللّه، والاستماع لهم

---

(١) المائدة: ١١٠.

والأخذ عنهم دون الله تعالى، قال تعالى: ﴿وَرَسُولاً إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْراً بِإِذْنِ اللهِ وَأُبْرِئُ الأَكْمَهَ وَالأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللهِ وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ * وَمُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُونِ * إِنَّ اللهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾[1].

وقال تعالى: ﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْراً بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ الأَكْمَهَ وَالأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَى بِإِذْنِي﴾[2].

وقال تعالى: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلاَّ مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ اعْبُدُوا اللهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾[3].

وقال تعالى: ﴿وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلاَّ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَةُ * وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلاَةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ﴾[4].

وقال تعالى: ﴿قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ وَلأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُونِ * إِنَّ اللهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾[5].

---

(١) آل عمران: ٤٩ ـ ٥١.

(٢) المائدة: ١١٠.

(٣) المائدة: ١١٧.

(٤) البيّنة: ٤ ـ ٥.

(٥) الزخرف: ٦٣ ـ ٦٤.

و ـ البشارة برسول يأتي من بعده اسمه (أحمد) وهو الرسول النبي الأميّ الذي يأمرهم بالمعروف، وينهاهم عن المنكر ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم.

وقد ورد في القرآن الكريم أنّ هذه البشارة باقية في التوراة والإنجيل المتداول بين اليهود والنصارى، كما في قوله تعالى: ﴿وَمُبَشِّراً بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحمد...﴾[1].

وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلاَلَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[2].

وقد اختص رسول اللّه محمّد صلى الله عليه وآله بالجمع بين هذه الصفات الثلاث والأوائل، وورد ذكرها بهذه الخصوصيات في التوراة والإنجيل، كما أنّ بقيّة الصفات في دعوته ورسالته وإن كانت موجودة في الجملة وفي بعض مراتبها في الشرائع الأخرى، ولكنّها موجودة بأعلى مراتبها وبأوسع تفاصيلها في الرسالة الخاتمة الإسلامية[3].

---

(١) الصف: ٦.

(٢) الأعراف: ١٥٧.

(٣) لقد وردت البشارة برسول اللّه صلى الله عليه وآله في (العهد القديم) في عدّة مواضع، منها ما جاء في الباب الثامن عشر من سفر التثنية: « فقال الرب لي نعم جميع ما قالوا، وسوف أقيم لهم (نبياً) (مثلك) من بين إخوتهم، وأجعل كلامي في فمه ويكلمهم بكلّ شيء أمره به »، وهذه الصفات لا تنطبق على المسيح كما حاول المسيحيون أن يفسّروها، وإنّما تنطبق على النبي محمد صلى الله عليه وآله.

كما جاءت البشارة به في الإنجيل في عدّة مواضع خصوصاً إنجيل يوحنا، حيث عبّر عنه عدّة ـ

٣ ـ ومن أحداث هذه المرحلة ما قيل من هجرة عيسى عليه السلام على ما يذكره بعض المفسرين في تفسير قولـه تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾[١].

حيث إنّ عيسى عليه السلام كان يرى العجائب في صباه إلهاماً من اللّه، فنشأ ذلك في اليهود وترعرع عيسى عليه السلام، فهمّت به بنو إسرائيل، فخافت أمّه عليه، فأوحى اللّه إلى أمّه أن تنطلق به إلى أرض مصر[٢].

وقيل في (الربوة): إنّها المكان التي ولد فيها المسيح عليه السلام، وقيل فيها: إنّها دمشق. وقيل: بيت المقدس، وقيل: الرملة[٣].

وروى الصدوق في معاني الأخبار أن (الربوة) هي: الكوفة، و(القرار) هو: المسجد فيها، و(المعين) هو: الفرات، ولكن هذه النصوص والأقوال لا يمكن الاعتماد عليها، ولذا فلا دليل على وجود هذه الهجرة.

٤ ـ ومن أحداث هذه المرحلة نزول الإنجيل على عيسى عليه السلام.

← مرات بـ(بارقليط) ومعناه: (الذي له الحمد الكثير) وهو مطابق لـ(أحمد)، راجع قصص الأنبياء للنجار: ٥٣٣.

كما ورد تأكيد وتفصيل ذلك في روايات أهل البيت، ولا سيّما احتجاج الإمام الرضا عليه السلام الذي رواه الصدوق في عيون أخبار الرضا. والطبرسي في كتاب الاحتجاج ٢: ٢٠٢، وقد تناول علماء الإسلام هذا الموضوع بالبحث كالعلاّمة البلاغي (الهدى إلى دين المصطفى)، والشيخ رحمة اللّه أفندي الهندي (إظهار الحق)، ويحسن مراجعة بشائر الأسفار بمحمّد وآله الأطهار الذي يذكر البشائر بالنبي والأئمة المعصومين.

(١) المؤمنون: ٥٠.

(٢) قصص الأنبياء لابن كثير٢: ٤١٥ عن ابن عباس.

(٣) التبيان ٧: ٣٧٣.

وقـد تحـدّث القرآن الكريم في عدّة مواضع عن نزول هذا الكتاب المقدس، سـواء في قصّـة عيسـى عليه السلام أو في مواضـع أخـرى حتى بلغت موارد ذكره اثنتي عشـرة مـرة، وقد جاء ذكره في أكثرها مقروناً بالتوراة، وفي بعضها مقروناً بالقرآن أيضـاً، كقولــه تعـالى: ﴿نَـزَّلَ عَلَـيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنْزَلَ التَّوْرَاةَ وَالإِنْجِيلَ * مِنْ قَبْلُ هُدىً لِلنَّاسِ وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ﴾[1].

وقولــه تعالى: ﴿وَآتَيْنَاهُ الإِنْجِيلَ فِيهِ هُدىً وَنُورٌ وَمُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنْ التَّوْرَاةِ وَهُدىً وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ﴾[2].

ويظهـر مـن القرآن الكريم: أنّ الإنجيل كانت فيه: شريعة ومنهاج وأحكام لـو طبقت لتحقق العدل والخير والبركة، وشأنه في ذلك شأن نفسها، ولكنّهم حرفوه في العمـل، فلم يطبّقوه، كما حرّفوه عن مواضعه في القول: ﴿وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الإِنْجِيلِ بِمَا أَنْـزَلَ اللهُ فِـيهِ وَمَـنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنزَلَ اللهُ فَأُولَئِكَ هُمْ الْفَاسِقُونَ * وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِـتَابَ بِـالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنْ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِناً عَلَيْهِ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنـزَلَ اللهُ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنْ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً وَلَـوْ شَـاءَ اللهُ لَجَعَلَكُـمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾[3].

وفي موضـع آخر يتحدث القرآن عن انحراف اليهود والنصارى، ويقول في سياق ذلـك: ﴿وَلَـوْ أَنَّهُـمْ أَقَـامُوا التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لأَكَلُوا مِنْ

---

(١) آل عمران: ٣ ـ ٤.

(٢) المائدة: ٤٦.

(٣) المائدة: ٤٧ ـ ٤٨.

فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾[١].

وقال تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالإِنْجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيراً مِنْهُمْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَاناً وَكُفْراً فَلاَ تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾[٢].

ويبدو أنّ الإنجيل أُنزل على المسيح ﷺ جملة كما أُنزلت التوراة، ولكن القرآن الكريم لا يصرح بذلك، وإنّما تذكره بعض الروايات المروية عن أهل البيت ﷺ[٣] وتذكر أنّ وقت نزوله كان في شهر رمضان في ثلاث عشرة ليلة خلت منه أو اثنتي عشرة ليلة[٤].

وقد وردت في النصوص المروية عن أهل البيت ﷺ تفاصيل عن المواعظ التي تحدّث بها عيسى ﷺ، أو تضمنها الإنجيل، كما ورد في أحاديثهم الإشارة إلى بعض تفاصيل شريعة عيسى ﷺ، ومنها: السياحة في البلاد، وحرمة معاونة الظالمين، والقتال في سبيل الله[٥].

---

(١) المائدة: ٦٦.

(٢) المائدة: ٦٨.

(٣) البحار ١٤: ٢٨٤، عن الصدوق في علل الشرائع، عن يزيد بن سلام أنّه: «سأل رسول الله ﷺ لِمَ سُمّي الفرقان فرقاناً؟ قال: لأنّه متفرق الآيات، والسور أنزلت في غير الألواح وغير الصحف، والتوراة والإنجيل والزبور أُنزلت كلها جملة في الألواح والورق».

(٤) الكافي ٢: ٦٢٩.

(٥) فقد نقل في البحار ١٤: ٢٨٨ ـ ٢٩٩ عن الكافي وأمالي الصدوق مواعظ عديدة بإسنادها عن الصادق ﷺ تتحدّث عن مواعظ وعظ الله بها عيسى ﷺ. كما نقل ـ أيضاً ـ عن تحف العقول مواعظ المسيح في الإنجيل وغيره: ٣٠٤ ـ ٣١٧. وروايات أُخرى تجدها في الباب الذي كان قد عقده لهذا الموضوع.

٥ ـ وقد كان موقف بني إسرائيل العام من عيسى عليه السلام تجاه دعوته هو: تكذيب هذه الرسالة، واتهام عيسى عليه السلام بأنّه ساحر. وبذلك يكونون قد ارتكبوا أشدّ ألوان الظلم والعدوان: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّراً بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ * وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَى إِلَى الإسلام وَاللهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾[1].

خصائص المرحلة الثانية:

في نهاية الحديث عن المرحلة الثانية يحسن بنا أن نشير إلى خصائصها وميّزاتها وبعض الملاحظات حولها:

الأولى: تميّزت المرحلة الثانية بكثرة المعاجز والكرامات التي أشار القرآن الكريم إليها حتى أصبحت عنواناً بارزاً في شخصية عيسى عليه السلام، يشبه العنوان البارز الذي اتسمت به شخصية موسى عليه السلام في العصا واليد البيضاء وبقية الآيات التسع.

ولاشك أنّ طبيعة المرحلة تفرض ذلك؛ من أجل إقامة الحجّة البالغة على الإسرائيليين الذين كانوا قد تحولوا إلى مجتمع يتحكم الأحبار والرهبان في شؤونهم الدينية والاجتماعية، بما أُوتوا من هيبة وقوة دينية بسبب موقعهم الديني ومعرفتهم بالكتب السماوية. فكان عيسى عليه السلام بحاجة إلى هذه المعاجز ذات البعد النافذ والقوي؛ لإقامة الحجّة على الخاصة والتأثير على الوسط العام.

وهنا قد يثار هذا السؤال: لماذا لم يتناول القرآن الكريم بهذا القدر من

---

(١) الصف: ٦ ـ ٧.

التفصيل أو أكثر منه تفاصيل الشريعة، مع أنّ طبيعة المرحلة كانت هي مرحلة بيان الأحكام؟

والجواب: واضح عند الالتفات إلى أن عيسى عليه السلام جاء مصدقاً للتوراة، ومؤكداً لشريعة موسى عليه السلام، وإنّ مشكلته الرئيسية مع الإسرائيليين لم تكن حول تفاصيل الشريعة، بقدر ما هي مشكلة حول مهمته في تصحيح الانحراف الأخلاقي الذي كان يتصف به الأحبار من الإسرائيليين.

الثانية: إنّ الدعوة في هذه المرحلة كانت مختصة بالإسرائيليين، ولذلك نلاحظ أنّ الخطاب القرآني كان موجهاً لهم بالذات كما ذكرنا سابقاً، وهذا الاختصاص لا يعني اختصاص الرسالة بهم، كما سوف نذكره في المرحلة الثالثة، وإنّما كان يعني: أنّ عيسى عليه السلام كان يعمل على إيجاد قاعدة في هذه المرحلة تنطلق منها الرسالة الإلهية إلى الناس جميعاً، كما هو الشأن فيما صنعه رسول اللّه صلى الله عليه وآله والقرآن الكريم في مخاطبة أهل المدينة والعرب الجاهليين، ومواكبة حركتهم وأوضاعهم السياسية والاجتماعية؛ لغرض إيجاد هذه القاعدة على ما أوضحناه في بحث (الهدف من نزول القرآن)[1].

الثالثة: ذكرنا أنّ هذه المرحلة تميّزت بنزول الإنجيل فيها، والقرآن الكريم لم يحدّد وقت نزوله، ويمكن أن نفترض نزوله في المرحلة الآتية، ولكن تسلسل عرض القرآن الكريم للنعم الإلهية التي تفضل اللّه بها على عيسى عليه السلام ـ : ﴿إِذْ قَالَ اللهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلى وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْراً بِإِذْنِي

---

(١) علوم القرآن: ٣٢١.

وَتُبْرِئُ الأَكْمَهَ وَالأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَى بِإِذْنِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنْكَ إِذْ جِئْتَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُبِينٌ﴾[1] ـ قد يفهم منه التسلسل الزماني لها، أو في الأقل أنها كانت في مرحلة واحدة.

كما أن مقتضى هذه الرسالة أن تكون للناس جميعاً، وأنّ المكلف بإبلاغها لهم هو عيسى عليه السلام، فهذا يفرض أن يكون الإنجيل قد أنزل في هذه المرحلة؛ ليقوم عيسى عليه السلام بإبلاغه للناس الذين كان يواجههم ويتحرك فيهم، وهم جماعة بني إسرائيل.

الرابعة: اتصفت هذه المرحلة بقلة الاستجابة لدعوة عيسى عليه السلام ورسالته، بالرغم من الحركة الواسعة التي قام بها عليه السلام في التجوال والسيح بين الناس؛ إذ كان من شريعته ذلك، كما نصت عليه بعض الروايات، وأكّدته النصوص التأريخية والإنجيلية، وكذلك رغماً على هذا القدر الواسع من الكرامات والمعجزات التي جاء بها عيسى عليه السلام.

وهذه النتيجة تشير إلى قانون وسنّة اجتماعية، وهي: إن الجماعة كلّما زاد تعقيدها العقائدي والفكري والمدني، كانت استجابتها للإصلاح الديني أقل.

وهذا ما يفسّر لنا نزول الرسالة الخاتمة في أمّة العرب الجاهليين، وتقبلهم لها مع رفض اليهود والإسرائيليين لها في الوقت نفسه.

الخامسة: لا يحدّثنا القرآن الكريم عن تفاصيل المواجهة بين عيسى عليه السلام وقومه، ولكنّه يشير إلى أنّها كانت تتسم بالشدّة والعنف، سواءً من خلال التكذيب له بعد مجيئه بالبيّنات والآيات، أو من خلال وصفهم بأشدّ أنواع الظلم: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ * وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللهِ الْكَذِبَ

---

(١) المائدة: ١١٠.

وَهُوَ يُدْعَى إِلَى الإِسلامِ وَاللهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾[١] أو من خلال وصفهم بالمكر: ﴿ وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴾[٢] أو من خلال ما وصفهم بنقض المواثيق بقتل الأنبياء، أو أنّهم كانوا لا يتناهون عن المنكر، وأنّهم كانوا في موضع اللعن من عيسى عليه السلام [٣].

المرحلة الثالثة: التنظيم والانتشار

١ ـ في المرحلة السابقة عرفنا أنّ الإسرائيليين ـ بصورة عامة ـ لم يؤمنوا بعيسى عليه السلام، بل كذّبوه وكفروا به واتهموه بالسحر، وبذلك عرف عيسى منهم الكفر بصورة واضحة محسوسة لاشك فيها ولا ريب.

فأراد عيسى عليه السلام أن يعرف من بين هؤلاء الناس من آمن به منهم على قلبهم، ويختارهم لمواصلة رسالته ودعوته بطريقة أُخرى، هي: تربية هذه النخبة وإعدادهم ليتمّ التركيز في العمل عليهم، وليتحملوا هذه المسؤولية معه، ويقوموا مقامه إذا ألمّت به النوائب، وتعرض إلى القتل أو الوفاة، فأطلق نداءه بين الإسرائيليين: ﴿من أنصاري إلى اللّه﴾ أي: من أنصاري في طريقي إلى اللّه تعالى.

٢ ـ وهنا كانت استجابة الحواريين[٤] وإيمانهم المطلق بعيسى بعد اللّه

---

(١) الصف: ٦ ـ ٧.

(٢) آل عمران: ٥٤.

(٣) النساء: ١٥٥، والمائدة: ٧٨ ـ ٧٩.

(٤) والحواريون: هم خاصة الإنسان وخالصته، وأصل الكلمة: من (الحور)، وهو البياض الناصع، ويطلق (الحواريون) في اللغة على (قصارى الثياب)؛ لأنّهم يبيضونها وينظفونها من الأوساخ. وأطلق على الخاصة من الأصحاب؛ لمكان الطهارة والصفاء والبياض في علاقتهم وإخلاصهم.

وقد ورد ذكرهم في القرآن الكريم خمس مرات، وفي ثلاثة مواضع منه، هي: في سورة آل عمران والمائدة والصف. كما أنّ القرآن الكريم لم يذكر هذا الوصف في خاصة أحد من الأنبياء أو غيرهم ←

ورسالته، واستعدادهم لتحمل هذه المسؤولية، فعبّروا عن ذلك:

أولاً: بالتعبير عن تلبية هذا النداء بالاستعداد لتحمل المسؤولية: ﴿قال الحواريّون نحن أنصار اللّه﴾.

وثانياً: الإيمان المطلق الكامل باللّه تعالى.

وثالثاً: الالتزام أمام عيسى عليه السلام والتعهد له بالتسليم للّه تعالى والإيمان بوحيه والاتباع لرسوله.

ورابعاً: الطلب من اللّه سبحانه وتعالى أن يوفقهم ويعينهم على هذه المسؤولية: بأن يكتبهم من الشاهدين على أعمال الناس وحياتهم: ﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللهِ آمَنَّا بِاللهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ * رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾[1].

ويشير القرآن الكريم إلى أن هذا الموقف الرسالي من الحواريين إنّما كان

← باستثناء عيسى عليه السلام فكان من الأوصاف الخاصة بخالصته.

وقد روى الصدوق في علل الشرائع وعيون أخبار الرضا عن علي بن الحسن بن فضال، عن أبيه قال: «قلت للرضا عليه السلام: لِمَ سُمّي الحواريون الحواريي ؟ قال: أمّا عند الناس فإنّهم سموا حواريين لأنّهم كانوا قصّارين يخلّصون الثياب من الوسخ بالغسل، وهو اسم مشتق من الخبز الحواري (الذي نخل مرّة بعد أخرى)، وأمّا عندنا فسمّي الحواريون حواريين؛ لأنّهم كانوا مخلّصين في أنفسهم، ومخلّصين لغيرهم من أوساخ الذنوب بالوعظ والتذكير ». علل الشرائع ١: ٨٠.

ولم يحدد القرآن الكريم عددهم، ولكن ورد في بعض النصوص: أنّ عددهم اثنا عشر رجلاً، وكان أفضلهم وأعلمهم الوقا (لوقا). كما في التوحيد: ٤٢١، وعيون أخبار الرضا للصدوق٢: ١٤٢. و(الوقا) هو المسمّى عند النصارى بـ(لوقا) وإليه يُنسب أحد الأناجيل.

(١) آل عمران: ٥٢ ـ ٥٣.

وحياً إلهياً لهم، ولعلّه لإخلاصهم ولبلوغهم الدرجة العالية من الإيمان والكمالات الإلهية. ويحتمل العلاّمة الطباطبائي أن يكون هؤلاء الحواريون أنبياء[1]، على أنّ هذا الوحي يمكن أن يكون إلهاماً من قبيل ما ذكره القرآن الكريم في أم موسى عليه السلام، كما تشير إلى ذلك بعض الروايات عن أهل البيت عليهم السلام[2]: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ﴾[3].

٣ ـ ولا يتحدّث القرآن الكريم عمّا قام به عيسى عليه السلام تجاه الحواريين بعد انتخابهم واستجابتهم لنصرته في سبيل الله والطريق إليه، ولكن مقتضى الحال الذي تؤكّده النصوص والروايات الواردة عن أهل البيت عليهم السلام والأناجيل المتداولة عند النصارى: أنّ عيسى عليه السلام كان يعقد الاجتماعات مع الحواريين، ويصحبهم في الأسفار والحركة العامة التي كان يقوم بها؛ لتربيتهم وتزكيتهم والارتقاء بهم إلى مستوى المسؤولية التي تعهدوا بها، وكذلك تعليمهم الكتاب والحكمة والإنجيل؛ ومن هنا نجد كثيراً من النصوص المروية عن أحوال عيسى عليه السلام يختص الخطاب فيها بالحواريين أنفسهم.

ولعلّ الكثير ممّا هو في الأناجيل الموجودة هو من بقايا ما تلاه عيسى عليه السلام عليهم في هذه الاجتماعات، ومن ثمّ حفظوها وتناقلوها بينهم وإلى المؤمنين بالرسالة الجديدة، ولكنّها لم تحفظ أو تدون بشكل متقن، أو تعرضت إلى التحريف

---

(١) الميزان ٣: ٢٠٤.

(٢) البحار ١٤: ٢٧٤، عن العياشي بسنده عن أبي جعفر الباقر عليه السلام.

(٣) المائدة: ١١١.

المتعمد بعد ذلك، أو كليهما[1].

٤ ـ نعم، يذكر القرآن الكريم من شؤون عيسى عليه السلام مع الحواريين قصّة طلبهم من عيسى عليه السلام في أن يسأل اللّه سبحانه وتعالى أن ينزل عليهم مائدة من السماء؛ إذ جاء السؤال بصفة الاستفهام تأدباً منهم في الطلب، وفي سياق اختيارهم واصطفائهم بالوحي الإلهي للإيمان باللّه وبالرسول من بين بني إسرائيل، والشهادة على أنفسهم بالإيمان والتسليم، وكان التعبير بالاستطاعة ـ هل يستطيع ربك ـ إنّما هو للسؤال عن وجود المصلحة الإلهية في ذلك، لا الشك في قدرة اللّه على ذلك.

وقد طلب منهم عيسى عليه السلام أن يتقوا اللّه في طلبهم هذا إن كانوا مؤمنين به كما يذكرون؛ حذراً ممّا قد يوهمه مثل هذا الطلب من شكّ في قدرة اللّه تعالى، أو ريب في رسالته؛ لأنّهم كانوا قد رأوا الآيات العظيمة طيلة المدة السابقة، ومنها وجوده الشريف الذي هو من أعظم الآيات، فيكون الطلب ممّن رأى هذه الآيات أشبه بما يقترحه أرباب الهوى للتفكه والأنس، أو يكون اقتراحهم آية أخرى اختاروها لأنفسهم بعد تلك الآيات على كثرتها من قبيل اقتراح الآية بعد الآيات،

---

(١) وهذا يشبه ما تعرضت له (السنّة) من أقوال النبي صلى الله عليه وآله وفعله وتقريره، والأئمة المعصومين عليهم السلام، مع اختلاف في أنّ الظروف التي تعرض لها عيسى عليه السلام من حادثة الصلب والوفاة، وإيمان العدد القليل من الأشخاص، وعدم وجود أهل البيت الذين يمثلون امتداداً لرسول اللّه وغير ذلك، هذه الظروف كانت أشد أثراً في ضياع أو تحريف الإنجيل.

وبهذا نعرف أهمية الدور الذي قام به أهل البيت عليهم السلام في حفظ السنة الشريفة وإدامتها، وكذلك أهميته في حفظ القرآن. وسوف نتعرف على مزيد من الوضوح تجاه الأناجيل الفعلية في المرحلة الآتية من البحث.

فيكونوا بذلك قد ركبوا أمراً عظيماً؛ ولذلك نبههم وحذّرهم من هذا النوع من الاقتراحات بقوله: ﴿واتَّقُوا اللَّه إنْ كُنْتُمْ مُؤمنِينَ﴾[1].

ويجيب الحواريون بما يوجه طلبهم ويفسره، وبما يوضح قصدهم، ويدفع الاحتمالات الأخرى فيه، فذكروا أنّ هذا الطلب لأمور أربعة:

أ ـ الأكل من المائدة السماوية؛ إذ يكون بركة وجائزة ومفخرة لهم من بين الأمم يختصون بها، وسبباً لليقين والاطمئنان.

ب ـ اطمئنان القلب بالإيمان به تعالى وبرسالته، وبالعلاقة التي لهم معه سبحانه وتعالى في اختيارهم واصطفائهم؛ لتحمل المسؤوليات العظيمة وبالطريق الذي هم عليه.

ج ـ العلم اليقيني بأنّه قد صدقهم فيما بلغهم عن ربه من مسؤوليتهم واختيارهم بما يدفع خطرات القلوب ووساوس النفوس.

د ـ أن يشهدوا على هذه الآية العظيمة التي تحققت باقتراحهم، فتكون أبلغ في الإيمان والاحتجاج عند المنكرين وعند اللّه في يوم القيامة، فيكونوا قد شهدوها بحواسهم جميعاً، فقد رأوها بأعينهم، وسمعوا الدعاء والاستجابة بآذانهم، ولمسوها بأيديهم، وأكلوا منها واستذاقوا طعمها بأفواههم، وشمّوا رائحتها بأنوفهم.

ولما فسّر الحواريون طلبهم سأل عيسى ربه أن يكرمهم بها، ويجعل نزولها عيداً لأولهم وآخرهم، وجائزة ومفخرة وكرامة لهذه الأمّة من الحواريين، أو من يلحق بهم من الناس، ويختصون بها من بين الناس جميعاً.

كما طلب عيسى عليه السلام من اللّه في الوقت نفسه أن يجعلها آية أخرى على رسالته، والمهمة الجديدة التي يراد للحواريين أن يقوموا بها، وأن يرزقهم اللّه من

---

(١) المائدة: ٥٧.

فضله، وهو خير الرازقين.

وقد استجاب اللّه سبحانه وتعالى لعيسى عليه السلام دعاءه ومسألته، ووعد سبحانه بإنزالها مؤكداً ذلك، واللّه لا يخلف وعده، فأنزلها عليهم سبحانه، وقرن هذه الاستجابة بإنذار شديد يعبّر عن سنة إلهيّة في العدل والحكمة، وهو: أنّ اختصاصهم بهذه الكرامة يجعلهم أمام مسؤولية تتناسب مع هذه الكرامة والاختصاص، وهذا الإنذار هو: أنّ الكفر بهذه الآية بعد نزولها يؤدي إلى عذاب إلهي لا يماثله عذاب أحد من العالمين[1]: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ * إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُوا اللهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ * قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ * قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيداً لأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِنْكَ وَارْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ * قَالَ اللهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَاباً لاَ أُعَذِّبُهُ أَحَداً مِنَ الْعَالَمِينَ﴾[2].

٥ ـ وتذكر بعض الروايات عن أهل البيت: أنّ عيسى عليه السلام قام بإرسال بعض الحواريين إلى بعض الأقطار كأنطاكية؛ لدعوة الناس إلى اللّه تعالى وإبلاغ الرسالة الإلهية، وإنّ القرآن الكريم في سورة (يس) عندما تحدّث عن إرسال اللّه

---

(١) يحسن هنا مراجعة بحث العلاّمة الطباطبائي في الميزان ٦: ٢٣٨، حيث تثار أسئلة وإشكالات وتذكر احتمالات عديدة، وقد اخترنا منها ما يوافق ظهور الآيات أو ينسجم مع ظهورها من الاحتمالات.

(٢) المائدة: ١١١ ـ ١١٥.

سبحانه وتعالى الرسل إلى القرية أراد بهم الحواريين: ﴿وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلاً أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ * إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِث فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُمْ مُرْسَلُونَ﴾[1]، كما أنّ بعض هذه الروايات تتحدّث عن هذا الإرسال دون ربط لذلك بهذه الآيات الكريمة[2].

٦ ـ ثمّ إنّ الكافرين من بني إسرائيل لمّا كذّبوا عيسى عليه السلام أخذوا يتآمرون عليه وعلى إيذائه وقتله ويمكرون به، ويحرّضون عليه الحكام والسلاطين، فكان أن أعد عيسى نفسه للوفاة والقتل، ولكن الله سبحانه وتعالى كفّ عنه أذى بني إسرائيل ومكرهم بعد أن كانوا قد مكروا بعيسى عليه السلام: ﴿وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾[3].

وقد أوصى عيسى عليه السلام ـ كما تذكر بعض الروايات[4] ـ إلى شمعون الصفا، أن يتحمل مسؤولية الرسالة وإبلاغها من بعده، وسلّمه الإنجيل من أجل ذلك.

خصائص المرحلة الثالثة

في نهاية الحديث عن المرحلة الثالثة يحسن بنا ـ أيضاً ـ أن نشير إلى بعض خصائصها المهمة، وبعض الملاحظات حولها:

الأُولى: تميّزت هذه المرحلة بظاهرة الحواريين، هذه الظاهرة التي لم يذكر القرآن الكريم لها مثيلاً في الأنبياء السابقين كما أشرنا، ومن هنا فهي تستحق

---

(١) يس: ١٣ ـ ١٤.

(٢) راجع مجمع البيان ٨: ٢٦٣ ـ ٢٦٦، وكذلك البحار ١٤: ٢٥٢ و ٢٦٥ ـ ٢٦٧.

(٣) آل عمران: ٥٤.

(٤) كمال الدين للصدوق: ٢٢٤.

الدراسة والوقوف عندها؛ لمعرفة دور الحواريين، وللمقارنة بينها وبين نظائرها في التأريخ الإسلامي.

وهذا البحث وإن كان يخرج بنا عن إطار الاختصار فيه، ولكن يحسن أن نشير إلى رواية معتبرة رواها الكليني في الكافي، يعقد فيها الامام الصادق عليه السلام المقارنة بين خاصتهم من شيعتهم والحواريين، ويشخّص طبيعة الدور الرسالي الذي قام به حواري عيسى عليه السلام.

عن أبي عبد الله عليه السلام قال: « إنّ حواريّ عيسى عليه السلام كانوا شيعته، وإنّ شيعتنا حواريونا، وما كان حواريّ عيسى عليه السلام بأطوع له من حوارينا لنا، وإنّما قال عيسى عليه السلام للحواريين: ﴿مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللهِ﴾، فلا والله ما نصروه من اليهود ولا قاتلوهم دونه، وشيعتنا والله لا يزالون منذ قبض الله ـ عزّ ذكره ـ رسول الله صلى الله عليه وآله ينصرونا، ويقاتلون دوننا ويحرقون ويعذبون ويشرّدون في البلدان، جزاهم الله عنّا خيراً ».

وقد قال أمير المؤمنين عليه السلام: « والله لو ضربت خيشوم محبينا بالسيف ما أبغضونا، ووالله لو أدنيت إلى مبغضنا وحثوت لهم من المال ما أحبونا »[1].

الثانية: ذكرنا في النقطة الرابعة أنّ عيسى عليه السلام قد قام بإرسال بعض الحواريين إلى مناطق خارج المنطقة التي يسكنها الإسرائيليون، الأمر الذي يعني أنّ دعوته عليه السلام لم تكن خاصة بالإسرائيليين. ولكن هذا الأمر لم يُذكر في القرآن الكريم صراحة، وإنّما جاء ذكره في بعض الروايات تفسيراً لآيات سورة (يس).

ومع قطع النظر عن هذه الروايات، فهل هناك ما يدل على عموم رسالة

---

(١) الكافي ٨: ٢٦٨.

عيسى عليه السلام؟

قد يقال: إنّ رسالته عليه السلام كانت خاصة ببني إسرائيل؛ لما ذكره القرآن الكريم من قوله تعالى: ﴿وَرَسُولاً إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ﴾[1].

كما أنّه قد تكرّرت مخاطبته لخصوص بني إسرائيل كما في سورة الصف، كما ذكرنا سابقاً، ويؤكّد ذلك ـ أيضاً ـ ما ورد في بعض الروايات من اختصاص رسالة عيسى بخصوص بني إسرائيل[2].

ولكن الصحيح: أنّ رسالة عيسى عليه السلام كانت عامة؛ لوجود قرائن على ذلك، سواء في القرآن الكريم أم غيره:

الأولى: ما ورد من قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ اللهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللهِ﴾[3].

فنجد أنّ الخطاب والحديث عن الناس جميعاً كان هنا عامّاً وشاملاً لجميع الناس، وليس لبني إسرائيل.

الثانية: الآيات التي تتحدث عن عيسى عليه السلام في سياق أُولي العزم، وهم رسل اللّه سبحانه وتعالى إلى الناس جميعاً.

الثالثة: ما ذكره القرآن في أكثر من موضع: من أنّ عيسى جاء مصدّقاً للتوراة، ورسالة موسى عليه السلام كانت رسالة عامة لجميع الناس، كما ذكرنا ذلك في قصّة موسى عليه السلام.

الرابعة: الواقع التأريخي لرسالة عيسى عليه السلام وعدم اقتصارها على

---

(١) آل عمران: ٤٩.

(٢) كمال الدين للصدوق: ٢٢٠.

(٣) المائدة: ١١٦.

الإسرائيليين أنفسهم، بل شملت شعوباً كثيرة أخرى.

ولـذا فـتكون الرواية عن كمال الدين مردودة؛ لمخالفتها للقرآن، أو مؤوّلة بـأنّ عيسـى عليه السلام كانـت دعوتـه في حياته قد اختصّت ببني إسرائيل خارجاً، ولم تتسـع في زمانـه لغيرهـم، كمـا هو الحال بالنسبة إلى نبيّنا محمّد صلى الله عليه وآله التي شملت رسالته غير العرب من الأقوام.

الثالـثة: اختصّـت هـذه المرحلة بمعجزة استثنائية لعيسى عليه السلام، وهي: نزول المـائدة الـتي تختلف عـن المعاجـز الأُخرى التي كانت تتحقق لعيسى في المرحلة السـابقة: مـن حيـث شـكلها ومضمونها، وكذلك من حيث إنّها كانت بطلب من الخاصـة الذيـن اصـطفاهم الله سـبحانه وتعالى لهذه المهمة وهم الحواريون، ومن حيث هدفها الرسالي الذي أشرنا إليه في الحديث عنها.

ولا يـبعد ـ والله أعـلم ـ أن تكـون هـذه المعجـزة والآية الإلهية كالشاهد والدلـيل الذي يؤكّد الميثاق الذي أخذه الله سبحانه وتعالى من الحواريّين على أن يقومـوا بمسـؤوليتهم، فيكون شبيهاً بما أشار إليه القرآن الكريم من رفع الطور عند أخـذه للميـثاق من تقبله بني إسرائيل الاثني عشر، كما ورد في سورة النساء من قولـه تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيباً وَقَالَ اللهُ إِنِّي مَعَكُـمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلاَةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي﴾[1]. حيث جاء من سياقها قولـه تعالى: ﴿وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظّاً مِمَّا ذُكِّـرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾[2].

---

(١) المائدة: ١٢.

(٢) المائدة: ١٤.

ولا يبعد أن يكون الميثاق الذي أُخذ من النقباء هو الميثاق الذي أُخذ مع رفع الطور الذي يشير إليه قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[1].

والله أعلم بحقائق الأُمور.

الرابعة: اختصّ عيسى عليه السلام في هذه المرحلة بالحواريين: بالتعليم والتربية والصحبة في الحِل والترحال، كما تؤكّد ذلك الروايات والنصوص التأريخية، واقترن ذلك بمجموعة من النصائح والمواعظ الأخلاقية المهمة، يحسن الإشارة إلى بعضها كما وردت في تراث أهل البيت عليهم السلام، وهي مواعظ تنفع الخاصة من أهل العلم:

١ ـ عن عبد الله بن سنان، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «قال الحواريّون لعيسى بن مريم عليه السلام: يا معلّم الخير علّمنا أيّ الأشياء أشد؟. فقال: أشدّ الأشياء غضب الله عزّ وجل، قالوا: فبم يُتّقى غضب الله؟، قال: بأن لا تغضبوا، قالوا: وما بدء الغضب؟، قال: الكبر والتجبّر ومحقرة الناس»[2].

٢ ـ ابن الوليد، عن ابن أبان، عن الحسين بن سعيد، عن الحسن بن علي الخزّاز قال: سمعت أبا الحسن الرضا عليه السلام يقول: «قال عيسى بن مريم عليه السلام: يا بني إسرائيل لا تأسوا على مافاتكم من دنياكم إذا سلِم دينكم، كما لا يأسى أهل الدنيا على مافاتهم من دينهم إذا سلمت دنياهم»[3].

٣ ـ أحمد بن الوليد، عن أبيه، عن الصفار، عن ابن المعروف، عن ابن

---

(١) البقرة: ٦٣.

(٢) الخصال:٦.

(٣) أمالي الصدوق : ٥٨٥، ح ٨٠٥، والحديث معتبر.

مهزيار، عن رجل، عن واصل بن سليمان، عن ابن سنان قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: « كان المسيح عليه السلام يقول لأصحابه: إن كنتم أحبّائي وإخواني فوطّنوا أنفسكم على العداوة والبغضاء من الناس، فإن لم تفعلوا فلستم بإخواني، إنّما أعلّمكم لتعملوا، ولا أعلّمكم لتعجبوا، إنّكم لن تنالوا ما تريدون إلاّ بترك ما تشتهون، وبصبركم على ما تكرهون، وإيّاكم والنظرة فإنّها تزرع في قلب صاحبها الشهوة، وكفى بها لصاحبها فتنة »[1].

٤ ـ وكان عليه السلام يقول: « يا معشر الحواريين تحبّبوا إلى الله ببغض أهل المعاصي، وتقرّبوا إلى الله بالتباعد منهم، والتمسوا رضاه بسخطهم »[2].

٥ ـ عدّة من أصحابنا، عن أحمد بن محمد البرقي، عن شريف بن سابق، عن الفضل بن أبي قرّة، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: « قال رسول الله صلى الله عليه وآله: قالت الحواريّون لعيسى: يا روح الله من نجالس؟، قال: من يذكّركم الله رؤيته، ويزيد في علمكم منطقه، ويرغّبكم في الآخرة عمله »[3].

المرحلة الرابعة: الوفاة والاختلاف

١ ـ الوفاة والرفع: بعد أن تآمر الإسرائيليون على عيسى عليه السلام ومكروا به، اقتضت العناية الإلهية أن يرفع الله أذى الإسرائيليين عنه، ويرد مكرهم إلى نحورهم؛ لأنّهم كانوا يريدون قتله وتحقيره وتوهينه من خلال تعذيبه وصلبه، فشبهه الله سبحانه وتعالى عليهم، ثمّ توفاه ورفعه إليه فقتلوا شبيهه، وصلبوه ظنّاً

---

(١) البحار ١٤: ٣٢٤، ح ٣٨.

(٢) البحار ١٤: ٣٣٠، ح ٦٥.

(٣) الكافي ١: ٣٩، ح ٣.

منهم أنه عيسى عليه السلام.

وتذكر بعض الروايات[١]، أنّ الشخص الذي اشتبه به، وقتل وصلب عن عيسى عليه السلام كان هو (هوذا) الذي كان قد فدى نفسه لعيسى عليه السلام، فأخذ وقتل، ويذهب بعض المفسرين إلى أنّ المقتول هو الذي وشى بعيسى لدى الرومان وحرّضهم عليه[٢]. وهذا التفسير يتناسب مع ما ورد في بعض الأناجيل[٣].

قال تعالى: ﴿وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللهُ وَاللهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ * إِذْ قَالَ اللهُ يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾[٤].

وقال تعالى: ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلاَّ اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِيناً * بَلْ رَفَعَهُ اللهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللهُ عَزِيزاً حَكِيماً﴾[٥].

ولم ينسب الرفع في القرآن الكريم إلى نبي من الأنبياء غير عيسى عليه السلام، وعندما نسب إلى إدريس عليه السلام فإنّه خصص بالمكان أيضاً، على أنّ إدريس عليه السلام يقال فيه: إنّه رُفع إلى السماء أيضاً، والله أعلم.

٢ ـ الصراع والمواجهة: وقد كانت هذه الحادثة، وهي: محاولة قتل المسيح

---

(١) يأتي نص الرواية في هامش النقطة الثالثة.

(٢) مجمع البيان ٣: ٢٣٢.

(٣) ذكرت الأناجيل: أنّ تلميذ المسيح يهوذا الاسخرلوطي هو الذي شبه بالمسيح، وإنّه كان قد خان المسيح، فأُخذ وصُلب وقُتل.

(٤) آل عمران : ٥٤ ـ ٥٥.

(٥) النساء: ١٥٧ ـ ١٥٨.

وصلبه والتشبيه فيه سبباً في حدوث المواجهة والصراع والمطاردة بين الإسرائيليين من المؤمنين بعيسى عليه السلام من جهة، والكافرين به الذين كانوا يَلْقَون دعماً وإسناداً من الحكام الظالمين من جهة أُخرى.

ولا يحدّثنا القرآن الكريم عن تفاصيل هذه المواجهة وأحداثها ولو على نحو الاختصار، وإنّما يحدّثنا عنها وعن نتائجها تارة بلسان الوعد الإلهي بتحقّق الغلبة للمؤمنين برسالته وتمكنهم من الكافرين إلى يوم القيامة، وأُخرى بلسان الإخبار عن تأييد الله سبحانه وتعالى للمؤمنين في معركتهم مع الكافرين، بحيث تحقّق لهم النصر والتسلّط على الكافرين، قال تعالى: ﴿وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ * فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَاباً شَدِيداً فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ * وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَاللهُ لاَ يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾[١].

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنصَارَ اللهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللهِ فَآمَنَتْ طَائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَتْ طَائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ﴾[٢].

٣ ـ الاختلاف في عيسى عليه السلام: كما أنّ الرفع والصلب كان سبباً لوقوع الاختلاف بين الإسرائيليين، سواءٌ الكافرين منهم أم المؤمنين؛ إذ كان الكافرون يدّعون قتل المسيح وصلبه، ووافقهم على ذلك جماعة من المسيحيين؛ إذ كان قد

---

(١) آل عمران: ٥٥ ـ ٥٧.

(٢) الصف: ١٤.

شبّه لهم أمره، وكذلك بعض المتأخرين منهم زمناً عن هذه الحادثة؛ لأنّهم لم يعيشوا ظروفها، واستقروا فيها على النقل الذي تعرّض إلى التحريف، أو كان يعتمد على ظاهر الأُمور، وهم عامة المسيحيين واليهود في نزول القرآن الكريم وإلى يومنا الحاضر[1]: ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلاَّ اتِّبَاعَ الظَّنِّ﴾[2]، ولكن جماعة أُخرى منهم كانوا قد عرفوا الحقيقة بطبيعة الحال، ولاسيّما الحواريين منهم الذين أخبرهم عيسى عليه السلام بذلك، على ما تشير إليه بعض النصوص والروايات وتقتضيه طبيعة الأشياء[3].

---

(١) فقد روى الصدوق في إكمال الدين عن أبي جعفر عليه السلام قال: « إنّ في القائم من أهل بيت محمّد صلى الله عليه وآله شبهاً من خمسة من الرسل ـ وساق الحديث إلى أن قال ـ وأمّا شبهه من عيسى عليه السلام فاختلاف مَنْ اختلف فيه: قالت طائفة منهم: ما ولد، وقالت طائفة: مات، وطائفة قالت: قتل وصلب ». كمال الدين وتمام النعمة: ٣٢٧.

(٢) النساء: ١٥٧.

(٣) فقد ورد في تفسير علي بن إبراهيم القمي بسند صحيح عن أبي جعفر الباقر عليه السلام في تفسر قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ اللهُ يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ...﴾، حدثني أبي، عن ابن أبي عمير، عن أبي جعفر عليه السلام قال: « إنّ عيسى عليه السلام وعد أصحابه ليلة رفعه الله إليه، فاجتمعوا إليه عند المساء، وهم اثنا عشر رجلاً، فأدخلهم بيتاً، ثمّ خرج عليهم من عين في زاوية البيت وهو ينفض رأسه من الماء، فقال: إنّ الله أوحى إليّ أنّه رافعي إليه الساعة ومطهّري من اليهود، فأيّكم يلقى عليه شبحي فيقتل ويصلب، ويكون معي في درجتي؟، فقال شاب منهم: أنا يا روح الله، قال: فأنت هوذا، فقال لهم عيسى: أما إنّ منكم لمن يكفر بي قبل أن يصبح اثنتي عشرة كفرة، فقال له رجل منهم: أنا هو يا نبي الله ؟ فقال له عيسى: أتحس بذلك في نفسك؟ فلتكن هو، ثمّ قال لهم عيسى عليه السلام: أما إنّكم ستفترقون بعدي على ثلاث فرق: فرقتين مفتريتين على الله في النار، وفرقة تتبع شمعون صادقة على الله في الجنة. ثمّ رفع الله عيسى إليه من زاوية البيت وهم ينظرون إليه ».

ثمّ قال أبو جعفر عليه السلام: « إنّ اليهود جاءت في طلب عيسى من ليلتهم، فأخذوا الرجل الذي قال له عيسى عليه السلام: إنّ منكم لمن يكفر بي قبل أن يصبح اثنتي عشرة كفرة، وأخذوا الشابّ الّذي أُلقي ←

وتطوّر هذا الاختلاف، فكان سبباً ومجالاً للتحريف في العقيدة، والغلوّ في شخصية عيسى عليه السلام؛ إذ حاول بعض المسيحيّين الغلاة والمنحرفين أن يهربوا من الآثار السلبية الاجتماعية والنفسية للقتل والصلب: بأن يدّعوا أنّ المسيح هو الله الذي حلّ في روح القدس فجاء مريم عليها السلام فحملته ثمّ تحوّل إلى صورة بشر، وهو عيسى المسيح؛ ليفدي البشرية من خطيئتها بتعرضه للقتل والصلب والعذاب والآلام البدنية والروحية، ثمّ ليرتفع مرّة أُخرى إلى السماء ومحلّه الأول، ويرجع إلى حاله الأولى، فكانت عقيدة التثليث.

وبذلك حاولوا ـ أيضاً ـ أن يفسروا ولادة المسيح بدون أب؛ إذ وصفوا المسيح بالأُلوهية والربوبية، وأخرجوه من الإنسانية، فهو غير بشر؛ لذا كانت ولادته استثنائية.

وإلى هذا الاختلاف يشير القرآن الكريم بعد ذكر ولادة عيسى عليه السلام في سورة مريم بقوله تعالى: ﴿فَاخْتَلَفَ الأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾[1].

كما يشير إليه قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ * لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ ثَالِثُ ثَلاَثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلاَّ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * أَفَلاَ يَتُوبُونَ إِلَى اللهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللهُ غَفُورٌ

=> عليه شبح عيسى فقتل وصلب، وكفر الّذي قال له عيسى: تكفر قبل أن تصبح اثنتي عشرة كفرة ». تفسير القمي ١: ١٠٣.

(١) مريم: ٣٧.

رَحِيمٌ * مَـا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَـا يَـأْكُلاَنِ الطَّعَـامَ انظُـرْ كَـيْفَ نُبَـيِّنُ لَهُمُ الآيَاتِ ثُمَّ انظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ * قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ مَا لاَ يَمْلِكُ لَكُمْ ضَراً وَلاَ نَفْعاً وَاللهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ * قُلْ يَـا أَهْـلَ الْكِتَابِ لاَ تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلاَ تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيراً وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾[١].

وقولـه تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ اللهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّـيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنـتُ قُلْـتُهُ فَقَـدْ عَلِمْـتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلاَ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلاَّمُ الْغُـيُوبِ * مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلاَّ مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ اعْبُدُوا اللهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَـهِيداً مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَـهِيدٌ * إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ * قَالَ اللهُ هَـذَا يَـوْمُ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾[٢].

وقولـــه تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَـهُ كُـنْ فَـيَكُونُ * الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلاَ تَكُنْ مِنْ الْمُمْتَرِينَ * فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْـدِ مَـا جَـاءَكَ مِـنْ الْعِلْـمِ فَقُـلْ تَعَـالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ * إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلاَّ اللهُ وَإِنَّ اللهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾[٣].

---

(١) المائدة: ٧٢ ـ ٧٧.

(٢) المائدة: ١١٦ ـ ١١٩.

(٣) آل عمران: ٥٩ ـ ٦٢.

٤ ـ الرهبانية وعبادة الرهبان: اختلف المسيحيون بعد ذلك في مجال السلوك الاجتماعي والأخلاقي؛ إذ أشار القرآن الكريم إلى نوعين من هذا الاختلاف:

الأول: الاختلاف في الرهبانية التي كتبها الله سبحانه وتعالى عليهم: من الزهد في الدنيا، والإعراض عن زخارفها وشهواتها المحرمة إلى الابتداع فيها؛ إذ تحولت إلى الانعزال عن المجتمع الإنساني، والتخلي عن المسؤوليات، وتحريم ما أحل الله سبحانه وتعالى من الزواج والمعاشرة: ﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِمْ بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الإِنْجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلاَّ ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾[1].

الثاني: اتخاذهم الرهبان أرباباً من دون الله، يقدسونهم ويبذلون لهم الأموال، ويعتقدون فيهم أنهم يعاقبون ويثيبون، وأنه لا يُغفر لهم إلاّ بواسطتهم، وبذلك تأثروا بسلوك الأحبار المنحرفين من اليهود، والقياصرة من ملوك الرومان: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيراً مِنَ الأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ﴾[1].

---

(١) الحديد: ٢٧. ورد في تفسير هذه الآية الكريمة عن ابن مسعود قال: «كنت رديف رسول الله صلى الله عليه وآله على حمار، فقال: يا ابن أمّ عبد هل تدري من أين أحدثت بنو إسرائيل الرهبانية؟ فقلت: الله ورسوله أعلم. فقال: ظهرت عليهم الجبابرة بعد عيسى يعملون بمعاصي الله، فغضب أهل الإيمان فقاتلوهم، فهُزم أهل الإيمان ثلاث مرات، فلم يبق منهم إلاّ القليل، فقالوا: إن ظهرنا لهؤلاء أفنونا، ولم يبق للدين أحد يدعو إليه، فتعالوا نتفرق في الأرض إلى أن يبعث الله النبي الذي وعدنا به عيسى عليه السلام، يعنون محمّداً صلى الله عليه وآله، فتفرقوا في غيران الجبال، وأحدثوا رهبانية، فمنهم من تمسك بدينه، ومنهم من كفر ثم تلا هذه الآية: ﴿ ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم ﴾ إلى آخرها، ثمّ قال: يا ابن أمّ عبد أتدري ما رهبانية أمّتي؟، قلت: الله ورسوله أعلم، قال: الهجرة والجهاد والصلاة، والصوم والحج والعمرة». مجمع البيان ٩: ٤٠٤.

وفي بيان قصة عيسى عليه السلام من آل عمران: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾[1].

---

(١) آل عمران: ٦٤. جاءت هذه الآية في سياق آية المباهلة، وهي قوله تعالى: ﴿ فمن حاجك فيه من بعد ما جاءك من العلم فقل تعالوا ندعو أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكافرين﴾، وقد ورد في تفسير هذه الآية: أنها: ((قيل نزلت الآيات في وفد نجران: العاقب والسيد ومن معهما، قالوا لرسول الله: هل رأيت ولداً من غير ذكر؟، فنزل: ﴿ إنّ مثل عيسى عند الله كمثل آدم... ﴾ الآيات، فقرأها عليهم.

عن ابن عباس وقتادة والحسن، فلمّا دعاهم رسول الله إلى المباهلة استنظروه إلى صبيحة غد من يومهم ذلك، فلمّا رجعوا إلى رجالهم، قال لهم الأسقف: انظروا محمّداً في غد، فإن غدا بولده وأهله فاحذروا مباهلته، وإن غدا بأصحابه فباهلوه، فإنّه على غير شيء، فلمّا كان الغد جاء النبي صلى الله عليه وآله آخذاً بيد علي بن أبي طالب عليه السلام، والحسن عليه السلام والحسين عليه السلام بين يديه يمشيان، وفاطمة عليها السلام تمشي خلفه، وخرج النصارى يقدمهم أسقفهم، فلمّا رأى النبي صلى الله عليه وآله قد أقبل بمن معه سأل عنهم، فقيل له: هذا ابن عمه وزوج ابنته، وأحب الخلق إليه، وهذان ابنا بنته من علي عليه السلام، وهذه الجارية بنته فاطمة أعزّ الناس عليه، وأقربهم إلى قلبه، وتقدّم رسول الله فجثا على ركبتيه، قال أبو حارثة الأسقف: جثى والله كما جثا الأنبياء للمباهلة، فكعّ ولم يقدم على المباهلة، فقال السيد: ادن يا أبا حارثة للمباهلة، فقال: لا، إنّي لأرى رجلاً جريئاً على المباهلة، وأنا أخاف أن يكون صادقاً، ولئن كان صادقاً لم يَحُلْ ـ والله ـ علينا الحول وفي الدنيا نصراني يطعم الماء، فقال الأسقف: يا أبا القاسم إنّا لا نباهلك ولكن نصالحك، فصالحنا على ما ينهض به، فصالحهم رسول الله صلى الله عليه وآله على ألفي حلة من حلل الأواقي، قسمة كل حلة أربعون درهماً، فما زاد أو نقص فعلى حساب ذلك، وعلى عارية: ثلاثين درعاً وثلاثين رمحاً وثلاثين فرساً، إن كان باليمن كيد، ورسول الله ضامن حتى يؤدّيها، وكتب لهم بذلك كتاباً.

وروي أن الأسقف قال لهم: إني لأرى وجوهاً لو سألوا الله يزيل جبلاً من مكانه لأزاله، فلا تبتهلوا فتهلكوا، ولا يبقى على وجه الأرض نصراني إلى يوم القيامة، وقال النبي: « والذي نفسي بيده لو لاعنوني لمسخوا قردة وخنازير، ولاضطرم الوادي عليهم ناراً ». ولما حال الحول على ←

٥ ـ تحـريف الإنجـيل: وقد كان السبب في هذه الاختلافات وغيرها ضياع الإنجـيل أو تحـريفه ـ في اللفـظ أو التطبيق والعمل ـ من قبل بعض الإسرائيليين الذيـن آمـنوا بالمسـيحية، أو أظهـروا الإيمان بها في عصر متأخّر عن وفاة المسيح ورفعه.

والقـرآن الكـريم وإن كـان لا يحدّثـنا عن زمان وظروف تحريف الإنجيل، ولكنّه يحدّثنا عن هذا التحريف في عدّة مواضع:

مـنها: مـا يذكـره من معلومات دقيقة يختلف فيها عن الإنجيل مثل: ولادة عيسـى عليه السلام وبشـريّته، وقضية وفاته ورفعه، إلى غير ذلك من النقاط التي أشرنا إلى بعضها في سرد القصّة.

ومـنها: مـا أشـار إلـيه القـرآن الكـريم: مـن عدم التزامهم بتطبيق التوراة والإنجـيل في مقام العمل، وتحريفه في الالتزام والسلوك: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيراً مِنْهُمْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَاناً وَكُفْراً فَلاَ تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾[1].

ومـنها: ما أشار إليه القرآن الكريم في سياق الحديث عن اليهود والنصارى:

← النصارى حتى يهلكوا كلّهم قالوا: فلمّا رجع وفد نجران لم يلبث السيد والعاقب إلاّ يسيرا حتى رجعا إلى النبي، وأهدى العاقب له: حلة وعصاً وقدحاً، ونعلين وأسلما)). مجمع البيان ٢: ٣٠٩.

وفي ختام حديث القرآن عن النصارى وأهل الكتاب من هذه السورة والآية يذكر القرآن الكريم المؤمن منهم بقوله تعالى: ﴿ليسوا سواءً من أهل الكتاب أمّة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون * يؤمنون بالله واليوم الآخر ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويسارعون في الخيرات وأولئك من الصالحين * وما يفعلوا من خير فلن يكفروه والله عليم بالمتقين﴾. آل عمران: ١١٣ ـ ١١٥.

(١) المائدة: ٦٨.

مـن تحـريفهم للكـتاب بتفسـيره وتأويله بالرأي والهوى، والأغراض الخاصة أو نسـبته إلى الله كذباً وزوراً: ﴿ وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقاً يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُمْ بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِـنْ الْكِـتَابِ وَمَـا هُـوَ مِنْ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾[1].

مضـافاً إلى ذلـك كلّـه أنّ واقع الأناجيل الفعلية هو أفضل شاهد على هذا الضياع والتحريف، وهذا ما سوف نشير إليه في خصائص هذه المرحلة.

خصائص المرحلة الرابعة

في خـتام الحديـث عـن هـذه المـرحلة يحسن بنا أن نشير إلى خصائصها وبعض الملاحظات عليها:

الأولى: كانـت الوفاة والرفع لعيسى عليه السلام من خصائص هذه المرحلة، ولكن هـل كانت الوفاة حسب السنّة العامة الجارية في الناس عندما يتوفّاهم الله سبحانه وتعـالى ـ ﴿اللهُ يَتَوَفَّى الأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَـى عَلَـيْهَا الْمَـوْتَ وَيُرْسِلُ الأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَـتَفَكَّرُونَ﴾[2] ـ ثم كـان الـرفع بعـد الوفـاة، فيكون رفعاً معنوياً في مقابل الأذى والإهانة التي كان يريد أن يلحقها بعيسى عليه السلام الكافرون؟ أو كانت الوفاة هنا وفاة خاصـة بعيسى عليه السلام تميّز بها عليه السلام من سائر الأنبياء والناس، كما تميّز بولادته، وإنّ الـرفع كـان حقيقياً، كما رفع الله سبحانه وتعالى نبيه محمّد صلى الله عليه وآله بصورة مؤقتة في الإسراء والمعراج؟

---

(١) آل عمران: ٧٨.

(٢) الزمر: ٤٢.

يوجد احتمالان، وحديث واسع للمفسرين أشار إلى جانب منه الشيخ الطبرسي في مجمع البيان[1].

ولاشك أنّ ظاهر الآيات الكريمة وسياقها أنّ الوفاة والرفع كانا امتيازين خاصين بعيسى عليه السلام، استحقا خطاباً خاصاً ونعمة إلهيّة متميّزة، ولذا فهو رفع مادي لعيسى بجسمه، ولذا اختص نسبة الرفع إلى اللّه سبحانه وتعالى في القرآن الكريم بعيسى عليه السلام.

وهذا ما فهمه عامة المفسرين والمخاطَبين في القرآن الكريم، وإن كان بعضهم ولاسيّما المتأخرين يحاول أن يحتمل فيه احتمالات أُخرى[2].

وتؤكّد هذا الفهم للرفع الروايات التي وردت في شرح هذا الموضوع[3].

الثانية: كانت هذه المرحلة تتسم بالصراع والمواجهة بين الإسرائيليين أنفسهم بشأن عيسى عليه السلام، فهل كان هذا الصراع مجرّد صراع سياسي، ومن ثمّ غلبةً وعلواً في الأوضاع السياسية والاجتماعية للمؤمنين على الكافرين بعيسى،

---

(١) مجمع البيان ٢: ٣٠٥ ـ ٣٠٦٧، وكذلك النجار في قصص الأنبياء: ٥٦٦ ـ ٥٦٩ حيث ذكر الاحتمالات العديدة، واختار الوفاة العادية والرفع المادي، ونسبه إلى محمّد عبدة.

(٢) راجع الميزان ٥: ١٣٣.

(٣) روى الصدوق في عيون الأخبار، عن الرضا عليه السلام: أنّه قال في حديث طويل في وصف الأئمة عليهم السلام «... وإنّهم يُقتلون بالسيف أو بالسمّ»، وساق الحديث إلى أن قال عليه السلام: «ما شبّه أمر أحد من أنبياء الله وحججه عليهم السلام للناس إلاّ أمر عيسى بن مريم وحده؛ لأنّه رُفع من الأرض حيّاً، وقبض روحه بين السماء والأرض، ثمّ رفع إلى السماء وردّ عليه روحه، وذلك قوله عزّ وجلّ: ﴿إذ قال الله يا عيسى إني متوفّيك ورافعك إليّ ومطهّرك من الّذين كفروا﴾، وقال عزّ وجلّ حكاية لقول عيسى عليه السلام: ﴿وكنت عليهم شهيداً ما دمت فيهم فلمّا توفيتني كنت أنت الرقيب عليهم وأنت على كل شيء شهيد﴾» الخبر. عيون أخبار الرضا ٢: ١٩٣.

أو أنّه كان صراعاً دموياً ـ أيضاً ـ فيه قتال واستخدام للسلاح؟

ويبدو من سياق الآية الكريمة في سورة الصف التي تحدّثت عن هذا الصراع ـ أيضاً ـ كان هذا الصراع فيه قتال وجهاد بالنفس؛ وذلك لأنّ الآيات التي سبقتها تحدّثت عن دعوة المؤمنين إلى الجهاد بالنفس والمال، كما تحدّثت عن النصر والفتح في هـذا الجهـاد، وجـاء الحديث عن الصراع الإسرائيلي كمصداق ومثل لتوضيح نتيجة هذا الصراع مع الكافرين في أمة محمّد ﷺ، كما أنّ طبيعة الأشياء تقتضي أن يكون هذا الصراع متسماً بالقتال وبذل النفس.

ويؤيـد ذلـك ما ورد في تفسير هذه الآية عن علي بن إبراهيم القميّ الذي نصّ على حدوث القتال بين الإسرائيليين[1].

وهـذا الظهـور القرآني الذي تؤيده الروايات يدل على مشروعية القتال في شـريعة عيسـى عليه السلام، عـلى خلاف ما يفهم من الإنجيل الموجود فعلاً من التسليم للطغاة وعدم التصدي لهم، فيكون ذلك أحد موارد التحريف.

الثالـثة: وقـوع حادثـة محاولـة قتل المسيح عليه السلام، ونلاحظ هنا: أنّ القرآن الكـريم ـ الـذي أكّـد في جانـب من القصة بشرية عيسى عليه السلام ـ نزّهه عن القتل

---

(١) ﴿يا أيّها الّذين آمنوا كونوا أنصار الله كما قال عيسى ابن مريم للحواريّين من أنصاري إلى الله قال الحواريّون نحن أنصار الله فآمنت طائفة من بني إسرائيل وكفرت طائفة﴾، قال: الّتي كفرت هي الّتي قتلت شبيه عيسـى وصلبته، والّتي آمنت هي الّتي قبلت شبيه عيسى حتّى يقتل: ﴿فأيّدنا الّذين آمنوا﴾ هي الّتي لم تقتل شبيه عيسى على الأخرى، فقتلوهم: ﴿على عدوّهم فأصبحوا ظاهرين﴾، البحار ١٤: ٢٣٧ عن تفسير علي بن إبراهيم، ح ٧.

ويؤيده ما ورد في البحار ١٤: ٣٤٥ عن إكمال الدين، ح ١، من مجاهدة شمعون الصفا للكفار. وما ورد في المصدر السابق: ٢٧٩، ح ١١، عن مقاتلة الكفار لعيسى عليه السلام في تكريت، إلاّ أنّ هذه الرواية تذكر القتال في أيام عيسى عليه السلام، أي: في المرحلة السـابقة.

والصلب والتعرض لإهانة الصلب من خلال ما ذكره من حقيقة الرفع إلى الله تعالى، وهو مقام قدسيّ اختصّ به المسيح من بين الأنبياء.

وهذا بخلاف عقيدة النصارى فيه التي أعطته صفة الربوبية والألوهية، ولكنّها في الوقت نفسه لم تنزهه من هذه الإهانة والإذلال التي هي شأن الجناة والمشعوذين.

وهنا تبدو واضحة الرؤية الوسطية والمتزنة في العقيدة الإسلامية، على خلاف الإفراط في الغلو عند النصارى، والتفريط في عقيدة اليهود فيه.

ومن هنا نجد النصارى يتورطون في قبول الصلب والقتل، فيدّعون خروجه من قبره وارتفاعه إلى السماء بعد ذلك، ليتستروا على المدلول السلبي للصلب.

الرابعة: نزّه القرآن الكريم المسيح من الصلب، واليهود والنصارى ألصقوها به ـ كما عرفنا ـ ولكنّ النصارى لم يكتفوا بذلك حتى حوّلوا قضية الصلب إلى فكرة عقائدية أساسية في العقيدة النصرانية؛ إمعاناً منهم في الغلوّ وتبريراً غير منطقي لوقوع هذه الحادثة المشينة للمسيح، حيث لم يعرف تاريخ الأنبياء المنظور أنْ تعرّض أحدهم إلى هذا النوع من الإذلال والامتهان والإهانة[١]، فمن أين جاء النصارى بهذه العقيدة؟ وهل هي اختراع منهم أو أنّهم أخذوها من غيرهم ليبرروا بها هذه الحادثة المزوّرة؟

وقد ذكر السيد رشيد رضا وغيره من الباحثين عن علماء تاريخ الأديان والآثار: أنّ هذه العقيدة قد أُخذت بتفاصيلها عن الوثنيين الهنود، وعن البوذيين بصورة أدق، وهو ممّا يدل على تأثر المسيحية الموجودة بالوثنية[٢].

---

(١) راجع في بيان عقيدة الصلب ما ذكره في المنار ٦: ٢٤ ـ ٢٥.

(٢) راجع المصدر السابق: ٣١ ـ ٣٣، ونقل عنه النجار في قصصه: ٤٧٩ ـ ٥٨٠.

الخامسة: اتصفت هذه المرحلة بوضع الأناجيل فيها، وهناك قرائن عديدة واضحة على تحريف هذه الأناجيل أو وضعها بمجرد مراجعتها على رغم ما تشتمل عليه من أخلاق ومعارف إلهيّة ومواعظ راقية، بحيث يمكن أن نقول: إنّها خليط من الموروث الأخلاقي والسلوكي لعيسى عليه السلام، والقصص والإشاعات وما كان يتداوله الناس عن حياته، وما أُضيف إلى ذلك من أفكار وبدع وعقائد على يد الرهبان والكهنة والدعاة إلى المسيحية في العصور المتأخّرة حتى استقر الأمر على هذه الأناجيل الأربعة المعروفة.

وهذا الموضوع وإن كان من الأبحاث المهمة التي تداولها الباحثون الأوروبيون من أصل مسيحي، والباحثون المسلمون منذ القرن الثاني الإسلامي وحتى يومنا الحاضر، وأُلّفت فيه الرسائل والكتب[1]، ولكن هنا نشير إلى بعض الأدلة المهمة الواضحة:

الأوّل: الاختلاف الواضح بين هذه الأناجيل في المعلومات والعقائد والأفكار، فإذا كانت وحياً أو إلهاماً إلهياً فلا يصح فيها الاختلاف: ﴿أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافاً كَثِيراً﴾[2].

الثاني: وجود الأناجيل العديدة تاريخياً غير الأناجيل الأربعة المعروفة فعلاً، والتي تمّ إتلافها من قبل المجامع الكنيسية أو القياصرة الحاكمين، وهذا ممّا يجمع

---

(١) من أوائل النصوص المدونة في هذا المجال الاحتجاج المعروف للإمام الرضا عليه السلام الذي رواه الصدوق في عيون أخبار الرضا، ورواه الطبرسي في الاحتجاج. كما أنّ من جملة الكتب التي أُلّفت في هذا المجال كتاب (إظهار الحق) للشيخ رحمة الله الهندي، وكتاب الهُدى إلى دين المصطفى للعلاّمة الشيخ محمّد جواد البلاغي، وبحث السيد رشيد رضا في تفسير المنار ٦: ٣٦، وبحث النجار في قصص القرآن، وبحث قصّة الحضارة في وجود المسيح عليه السلام ١١: ٢٠٢ ـ ٢٠٦ وما بعدها.

(٢) النساء: ٨٢.

عليه المؤرخون حتى المسيحيّون منهم، ووجود نموذج لذلك، وهو: إنجيل برنابا، وهو يختلف في قضايا مهمة وأساسية مع الأناجيل الموجودة، منها قضية التثليث والصلب.

الثالث: أنّ هذه الأناجيل قد تمّ كتابتها في عصر متأخّر عن المسيح عليه السلام بمقدار لا يقلّ عن سبعين عاماً، ويكاد يجمع المؤرخون على ذلك، الأمر الذي يسقطها عن التواتر والوثوق.

الرابع: وجود عقائد باطلة في هذه الأناجيل لا يقبلها العقل ولا الفطرة السليمة، مثل: عقيدة التثليث، وتأليه عيسى عليه السلام، وعقيدة الصلب والفداء، كما أنكره القرآن الكريم عليهم أيضاً.

الخامس: اختلاف هذه الأناجيل في تفاصيل عديدة مع القرآن الكريم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وهذا الدليل يصلح دليلاً للمسلمين.

ملاحظات عامّة حول قصّة عيسى عليه السلام

في نهاية المطاف يحسن بنا أن نسجّل بعض الملاحظات العامة حول قصّة عيسى عليه السلام.

الملاحظة الأولى: الهدف

إنّ قصّة عيسى عليه السلام شأنها شأن بقية قصص الأنبياء في القرآن الكريم، لها أهداف متعدّدة، ولكن بعض هذه الأهداف يأتي في سياق أهداف تشترك بها قصص الأنبياء، وبعضها الآخر أهداف رئيسية تكاد أن تكون مختصة بالقصّة ذاتها، وقد أشرنا إلى بعض هذه الأهداف عند الحديث عن أنبياء أولي العزم.

وهنا يمكن أن نؤكّد وجود عدّة أهداف تكاد أن تكون أهدافاً مركزية لقصّة عيسى عليه السلام في القرآن الكريم.

الأول: مناقشة وإبطال عقيدة النصارى في إلوهية المسيح وعقيدة الصلب، فإنّ النصارى يعتقدون أنّ المسيح هو اللّه أو ابنه، وأنّه ثالث ثلاثة، كما يفسّرون الصلب بالفداء عن الخطيئة كما ذكرنا، وقد قدّم القرآن التفسير المنطقي لولادة المسيح وأنّ مثله كمثل آدم خلقه من تراب، ثم قال له كن فيكون، وكذلك أكّد وفاته ورفعه، وهذا الهدف يقصد به النصارى من الناس بشكل خاص؛ وذلك لأنّ ولادة عيسى عليه السلام من غير أب هي من القصص الذي لا يؤمن بها إلاّ النصارى من الناس في ذلك الوقت، وآمن بها المسلمون لتأكيد القرآن لها؛ لأنّ اليهود وغيرهم من الأمم لا يقرّون ـ بصورة عامة ـ بوجود المسيح تاريخياً، ومن أقرّ منهم بالمسيح فهو يتهم مريم عليها السلام في ولادته، كما أشار القرآن الكريم إلى ذلك.

وهذا هو الهدف الرئيسي للقصّة ولاسيّما في سورة آل عمران، ومريم، والنساء، والمائدة.

الثاني: بيان انتصار الرسالة الإلهية في النهاية عندما تتوفر عناصر الإخلاص في العمل والصبر والجهد والتضحية، ولو كان ذلك النصر بعد حين من الزمن وانتقال صاحب الرسالة إلى اللّه تعالى.

وهذا هو الهدف الرئيسي للقصّة في سورة الصف، وهو ما يفهم منها كهدف ثانوي في سورة آل عمران (الآيات ٥٤ ـ ٥٧).

وهذا الهدف وإن كان من الأهداف القرآنية المشتركة، ولكن تحقّق الانتصار بعد انتقال صاحب الرسالة إلى اللّه تعالى الذي قد يقترن عادة باليأس من النصر بعد وقوع حادثة الصلب المؤلمة، فإنّ ذلك من خصائص قصّة عيسى عليه السلام.

وفي التأريخ الإسلامي نجد مثيلاً لذلك النصر الذي حقّقه الامام الحسين عليه السلام في معركته مع يزيد؛ إذ كان ذلك النصر بعد شهادته المروعة، وهذا الهدف يرتبط بسنن التأريخ وحركته.

الثالث: تفسير ظاهرة تاريخية دينية قد تثير تساؤلات واستغراب في تحولات التأريخ، وهي: ظاهرة أن يأتي النبيّ قومه الأقربين بما يصلح مجتمعهم وحياتهم، ويقيم الحجّة على ذلك بالأدلّة والبراهين والمعاجز العديدة، ثم يواجه الجحود والرفض من قبل قومه وشعبه وعشيرته، وهذا ما حدث للرسالة الإسلامية. فكانت قصّة عيسى عليه السلام مثلاً لهذه الظاهرة التأريخية التي يقترن فيها الجحود بكل عوامل وعناصر اليقين: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْماً وَعُلُوّاً﴾[1].

وقصّة موسى عليه السلام وإن كانت تشبه في جانب منها قصّة عيسى عليه السلام؛ لكثرة الآيات والمعاجز والأدلة، إلاّ أنّ الرفض العام كان من فرعون وقومه الذين يمثلون قوماً وشعباً آخر لا ينتمي إليه موسى عليه السلام، وهذا بخلاف قصّة عيسى عليه السلام التي هي أوضح في بيان هذه الحقيقة لانتماء عيسى إلى بني إسرائيل.

وهذا هو هدف الإشارة إلى القصّة في سورة (الزخرف) حسب الظاهر، والله أعلم: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلاً إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ * وَقَالُوا أَآلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلاَّ جَدَلاً بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾[2].

كما أنّ هذا هو الهدف الثانوي للإشارة إلى القصّة في سورة الصف: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾[3].

---

(١) النمل: ١٤.

(٢) الزخرف: ٥٧ ـ ٥٨.

(٣) الصف: ٦. ذكر السيد قطب في تفسيره (في ظلال القرآن) هدفاً رابعاً، خلاصته: أنّ قصّة عيسى عليه السلام تمثل قصّة ولادة فريدة في تاريخ الإنسانية، تصور للإنسان كيفية الخلق الأوّل له، والإنسان لم يشهد هذا الخلق الأوّل فتكون ولادة عيسى بهذا الشكل شاهداً آخر على هذه ←

الملاحظة الثانية: النتائج والآثار

لقد ذكرنا في القصّة أنّ عيسى ﷺ لم يحصد في دعوته للإسرائيليين إلاّ التكذيب، باستثناء استجابة الحواريين لدعوته، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ﴾[1].

وقال تعالى: ﴿فلمّا جَآءَهُمْ بِالبَيِّنَاتِ قَالُوا هذَا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾[2]، فهل توقفت الدعوة عند هذا الحد، أو كان لها نتائج وآثار في الإسرائيليين وفي التأريخ الإنساني؟

وهنا يمكن أن نلاحظ مجموعة من الآثار والنتائج المهمة على مستوى الدعوة والرسالة:

الأوّل: انتشار الدعوة والرسالة، وخروجها من الإطار الضيق للإسرائيليين إلى القاعدة العريضة للدعوة، وهم عامة الناس، كما ذكرنا في المرحلة الثالثة.

وقد كان ذلك بسبب التربية الجيّدة والتنظيم القوي، والروح المعنوية العالية الّتي أوجدها عيسى ﷺ في الحواريين، وكذلك تهيئة الأرضية القوية للقبول التي كانت نتيجة للجهود الكبيرة التي بذلها الرسول عيسى بن مريم ﷺ؛ إذ أدّت إلى هزيمة الإسرائيليين المنحرفين أمامه، فتآمروا عليه.

← الحقيقة، ولكن ولادة عيسى وإن كانت فريدة في التأريخ، وهي شاهد على حقيقة خلق الإنسان إلاّ أنّ خلقه لم يتم كخلق آدم الذي خلقه اللّه من تراب وبدون أب وأم، كما أنّ نفس الولادة لها هذا المدلول. وأمّا القصّة فهي إنّما تذكر بهذه الولادة، فلا يكون لها دور أكثر من قصّة آدم نفسه، وإخبار اللّه عن خلق الإنسان من صلصال من حمأ مسنون. منه ﷺ.

(١) آل عمران: ٥٢.

(٢) الصف: ٦.

ويمكن أن نجد مؤشراً واضحاً على هذه الحقيقة من خلال ما نجده في الأناجيل المتوارثة: من مضامين عالية وأخلاق ربانية راقية، ومواعظ وحكمة، حيث اختلط ما تبقّى من هذا التراث الإلهي مع التحريفات والأخطاء والاشتباهات البشرية التي أضيفت إليه.

وإلى هذا التراث الإلهي يشير القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾[1].

الثاني: إيجاد تحول في الوضع النفسي والروحي والمشاعري، ومن الرقّة في القلب والرأفة والرحمة، وخلق التسامح والتواضع لدى الأُمّة الجديدة ـ بالرغم من وجود الانحرافات بين أبنائها ـ إذ يشير القرآن إلى وجود الفرق في هذا الجانب بين هذه الأُمّة والأُمّة الإسرائيلية عندما يقارن بين علاقتهم مع المؤمنين وعلاقة اليهود منهم مع المؤمنين: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَاناً وَأَنَّهُمْ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ * وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾[2].

ويبدو هذا واضحاً عندما نقارن هذا الوصف بما وصف به القرآن الكريم الإسرائيليين: من قسوة القلب، والاستكبار، والجحود، وقتل الأنبياء، وغير ذلك من الصفات التي تقدّم الحديث عنها في وصف قوم عيسى عليه السلام. قال تعالى:

---

(١) المائدة: ٦٦.

(٢) المائدة: ٨٢ ـ ٨٣.

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لاَ تَهْوَى أَنفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقاً كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقاً تَقْتُلُونَ * وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ لَعَنَهُمْ اللهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلاً مَا يُؤْمِنُونَ﴾[1].

وقال تعالى: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنْ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللهِ وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾[2].

الثالث: وجود خط الترهب في السلوك والزهد في الدنيا وشهواتها، والانعزال عنها. وهذا الخط السلوكي وإن اتّسم بالمغالاة في التطبيق والابتعاد عن أهدافه الصحيحة، إلاّ أنّ له أصل في الشريعة الجديدة، ويعبّر عن استجابة لنداء عيسى عليه السلام في التخلي عمّا كان عليه الأحبار والكهنة من الإسرائيليين: من حب الدنيا وجمع الأموال، والحرص على الحياة والمتاع، بل قد يكون الغلوّ في هذه الرهبانية كان نتيجة لرد الفعل السلبي على الخلق الإسرائيلي.

ولعلّ بيان هذه الحقيقة هو الهدف من آية سورة الحديد التي تناولت قصّة عيسى عليه السلام، كما أشرنا إليها في المرحلة الرابعة: ﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِمْ بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلاَّ ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾[3].

---

(١) البقرة: ٨٧ ـ ٨٨.

(٢) البقرة: ٧٤.

(٣) الحديد: ٢٧.

وبالمقارنة مع هذا المنهج السلوكي يتحدّث القرآن الكريم عن اليهود وبني إسرائيل بقوله تعالى: ﴿ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ وَاللهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴾[1].

وبهذا التطوّر الكبير والنتائج المهمة أمكن لهذه الأمّة الجديدة أن تحقّق الانتشار الواسع، والغلبة على الكافرين من بني إسرائيل حتى أصبحوا فوقهم إلى يوم القيامة: ﴿وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴾[2].

الملاحظة الثالثة: الحياة الشخصية والعامة لعيسى عليه السلام

يلاحظ أنّ القرآن الكريم لم يتناول من الحياة الشخصية لعيسى عليه السلام إلاّ قضية الولادة والإعداد لها، كما لم يتحدّث عن حياته أيضاً، وبدأ بنبوته وأعماله ونشاطه وحركته إلاّ بقدر محدود جداً، وهذا على خلاف ما تحدّث القرآن الكريم عن موسى عليه السلام وحتى إبراهيم.

والأناجيل التي أرّخت للمسيح عليه السلام وفصّلت في الحديث عنه أهملت فترات مهمة من حياته الشخصية، فمن سن الثانية عشرة ـ وكان المسيح قد تحدّث للناس والكهنة وأعجبوا به ـ إلى سن السابعة والعشرين لم تذكر له الأناجيل شيئاً من النشاط والعمل[3].

فهل كان هذا السكوت من القرآن الكريم بسبب عدم أهمية الأحداث التي

---

(١) البقرة: ٩٦.

(٢) آل عمران: ٥٥.

(٣) البحار، قصص الأنبياء: ٥٢٠.

وقعت لعيسى ﷺ، كما قد يُفهم ذلك من سكوت الإنجيل عن المدّة السابقة، والأناجيل هي كتاب سيرة عيسى ﷺ، أو أنّ هذا السكوت القرآني إنّما هو بسبب أنّ الهدف من القصّة كان محصوراً بالأهداف السابقة التي كان يمكن تحقيقها بهذا القدر من الحديث، وما عدا ذلك فهو ليس من مهمات القرآن ولا أهدافه؛ لأنّه ليس كتاب تاريخ وسيرة، بل هو كتاب هداية وموعظة، ولا يبعد أن يكون الصحيح هو الثاني، واللّه أعلم.

الملاحظة الرابعة: الحوار مع الإسرائيليين

لا يحدّثنا القرآن الكريم عن حوار المسيح ﷺ مع قومه الإسرائيليين، ولا يذكر تفاصيل الانحرافات التي كان يؤاخذها عيسى ﷺ عليهم أو ينقدهم فيها، ولا الحجج والبراهين التي كان يلقيها عليهم غير المعاجز المذكورة في القرآن، كما أنّ القرآن لا يتحدّث ـ أيضاً ـ عن تفاصيل مقولات الإسرائيليين في عيسى ﷺ إلاّ بمقدار: ﴿ قَالُوا هذَا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴾، أو بهتانهم لمريم ﷺ وادّعائهم قتل المسيح وصلبه، وهي أمور محدودة.

ويكاد تتميّز قصّة عيسى ﷺ من بقية قصص أولي العزم بهذه الخصوصية؛ إذ فصّل القرآن نسبياً في الأنبياء: نوح وإبراهيم وموسى ﷺ ما لم يفصّله في عيسى ﷺ.

ولعلّ السبب في ذلك ـ مضافاً إلى ما ذكرناه في الملاحظة الثالثة ـ أنّ القرآن الكريم اعتمد في هذا الأمر على ما تحدّث به عن الإسرائيليين في مواضع عديدة؛ إذ تناول صفات انحرافهم والكثير من مقولاتهم ومدعياتهم، كما أشرنا إلى ذلك عند الحديث عن قوم عيسى ﷺ، وكان حوار القرآن والنبي معهم بهذا الشأن مغنياً عن الإشارة إلى الحوار، أو الحجج التي كان قد استخدمها عيسى ﷺ معهم.

وبهذا القدر من الحديث عن قصص الأنبياء نختم حديثنا في هذا الموضوع. نسأله تعالى القبول، وأن يكون موضع فائدة ونفع للدارسين والمطالعين، والتوفيق للفقه والتدبر والموعظة والتذكر.

كما نسأله تعالى أن يغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا في أمرنا: ﴿ رَبَّنَا لاَ تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلاَ تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْراً كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلاَ تُحَمِّلْنَا مَا لاَ طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلاَنَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾.

والحمد للّه رب العالمين، والصلاة والسلام على محمّد وآله الطيبين الطاهرين.


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

المحتويات

القسم الثاني: أنبياء أُولي العزم الأربعة